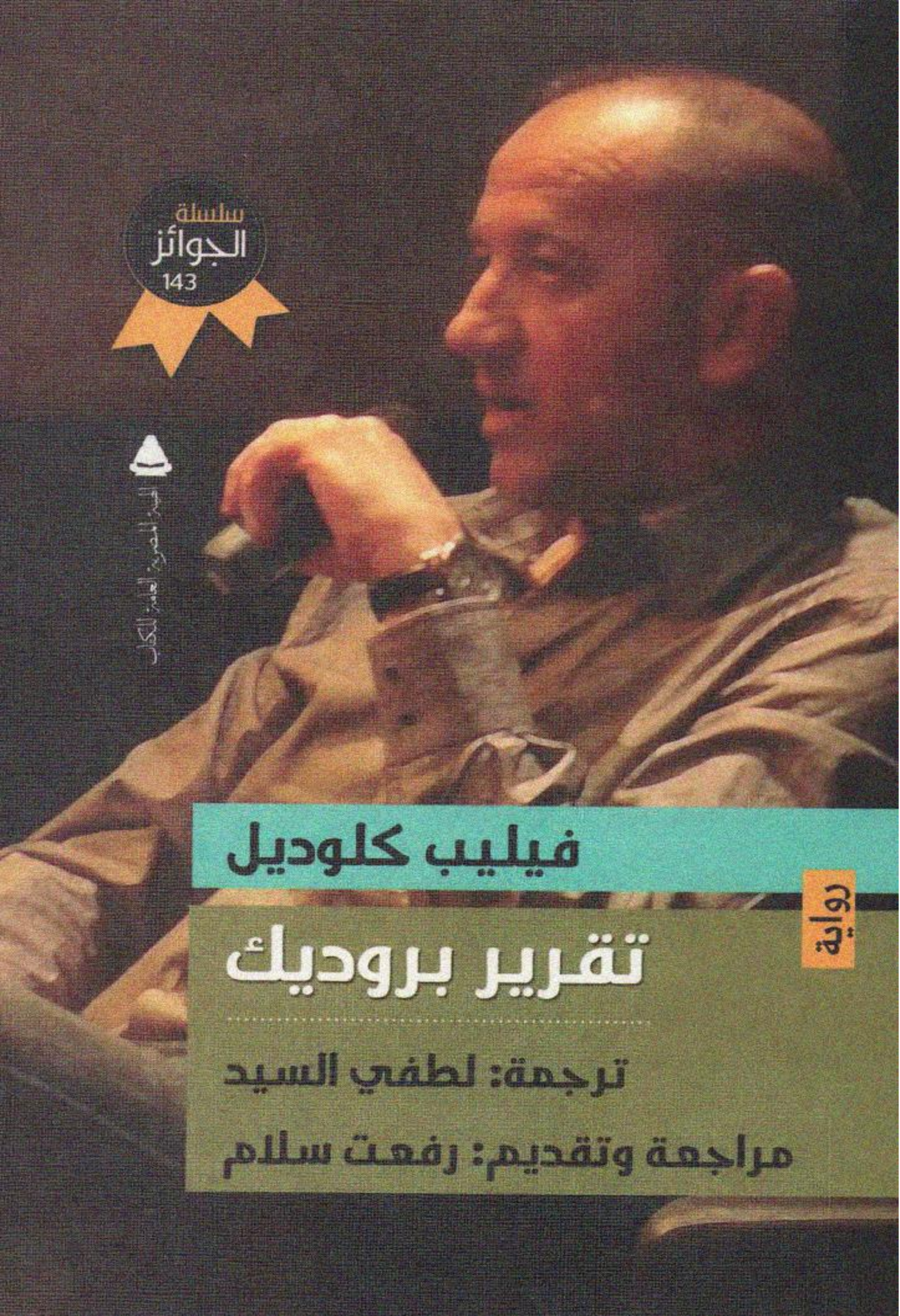


سلسلة الجوائز
143

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رواية

فيليب كلوديل

تقرير بروديك

ترجمة: لطفي السيد

مراجعة وتقديم: رفعت سلام

كلوديل، فيليب.

تقرير بروديك/ تأليف: فيليب كلوديل: ترجمة: لطفى السيد؛ مراجعة وتقديم: رفعت سلام. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

٣٥٢ص؛ ٢٤سم. ـ (جوائز)

تدمك ٤ ٠٥٣١ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الفرنسية.

أ ـ السيد، لطفى (مترجم)

ب ـ سلام، رفعت (مراجع ومقدم)

ج ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٧٣٤/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0531 - 4

ديوى ٨٤٣

تقرير برودیك

تأليف : **فيليب كلوديل**

رواية

ترجمة: **لطفي السيد**

مراجعة وتقديم: **رفعت سلاّم**

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

• الكتاب: **تقرير بروديك.**

Le Rapport De Brodeck

• تأليف: **فيليب كلوديل.**

Philippe Claudel

• ترجمة: **لطفي السيد.**

• مراجعة وتقديم: **رفعت سلام.**

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلي للهيئة المصرية العامة للكتاب..

• الطبعة الأولي 2015.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مقدمة

تقرير بروديك:

بطل بلا بطولة، وأزمنة بلا تخُوم

هو الرواي، لا "بطل" الرواية. الرواي الذي يجد نفسه مطالبًا - منذ السطور الأولى - بكتابة تقرير عن واقعة "قتل" لم يشارك فيها، بل لم يرَها أصلاً؛ يستبشعها ويرفضها داخله رفضًا قاطعًا. والمفارقة الأولى- والرواية حافلة بالمفارقات الخارقة- أنه لا يستطيع التنصل أو التهرب من كتابة "التقرير"، إزاء إصرار رجال القرية "القتلة".

رواية بلا "بطولة"، بالمعنى الأخلاقي، أو الإنساني العام، أو بالمعنى الإبداعي المعتاد. فلعل المؤلف لم يكن يسعى إلى تمجيد بطولةٍ ما، أو إعلانها، بقدر ما كان يسعى إلى النقيض، تمامًا.

وفي الطريق إلى "التقرير"، يتكشف العالم - بأشخاصه الفرديين، وتوجهاته الجمعية - عما لا يخطر ببال.

فهي ليست فحسب رواية جريمة قتل غريبة لشخص يبدو بالغ الغرابة (وهي حدثها الرئيس)؛ ولا هي فحسب أيضًا رواية فظائع الاحتلال

ومعسكرات الاعتقال النازية (وهي أحد أبعادها المهمة)؛ بقدر ما هي إعادة طرح أسئلة الوجود الأساسية، ومعاني الفعل الإنساني، وغاياته، من خلال جريمة القتل وفظائع الاحتلال النازي.

هي اكتشافات أعماق الجوهر الإنساني، الأقرب إلى الغريزية الأولية، التي لا تتجلَّى إلا في مواجهة "الخطر" وتهديد الوجود، دفاعًا عن الوجود الذاتي، وتماسكه الأدنى.

ولا تأملات أو أفكار مباشرة، أو حِكَم أو أقوال مأثورة. لكن الرواية تعج - فيما بين السطور وتحتها، من خلال الأحداث وسلوك الشخصيات المختلفة وردود أفعالها المتوقعة أو الغريبة- بذور الأسئلة التي ستنمو تلقائيًا في ذهن القارئ المتأمل، حول معنى الوجود الإنساني، وأسئلته الكبرى.

ـ ١ ـ

ليست أولى روايات الروائي الفرنسي "فيليب كلوديل" (مواليد 1962) بمنطقة اللورين، على الحدود الشمالية مع ألمانيا)؛ بل سبقتها روايات ومجموعة قصصية، من بينها فازت روايته "النفوس الرمادية" (2003) بجائزة "رونودو" الفرنسية.

و"تقرير بروديك" هي الرواية الفائزة بإحدى جوائز "الجونكور" الشهيرة (2007) رواية تطولها الحرب العالمية الثانية، بعد أن اشتبكت "النفوس الرمادية" مع وقائع الحرب العالمية الأولى.

ـ ٢ ـ

المكان: قرية جبلية صغيرة على أحد تخوم العالم (يستنتج القارئ الموقع

التقريبي لها، بلا تحديد قاطع جغرافيًا)، نسيتها التواريخ والأزمنة والكيانات السياسية، كأنها بلا وجود مادي. أحد التخوم التي تتماس مع تخوم أخرى بلا تأثير أو تأثر ذي بال، على مدى تاريخها الماضي (حسب رواية "الراوي")(١) وأهلها مجموعة بشرية تعيش الحدود الدُنيا من الحياة اليومية الأولية. رعي وزراعة بالمعنى الأوَّلي. على حافة التاريخ والوعي والحضارة والدولة. الغرائز الأولية هي سيدة الموقف "الجمعي" الذي يقوده - على نحوٍ ما - عُمدة قوي الشخصية والحضور والبراجماتية، بلا اعتبار لأخلاق.

ولغة القرية ليست من اللغات "الرسمية"، المعيارية؛ هي لغة "محلية"، تتداخلها كلماتٌ عامية كثيرةٌ، وبعض الألمانية السليمة أو المحرَّفة، رغم غلبة الفرنسية. ألقابٌ وصفات من خارج اللغة المعروفة تتناثر في الحياة اليومية، وأغنيات ألمانية يردد بعض الشخوص مقاطع منها في سياقات مختلفة، وكلمات قادمة من أغوار التاريخ اللغوي، بلا تحديد واضح للمصدر(٢).

والمكان المركزي نُزلُ صغير فقير يلتقي فيه الرجال، يشربون ويثرثرون، لا أحد يخرج من القرية، ولا أحد يأتي إليها، إلا في حالات نادرة، تلك الحالات التي لا تمر عادةً بسلام، بل بكارثة ساحقة.

الزمان: لا تحديد قاطعًا أيضًا؛ لكن الأحداث تقول - بلا تأكيد- إنه زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية بشهور، ما بعد اجتياح القوات النازية

(١) علي الأرجح، هي إحدي قرى "الألزاس" و "اللورين"، علي الحدود الفرنسية الألمانية، المتنازع عليها طويلاً بين الدولتين، فيما "اللورين" مسقط رأس الروائي. ولا يشير المؤلف ـ تحديدًا ـ إلى ذلك؛ بل هو استنتاج يتركه للقارئ العارف. (المترجم).

(٢) عند ورود مثل هذه الألفاظ أو العبارات، اعتمد المؤلف ـ على لسان "الراوي" ـ تقديم "المعني" مباشرة بالفرنسية، ضمن سياق الحكي، أو تقديم "ترجمة" فرنسية للنص تليه مباشرة، عدا حالة واحدة قدم فيها نص أغنية بالألمانية (في بضعة سطور) بلا ترجمة، وسيجدها القارئ مترجمة إلي العربية في موضعها. (المترجم).

للخارج الألماني (الذي وصل القرية ساحقًا ماحقًا)، وما بعد الهزيمة الألمانية وانسحاب قواتها الخارجية.

لكن "الراوي" يعود- بفاعلية الذاكرة- إلى الوراء، بعيدًا، ابتداءً من لحظة وعيه بكارثته الشخصية الأولى: طفلاً مشردًا على الطريق إلى المجهول، بعد احتراق منزل الأسرة بمن فيه؛ وقريبًا إلى كارثته الثانية بالاعتقال النازي؛ وأقرب إلى ما جرى بالأمس القريب من وقائع "الإيرينيه" (واقعة القتل)، إلى الراهن: وقت كتابة "التقرير".

حركة حُرة للذاكرة بين مستويات الماضي والوعي، بلا تخطيط ميكانيكي (لكنها حركة محسوبة روائيًا، بدقة غريبة، بما لا يسمح بطغيان مستوًى على آخر، أو حدث على سواه).

ـ٣ـ

تبدو الرواية - للوهلة الأولى- مستفيدة من التقنية "البوليسية"، تقنية البحث عن الفاعل، وحل لغز الجريمة (القتل)، التي يعرف بها القارئ منذ الصفحات الأولى، يعرف شخوصها ومكانها، فيما يُرجئ المؤلف معرفة الأهداف والبواعث إلى النهاية.

لكن الجريمة هنا ليست "فردية" (يعرف القارئ بذلك، منذ البداية)؛ هي جريمة "أهل القرية" جميعًا، فيما عدا "الراوي" (الذي كان غائبًا عن مسرح الجريمة لحظة ارتكابها) لشخص غريب وفد إلى القرية مع حمار وحصان، وسكن بإحدى غُرف النُّزل، بلا اسم أو هوية أو غاية.

كما أنها لم تُرتكَب من أجل أحد الدوافع التقليدية، الفردية: السرقة، على سبيل المثال، أو الانتقام الشخصي. بل الأغرب أن الضحية- حتى لحظة القتل- لم يكن معروف الهوية تمامًا للقتلة، رغم أنه عاش بينهم فترة من الوقت؛ لا يعرفون جواب أي سؤال جوهري يتعلق به: مَن هو؟ مِن أين جاء؟ لماذا اختار القرية بالذات للإقامة؟ هل ثمة هدف خفي ما؟ بل ما

اسمه؟! (لهذا السبب، تمنحه القرية اسمًا من اختراعها: "لاندرير"= "الآخر").

كما أن الجريمة - هنا، على عكس الرواية "البوليسية" التقليدية - معروفة "الفاعل"، منذ البداية. ويتحول الهدف "البوليسي" للراوي - المكلف بكتابة "التقرير"- وللقارئ إلى معرفة الدوافع والملابسات، وكيفية "القتل"، وخاصةً مع غرابة الجريمة، وربما يتكشف ما هو أكثر عن ماهية هذا الـ"لاندرير" ودوافعه وسبب اختياره لهذه القرية بالذات للإقامة، مع حماره وحصانه.

ووصولاً إلى فك خيوط "الجريمة"، في نهاية الرواية، يتكشف العالم بأسره، عالم "الراوي"، وأهل القرية، وحضور الضحية الغريبة في حياة القرية المعزولة، ووقائع احتلال القوات النازية، وكيفية تفاعل أهل القرية مع شروط الاحتلال، بفاعلية شخوصه الرئيسين، بتفاهة الحياة اليومية، بسيرة حياة "الراوي"، التي توازت مع تاريخ القرية..

ليست رواية "بوليسية"، وإن استخدمت إحدى تقنياتها الشهيرة. رواية تُعري جوهر الوجود الإنساني، الفردي والجمعي، الذي لا ينفضح عمقه إلا لحظة المواجهة.

ـ ٤ ـ

لا يقدم الراوي نفسه بوصفه بطلاً ما، من أي نوع أو مستوى، بل بوصفه شخصًا عاديًا في "محنة" حقيقية: كتابة "التقرير"، بعد مفاجأته المذهلة بواقعة "القتل" (هو أكثر شخصيات القرية اقترابًا حميمًا من الضحية)؛ وخاصةً أنه "تقرير" يتحدى ضميره: فلابد - حسب موقف العمدة- أن يرصد ما جرى بلا "إدانة". "تقرير" تبريري إذن لما لا يُبَرَّر، كما أرادته القرية: "لقد حملوني بمهمة تتجاوز بكثير قُدرة كتفيَّ وقُدرة عقلي. لستُ محاميًا. لستُ شُرطيًا. ولا قصاصًا".

لكنه- داخله - يدرك، من ناحية أخرى، أنه كان سيعجز عن فعل أي شيء، فيما لو كان حاضرًا لواقعة "القتل": "لو كنت في النُّزل، لما استطعت أن أفعل شيئًا لمنع ما حدث، وكان لي أن أفعل أقل شيء ممكن، ولكنتُ حضرتُ هذا المشهد المرعب عاجزًا. هذا التخاذل، وإن لم يكن قد حدث، كان يثير اشمئزازي".

لعل السبب يكمن في إحساسه العميق بدَينه تجاه القرية، التي سبق أن أرسلته - دون غيره - في "بعثة" تعليمية مبكرة، إلى الخارج، بتبرعات أهلها الفقيرة، المالية والعينية.

ولعل السبب يكمن في تركيبته الشخصية، التي لا تستطيع المواجهة وقول "لا"، وتؤثر السلامة والانحناء- حتى الحدود القصوى، أحيانًا- أمام العواصف.

قبل هذه المحنة "الراهنة"، كان قد نجا بأعجوبة من محنة أفدح كادت تكلفه حياته كلها، بعد أن قدمته القرية لقمةً سائغةً إلى قوة الاحتلال النازي، التي طالبت القرية بتطهير نفسها من "الغرباء". وفي معسكر الاعتقال، تحول- بعد أشكال من البشاعات الدموية - إلى "الكلب بروديك"، الذي يضع الحُراس في رقبته طوقًا مرتبطًا بمقوَد يُمسك به الحارس، ليعيش حياته- على مدى شهور الاعتقال - كلبًا يتحرك على أربع، ويأكل بفمه مباشرةً، وينام بغرفة الكلاب.

لكنه - بعد انتهاء الحرب، وعودته غير المنتظرة- لا يهتم بمعرفة أسماء مَن قدموا اسمه إلى قوة الاحتلال من أهل القرية. فما الذي سيفيده من هذه المعرفة؟

والراوي ليس مجرد "شاهد" يُدلي بشهادته، أو يسجلها؛ وذاكرته ليست مجرد أداة له؛ إنها هو، وهو هي؛ هو - في ذاته، في كله، في وجوده اليومي - "ذاكرة" حية لا تنام، ولا تنسى. وجسمه وروحه هما جغرافيا وتاريخ. ووجوده - خارج ذلك - من النوافل، من الطقوس الشكلية، العابرة.

هو - على نحوٍ ما- "الرائي" لما جرى، و- على نحو آخر- جسم ما جرى، و - على نحو ثالث - الوعي بما جرى. وهو - في نفس الوقت - "الراوي" لهذه الأبعاد، راوٍ تقليدي يعرفه فن الرواية الحديثة، وكاتب لـ"التقرير" الخاص بالجريمة، المكلف من قِبل "القتلة" (للغرابة! بدعوى أنه المتعلم الوحيد بالقرية، الذي يملك "آلة كاتبة"، ويعرف الكتابة عليها)، المسموح له- إلى حدٍّ ما- بجمع المعلومات، وسؤال شهود العيان، وصياغة التقرير؛ لكن تحت العيون المتوجسة منه، والتهديدات الضمنية، طول الوقت.

فهل تكمن "بطولته" في قدرته على تجاوز الأهوال، والبقاء- مجرد البقاء - على قيد الحياة، بأي ثمن؟ "معظم مَن كانوا محبوسين معي رفضوا أن يقوموا بذلك. ماتوا. أما أنا، فكنت آكل كالكلاب، على أربع وبفمي. وأنا على قيد الحياة". ذلك ما يقوله لنفسه، بعد العودة، عزاءً أو تبريرًا أو إرضاءً للذات. "لم تكن لديَّ الرغبة في أن أنتهي مثل "لاندرير"؛ ذلك ما يقوله لنفسه عزاءً أو تبريرًا لعجزه عن رفض التكليف بكتابة "التقرير"- التبريري- عما لم يره أو يشارك فيه.

أهو التمسك بالحياة، مجرد الحياة بمعناها المباشر الحرفي، في مواجهة الموت، في مواجهة الوعي الذاتي بالعجز عن المقاومة، بلا جدوى المقاومة؟

ـ ٥ ـ

لكن الروائي المُحنَّك، والمنتبه لآليات استقبال روايته لن يسمح- رغم ما يعرضه من بشاعات النازيين الدموية والهمجية - بتسرب أية مشاعر "عنصرية" تجاه "الألمان"/ الشعب، وسيعثر- خلال السرد - على شخصية عجوز ألماني يستضيف - بكل محبة إنسانية دافئة وغامرة - "الراوي" المدمَّر، الخارج لتوه من جحيم معسكر الاعتقال، بعد انتهاء المعركة. هو التمييز الدقيق بين "النازيين" و"الألمان" العاديين، بلا خلط أو سهو.

- ٦ -

تقف القرية - بوصفها شخصية جمعية، ذات ملامح خاصة - في مواجهة الراوي. هي القرية التي اجتمع أهلها على إرسال الراوي إلى العاصمة - من خلال التبرعات - ليكتسب التعليم اللائق، ويعود إليهم، باعتباره أحد أبنائها.

لكنها نفس القرية التي رمت به - بلا تردد - إلى قوات الاحتلال النازي، كأضحيةٍ، باعتباره "غريبًا" عن أهل القرية الأصلاء (لم ينسوا- على مَر السنين - أنه ليس من أبناء القرية التي أتى إليها طفلاً مشردًا، لا يعي مأساة دمار حياته الأسرية).

وبعد عودته من الجحيم، على غير ما كانوا يتوقعون، يطالبونه- بشكل عابر، لا مبالٍ- بالنسيان والتسامح! دون أن يتخلوا عن توجسهم الدائم منه، والتهديد الضمني - فيما بين الكلمات المراوغة- إذا ما أتى "التقرير" على غير ما يشتهون.

يقود العمدة القرية. مُربي خنازير، أبًا عن جد، وهي عماد ثروته التي لم يربكها الاحتلال. أفكاره أقرب إلى الغرائزية، البدائية، المستمدة من خبرته بعالم الخنازير: "قريتنا تشبه نفسها، قطيع"، كما قال. وأهم سمات القطيع- الحيواني والإنساني - لديه أن أفراده لا "يطرحون أسئلةً أبدًا. مطلقًا.. لا يتركون شيئًا وراءهم، لا أثر، لا دليل. لا شيء. وهُم، يا بروديك، لا يفكرون. لا يعرفون الندم. يعيشون. الماضي- بالنسبة لهم- مجهول. ألا تعتقد أن هؤلاء هم العقلاء؟".

ويدير العمدة القرية والأحداث بحنكة، سواء خلال فترة الاحتلال، أو خلال واقعة القتل. ورغم أن دوره "التفصيلي" التنفيذي لا ينكشف للراوي (ولا لنا، بالتالي)؛ إلا أنه مؤكد بالشواهد، وبظلال أحاديثه المتفاوتة مع الراوي. هو دور مَن يدير الحدث، أو يوحي به، أو يوظف الآخرين لتحقيقه، ولا يقوم به بنفسه.

أما الضحية، تلك الشخصية الغامضة حتى النهاية، فلم ترتكب - إزاء القرية -سوى وضع مرايا أمام أهل القرية، يرى فيها كلٌّ منهم نفسه، على حقيقتها، لأول مرة. مرايا ربما لا تعرض بدقة الظاهر الخارجي، لكنها تفضح - بشكل ثاقب، لا مفر منه - الداخل المتفاوت في القُبح والدمامة والنذالة.

ولأنهم ليسوا خنازير تمامًا - حسب ما يظن العمدة- فقد أدركوا، ولو بالغريزة، فضيحتهم وانتهاك سرهم العميق؛ أو لعلهم اكتشفوا- من خلال تلك المرايا- ما لم يكن في وعيهم: أنهم ينطوون على كل هذا القُبح والشر، الجدير بمسوخ لا بآدميين.

- ٧ -

للذاكرة فاعلية أولى. هي سيدة الرواية، وأداة "الراوي" و"الروائي"، معًا. هي التي تأتي بكل التفاصيل (الرواية مكتوبة باستخدام "الماضي"، بمستوياته المختلفة، المعبر عنها نحويًا، ولن نعثر على "المضارع" إلا في حالات استثنائية). وهي التي تكشف- بشكل لاحق- العلاقات والأسرار التي كانت غامضةً ذات يوم. وهي القُدرة الوحيدة ربما التي يمتلكها "الراوي"، ويسمح لها بالتحقق الفعلي.

هي نفي النسيان، وسيدة القلق والإزعاج. وهي - بالتالي - الخطر الذي تواجهه القرية. ولا يعي هذا الدور سوى العمدة، فيُحذر بروديك (الراوي): "خطر الذاكرة هو أكثر الأخطار رعبًا، لستَ أنت من أُخبره بذلك، أنت الذي يتذكر كل شيء، أنت الذي يتذكر أكثر مما ينبغي".

- ٨ -

والرواية درسٌ إبداعي في نفس الوقت. لا يتعلق الأمر- فحسب- بضبط الإيقاع العام للنص الروائي، إلى حد الرهافة الإيقاعية "الصارمة"، ونفي أي ترهل أو تزيد (ما أكثر المواقف والأحداث التي كانت تغري

بالاسترسال والاستفاضة، والترهل اللغوي والعاطفي؛ ما أكثر اللحظات التي تهدد - أو كان يمكن أن تهدد- بالانجراف نحو الغنائية أو الإنشائية(*) أو إصدار الأحكام من الخارج، أو تعسف النتائج، أو الافتعال، أو الخضوع للمزاجية، فالعشوائية، إلخ)؛ هي درسٌ في إحكام البنية الدقيق، وسيطرة الروائي/المبدع برهافة على مسيرة النص، وتوازناته الداخلية (على صعيد الشخصيات، والعوالم، والإيقاع، والانتقال السلس- بلا نتوءات أو افتعال- من سياق إلى آخر، من زمن إلى آخر، إلى التوازن "الشكلي"/البنائي بين الأقسام المختلفة).

ودرسٌ في سيطرة الروائي على أدواته هو، فلا يفلت النص- بنيةً وتفاصيل - من يده الخبيرة. ما مِن تفصيلة مجانية بلا وظيفة، ما مِن جملة قابلة للحذف، ما مِن شخصية لا تضيف بُعدًا مهمًا إلى عالم الرواية، مَا مِن حدث عشوائي؛ ما مِن اندراج في عاطفية، أو استدرار للمشاعر، أو ابتزاز شعوري للقارئ.

هي رواية مضادةٌ لـ"العشوائية" في الكتابة الإبداعية، بكل معنًى، تحترم تقاليد الكتابة الروائية الحديثة، وتضيف إليها- بصرامتها البنيوية والأسلوبية الجميلة الدقيقة، وباكتشافاتها عوالم خفية أو منسية- بصمةً خاصةً بمؤلفها المتفرد.

ـ ٩ ـ

أما الحل النهائي للموقف، موقف "الراوي" مما جرى، ومن رد فعل العمدة، فهو حل فريد حقًا، من مقام إبداعي وفكري رفيع؛ ذلك المقام

(*) لم يستسلم الروائى ـ في أية لحظة أو موقف ـ لتيار "التذكر"، خاصة في الوقائع المغرية ـ بـ "الميلودراما"، فلجأ -- بصورة متكررة ـ إلي قطع" مسار التذكر، والانتقال إلي حدث آخر، لعدم تحويل الحدث "عاطفية"، وتحويل النص ـ بالتالي ـ إلي حالة "إنشائية" ميلودرامية، على نحو ما يحدث كثيرًا حتى مع كتاب مخضرمين. فأي حدث ـ في الرواية ـ لا يكتمل مرة واحدة.. بل يستكمله الروائي علي مدى النص بكامله، لتظل معرفة القارئ مرجأة الاكتمال حتى الصفحة الأخيرة. (المترجم).

الذي ينتمي إليه - على سبيل المثال - الحل العبقري الذي ختم به "هنريك إبسن" مسرحيته الشهيرة "بيت الدمية".

حلٌّ يناقض مسيرة حياة ومواقف "الراوي"، ظاهريًا؛ لكنه- في نفس الوقت- نتاج هذه المسيرة واكتشافاتها وآلامها التي لا تريد الذاكرة أن تنساها. حلٌّ يُحرر به "الراوي"- بعد انتهائه من "التقرير"- إرادته من الإذعان والرضوخ الاضطراريين، الطويلين، ويتجاوب مع الوعي المتراكم بتلك المسيرة وعذاباتها القاصمة. فهو تحقق "الوعي" في "سلوك" و"موقف" نهائيين، قاطعين.

- ١٠ -

ليس عبثًا أن فازت رواية "تقرير بروديك" بجائزة "الجونكور" الروائية (فالجوائز الأدبية لديهم لا تعرف المجاملات، أو أعمال العلاقات العامة والشخصية؛ لا تعرف- بالتالي- الفضائح المتفاوتة، المضحكة أحيانًا، المثيرة لعلامات الاستفهام كثيرًا!! المعلنة أو المكتومة).

فما أكثر الدروس التي تحفل بها الرواية، لمن أراد، وامتلك البصيرة الإبداعية والثقافية.

نعم، ما أكثر الدروس.

- ١١ -

بصدور هذه الترجمة، نكون قد كسبنا مكسبًا مزدوجًا: الرواية ذاتها، بقيمتها الفنية والثقافية الرفيعة، و- الأكثر استراتيجية وأهمية- مترجمها، الذي تمثل الرواية باكورة أعماله - المنشورة فى كتاب - في مجال الترجمة الأدبية.

فمستوى الترجمة التي تسلمتها منه للمراجعة كان يتخطى - بكل معيار - أعمال البدايات، التي عادةً ما تتسم بعشوائية ما. مستوًى ينم عن

إمكانات كامنة وقدرات فعلية واعدة، لن يطول انتظارنا حتى نرى ثمارها ناضجةً بين أيدينا.

وإنّا لمنتظرون.

رفعت سلاّم

تقرير بروديك

إلى هؤلاء وأولئك

الذين يعتقدون أنهم لا شيء

إلى زوجتي وابنتي،

اللتين بدونهما لم أكن لأصبح شيئًا ذا بال.

"أنا لا شيء، أعرف ذلك،

لكني أؤلف لا شيئي بقطعة صغيرة من الكل".

"فيكتور هوجو، الراين"

ـ ١ ـ

اسمي برودیك، ولا دخل لي في ذلك.

هذا ما أُصر على قوله. وهذا ما لابد أن يعرفه الجميع.

فأنا لم أحرك ساكنًا، وعندما عرفت بما حدث، لم أرغب في الحديث عنه قط، فقيدتُ ذاكرتي، وأحكمتُ وثاقها على نحو يجعلها ساكنةً كابن عُرس في قفص حديدي.

لكن الآخرين أجبروني: "أنت، أنت تعرف الكتابة، قالوا لي، لقد قمت بدراسات". أجبتهم بأنها كانت دراسات بسيطة للغاية، فضلاً عن أنها دراسات لم تكتمل، ولم تترك في نفسي أثرًا كبيرًا. لم يريدوا معرفة أي شيء. "أنت تعرف كيف تكتب، تعرف الكلمات، وكيف تستخدمها، بل كيف تعبِّر هذه الكلمات عن الأشياء. وذلك سيكفي. فنحن لا نستطيع القيام بذلك. سيحدث ارتباكٌ ما، لكنك أنت، ستستطيع، ولذلك سيصدقونك. علاوةً على ذلك، فلديك الآلة".

الآلة، إنها قديمة جدًا. بل إن العديد من مفاتيحها مكسور. ولا أملك إصلاحها. وهي مزاجية. مستهلكة. ويحدث أن تتعطل دون سابق إنذار كما

لو كانت غاضبة. ولكني لم أقل ذلك، لأني لم تكن لديَّ الرغبة في أن أنتهي مثل "لاندرير"(*).

لا تسألوني عن اسمه، فلم نعرفه قط. وسرعان ما دعاه الناس بتعبيرات مبتكرة، اختلقوها من اللهجات المحلية والتي أترجمها: "ڤولوجا"- الجاحظ - بسبب نظرة عينيه التي كانت تجحظ قليلاً من وجهه، "دي مورميلنر"- الهامس- لأنه كان قليل الكلام، ودائمًا كان خفيض الصوت لدرجة أننا كنا نظنه صوت تنفسه، "موندليش"- القَمَري- بسبب سيمائه التي يبدو بها أنه معنا وليس معنا، "جيكامدورهين"- هذا الذي أتى من بعيد.

لكنه دائمًا ما كان بالنسبة لي "أندرير"- الآخر- ربما، لأنه - فضلاً عن مجيئه من مكان غير معلوم- كان مُختلفًا، وذلك ما كنت أعرفه جيدًا: بل حتى في بعض الأحيان، لابد أن اعترف بأنني كان لديَّ الإحساس بأنه- إلى حدٍّ ما - أنا.

لم يسأله أيٌّ منا عن اسمه الحقيقي قط، عدا العمدة، ربما ذات مرة، إلا أنه، على ما أعتقد، لم يحصل على إجابة. وحتى الآن لا نعرفه. فاتَ أوان ذلك، وهذا أفضل بلا شك. فذلك- في الحقيقة - يمكن أن يقطع الأيدي، ولا تبقى سوى أحشاء لن يمكننا العيش بها، ومعظمنا يريد العيش، إنه الأمر الأقل ألمًا قدر الإمكان. إنساني. وأنا على ثقة من أنكم ستكونون مثلنا لو كنتم قد خبرتم الحرب، التي دارت هنا،خاصة مَن تابع هذه الحرب، في هذه الأسابيع وهذه الشهور، خاصة الأسابيع والشهور الأخيرة التي وصل خلالها هذا الرجل إلى قريتنا، واستقر بها فجأة، هكذا. لماذا اختار قريتنا؟ فهناك الكثير من القرى على سفوح الجبل، مقامةً بين

(*) أي "الآخر". وكل الهوامش التالية من صنع المترجم، وهذه الكلمة والكلمات الأخرى، المشار إليها بأحرف لاتينية مأخوذة من لهجات محلية، كما أشار المؤلف، واستخدمها بدلا من الكلمات الفرنسية، ولذلك كتبت منطوقها اللاتيني باللغة العربية في السياق، وذلك بعد شرح المؤلف لمعناها في النص. (المترجم).

الغابات كبيض في عُش، ويتشابه الكثير منها وقريتنا. فلماذا اختار بالتحديد قريتنا، وهي بعيدة عن الكل، ضائعة؟

كل ما أحكيه هذا، وقت أن قالوا إنهم كانوا يريدون أن أكون هذا الشخص، حدث في نُزل شلوس، منذ نحو ثلاثة شهور. بالضبط بعد.. بالضبط بعد الـ.. لا أعرف ماذا أسميه، فلنقل، الواقعة، أو الدراما، أو الحدث. إلا إذا قلت "إيرينيه". فـ l'Ereigniës " الإيرينيه": كلمة تثير الفضول، مليئة بالضبابية، شبحية، وتعني تقريبًا "الأمر الذي حدث". ربما من الأفضل أن نقول ذلك بلفظة مأخوذة من العامية، التي تُعتبر لغة دون أن تكون لغة، لكنها تقترن تمامًا بطباع وتنهدات وأرواح هؤلاء الذين يقيمون هنا. و"الإيرينيه" تصف ما لا يمكن وصفه. نعم، سأقول "إيرينيه".

كان ذلك قد وقع، إذن. فباستثناء اثنين أو ثلاثة من العجائز القابعين جنب مواقدهم، والقس بيبيه- ولا شك- الذي كان لابد أن يعتق شراب الخوخ في مكانٍ ما من كنيسته الصغيرة، بجدرانها العريضة التي تشبه بسطة جناحَي نسر، كان الكل هناك، في النُّزُل الذي يشبه كهفًا ضخمًا معتمًا قليلاً، مختنقًا بدخان التبغ ودخان المدفأة؛ كانوا مشدوهين، منزعجين مما حدث، وفي نفس الوقت - كيف نقول - هادئين، لأن هذا الأمر كان لابد أن ينتهي بطريقة أو بأخرى. فلم يستطع أحدٌ فعل ذلك حتى الآن، كما تعلمون.

كان كل منهم متدثرًا بصمته. فحتى لو كانوا تقريبًا أربعين شخصًا في النُّزُل، فقد كانوا متلاصقين كأغصان صفصافة في حزمة واحدة، يختنقون، يشمون روائح بعضهم البعض، وأنفاسهم، وأقدامهم، والدَّبق الحمضي لعَرَقهم، وملابسهم الرطبة، المصنوعة من الصوف البالي والجوخ، والمدعوكة بالتراب، بأشجار الغابة، بالزبل، بالتبن، بالنبيذ والبيرة، خاصةً النبيذ. لم يكن ذلك لأن هؤلاء أو أولئك كانوا سكارى، لا، فسيكون الأمر أكثر سهولة مع عُذر السُّكر. ودفعةً واحدة سيتم محو كل وحشية.

الأمر بسيط جدًا. بالغ البساطة. وسأحاول ألا أخفف مما هو بالغ الصعوبة والتعقيد. سأحاول. ولا أعدكم بأني سأنجح.

فلتفهموني جيدًا، أكرر ذلك، فقد كان بوسعي أن أصمت، لكنهم طالبوني بأن أحكي، وعندما طالبوني بذلك، كان معظمهم إما مُكوِرًا يديه، أو يضعها في جيبه، فيما كنت أتخيلها ممسكةً بمقبض سكين، هؤلاء أنفسهم الذين كانوا على وشك أن...

لم يكن عليَّ سوى الذهاب بسرعة بالغة، لكن ذلك صعب، لأني أشعر الآن بأشياء خلفي، تحركات، ضجيج، نظرات. ومنذ بضعة أيام، تساءلت: ماذا لو لم أتحول شيئًا فشيئًا إلى طريدة، وملاحقة لأثري وكلاب تتقصى. أشعر بأني مراقَب، مطارَد، مرصود، كأن هناك - دائمًا، من الآن فصاعدًا - شخصًا ما خلف ظهري يلتقط أدنى إيماءاتي ويقرأ ما في عقلي.

سأعود مرةً أخرى إلى ما استُخدمت فيه السكاكين. مُجبرًا سأعود. فما كنت أود قوله، هو أن رفض ما تم طلبه، في هذا المزاج الاستثنائي جدًا، حيث الهمجية والأفكار الدموية تملأ رأس الجميع، ليس ممكنًا، بل أمر بالغ الخطورة. إذن، فقد قبلتُ رغمًا عني. لقد وجدت نفسي ببساطة في النُّزُل، في اللحظة السيئة، بعد دقائق من "الإيرينيه"، في لحظة الذهول هذه التي تمثل لحظةً من التأرجح والحيرة، حيث يتم التشبث بأول مَن سيفتح الباب، إما من أجل أن يكون مخلّصه، أو أن يقطعه إربًا.

نُزل شلوس هو أكبر مقاهي قريتنا، وذلك من بين خمسة مقاهٍ أخرى، مثلما يوجد مكتب بريد، ومحل لبيع أقمشة، ومحل بقالة، وجِزارة، وبقالة، ودكان لبيع الكرشة والسَّقط، ومدرسة، ومُلحق لمكتب توثيق شلوس، قذر كحظيرة دواب، ويديره - بعويناته العتيقة - سيجفريد كنوف، الذي يُلقَّب بالمحامي حتى لو لم يكن إلا كاتب محام، والمكتب الصغير لجنكينز، الذي

كان يقوم بدور الشرطي، لكنه مات في الحرب. أتذكر أنه عندما رحل جنكينز، أول مرة، وهو الذي لم يكن معتادًا على الضحك قط، صافح الجميع وهو يضحك، كأنه كان ذاهبًا إلى حفل زواجه. لم يكن ليتذكره أحد. وعندما دار حول ركن ورشة نجارة موبيرشوين، قام بحركات غريبة بيده، وألقى بقبعته في الهواء، من أجل وداع سعيد. لن نراه بعد ذلك أبدًا. ولم يحل أحد محله قَط. كان مصراعا مكتبه الصغير موصدَين. ومن بعد، ستسد بعض الطحالب عتبة الباب. الباب مغلق بالمفتاح، ولا أعرف المفتاح مع مَن. لم أسأل قط. لقد تعلمت عدم طرح الكثير من الأسئلة. وتعلمت أيضًا التمييز بين لون الحوائط ولون تراب الشارع. لم يكن ذلك صعبًا. أنا لا أشبه أي شيء.

قام نُزل شلوس بإنشاء محل بقالة صغير، حيث كانت الأرملة برنارت تغلق بوابتها الحديدية عند غروب الشمس. كان أيضًا الأكثر ارتيادًا من المقاهي. كان يضم قاعتين: الكبيرة، تقع في المقدمة، بحوائط خشبية مطلية بالأسود، والأرضية مغطاة بالنشارة، وكنا نسقط تقريبًا فيها حين ندخلها، لأننا كنا ننزل درجتين صُلبتين، منحوتتين من الحجر الرملي، ومجوفتين في وسطهما على شكل منحنى نتيجة أثر نعال آلاف من السكارى الذين يرتادونها. ثم القاعة الصغرى، التي كانت تقع في الخلف، والتي لم أرها قط. كانت مفصولة عن الأولى بباب أنيق من خشب الأرز نُقش عليه تاريخ ١٨١٢. كانت القاعة الصغيرة مخصصة لبعض الأشخاص الذين يجتمعون بها مرةً أسبوعيًا، مساء الثلاثاء، يشربون ويدخنون تبغًا من حقولهم في غلايين من البورسلين بأنبوب مجوف، ونوعًا من السيجار الرديء لا نعرف أين صُنع. لقد أسموا أنفسهم "Erweckens' Bruderschaf إيرويكنز برودرشاف"، وتعني على وجه التقريب "جمعية أخوية اليقظة". اسم غريب لجمعية أخوية غريبة. لا نعرف بالضبط متى تكونت، ولا هدفها، ولا كيفية الانضمام إليها، ولا مَن هم المكونون لها، لا شك أنهم

كبار المزارعين، ربما المحامي كنوبف، وشلوس نفسه، وبالتأكيد العمدة، هانز أورشفير، الذي كان يمتلك غالبية المقدَّرات هنا. كما لم نعرف ماذا كانوا يصنعون، أو ماذا يقولون حين يلتقون. يحكي البعض أنهم اتخذوا بعض القرارات الضرورية، وأنهم وقَّعوا بعض العقود الغريبة. كما شكك فيهم البعض بأنهم لا يجتمعون إلا لاحتساء النبيذ، ولعب الورق، وهم يدخنون بكل سعادة ومرح. وكان هناك أيضًا مَن زعم بأنهم كانوا يسمعون الموسيقى تخرج من تحت الباب. ربما كان المُعلم ديودم هو مَن كان يعلم الحقيقة، وهو الذي كان يتصفح كل مكان، الأوراق ورؤوس الناس، وكان بالغ التعطش لمعرفة الأشياء وانعكاساتها. لكن هذا المسكين للأسف لم يكن موجودًا ليحدثنا عن ذلك.

تقريبًا لم أذهب إلى نُزل شلوس تقريبًا أبدًا، لأن ديتر شلوس - لابد أن أعترف- كان يزعجني بنظرته الماكرة، وجبهته التي كانت دائمًا متصببة عرقًا من رأسه الأصلع الوردي، وأسنانه البنية التي تشبه ضمادة متسخة. أما السبب الآخر، فهو أني منذ عُدت من الحرب لم أبحث عن رفقة الناس. لقد اعتدت على وحدتي.

مساء "الايرينيه"، كانت العجوز فيدورين قد أرسلتني إلى النُّزُل لأبحث لها عن الزُّبد الذي كانت تحتاجه. كانت تريد صنع بعض فطائر الرملية. وفي العادة، كانت هي التي تحضر المواد التموينية. ولكن- في هذا المساء المشئوم- كانت ابنتي بوبشيت تلازم الفراش لأنها كانت مصابة بحُمَّى شديدة، وفيدورين تجلس على حافة سريرها لتحكي لها قصة "بيليسي الخياط المسكين"، فيما كانت زوجتي إميليا تدندن لها لحن أغنيتها المفضلة برقة شديدة.

عندئذ، فكرتُ مليًا في قطعة الزبد الصغيرة هذه التي كانت تنقص خزانة الطعام. لم نضع في الحسبان قط كيف أن دورة الحياة يمكن أن تعتمد على أشياء بلا أهمية، قطعة من الزبد، درب يهمله الإنسان من أجل

أن يسلك دربًا آخر، ظِل يتبعه الإنسان أو يهرب منه، عصفور يختار المرء أن يقتله بالرصاص، أو ينقذه.

كانت بوبشيت تستمع، بعينين جميلتين ولامعتين، إلى صوت العجوز الذي كنتُ قد سمعته في الماضي، من نفس الفم، نفس هذا الفم حين كان أكثر شبابًا، لكنه أصبح الآن خاليًا من بعض الأسنان. نظرت إليَّ بوبشيت بعينيها الصغيرتين السوداوين المُحمرَّتين من الحُمَّى. كانت وجنتاها قد أخذتا اللون الأحمر. جعلتني أبتسم، وهي تمد يديها نحوي بحركات في الهواء، فيما تزقزق كفرخ بط: "بابا، تعال يا أبي، تعال!"

خرجتُ وفي أذني موسيقى طفلتي والأحاديث الهامسة لفيدورين:

"رأى بيليسي أمام عتبة كوخه ثلاثة فرسان مدججين بدروع أزال طلاءها الزمن. كان كلٌّ منهم ممسكًا بحربة ودرع فضي. لم يكن قد رأى وجوههم ولا عيونهم. في الغالب حدث ذلك في وقت متأخر".

ـ ٢ ـ

كان الليل قد ألقى بمعطفه على القرية كحوذي ألقى دثاره على ما تبقى من شرارات أضواء الطريق. كانت المنازل- بأسقفها المغطاة بألواح طويلة من خشب الصنوبر- تُسرِّب الأدخنة البطيئة الزرقاء، وتدفعنا إلى التفكير في الظهور المتصلبة للحيوانات القديمة بالعصور الحجرية. بدأ البرد يهلُّ، لا يزال بردًا خفيفًا، إلا أننا لم نكن قد اعتدناه في مثل هذه الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر التي كانت حارةً كأفران الخبز. أذكر أنني نظرت إلى السماء وقلتُ لنفسي، لدى رؤية كل النجوم متزاحمةً على بعضها البعض هكذا، مثلما تفعل مجموعة من صغار الطيور الخائفة التي تبحث عن رفقة، إننا عمَّا قريب سنغرق في الشتاء دفعةً واحدة. الشتاء الذي يستمر عندنا طويلاً كقرون يخترقها سيف كبير، وخلاله، يرسم اتساع الوادي المخنوق بالغابات - من حولنا - بابًا غريبًا لسجن.

عندما دخلت إلى النُّزُل، كانوا هناك، تقريبًا كل رجال قريتنا، بعيون بالغة القتامة، وبجمود الحجر، إلى حد أني خمَّنت في الحال ما جرى. أغلق أورشفير الباب ورائي ثم جاء نحوي. كان يرتعش قليلاً. غرس عينيه الواسعتين الزرقاوين في عينيَّ كأنه يراني للمرة الأولى.

بدأ بطني يتعارك، فاعتقدتُ أنه سيلتهم قلبي، حينئذ سألتُ بصوت خفيض، وأنا أنظر إلى السقف بكل كياني، لأثقبه بعينيَّ، محاولاً أن أتخيل حجرة "لاندرير"، بسوالفه الطويلة وشاربه النحيل، وشعره الخفيف المجعَّد الذي ينقسم على جانبي صدغيه، ورأسه الكبير والمستدير كرأس طفل ضخم وطيب، وقلت: "لَم تفعلوا هذا على الرغم..؟". كان سؤالاً بالكاد. بل كان بالأحرى أنينًا خرج مني بلا استئذان.

أخذني أورشفير من كتفيَّ، بيديه العريضتين كحدوتَي بغل. كان وجهه ممتقعًا أكثر من المعتاد، وعلى حافة أنفه المثقوب من الجُدري قطرة عرق صغيرة ولامعة كبلّور صخري انحدرت ببطء بالغ. كان لا يزال يرتعش، وبإمساكه لي هكذا، جعلني أرتعش أيضًا. "بروديك.. بروديك.." هذا كل ما نجح في قوله. ثم تراجع ليدخل من جديد بين حشد الرجال الذين كانوا ينظرون إليَّ جميعًا، وذاب فيهم.

أحسست أنني فرخ ضفدع ضئيل تائه في غدير كبير في الربيع. كان رأسي يُدوي. وبغرابة، فكرتُ في الزُبد الذي جئتُ من أجله. التفتُ نحو ديتر شلوس الذي كان يقف خلف ماكينة الصرف، وقلت له: "جئت فحسب لإحضار زُبد، قليل من الزبد، هذا كل ما في الأمر..." رفع كتفيه الهزيلتين ليُصلح من حزامه المرتخي على بطنه الشبيه بالكمثرى، وأعتقد أن فيللهم فورتينهو- وهو فلاح له رأس أرنب، ويمتلك كلَّ الأراضي التي تمتد من غابة شيتنوه إلى هضبة هانك- تقدم قليلاً، في هذه اللحظة، وقال لي: "ستحصل على كل ما تريد من الزبد، بروديك، ولكنك ستحكي القصة، ستكون الناسخ". جُلت بنظري مندهشًا. وتساءلتُ أين استطاع فورتينهو أن يذهب للبحث عن كلمة "ناسخ"؟ - لقد حرَّف نطقها، فالـ"س" أصبح في فمه "ش"- هو الأحمق الذي لم يستطع قط أن يفتح كتابًا في حياته.

إن مهنة حكي القصص ليست مهنتي، فلم أكتب إلا ملاحظات قصيرة عن حالة النباتات، والأشجار، وفصول السنة والصيد، عن تحاريق نهر

ستوبي، عن الثلج والمطر، عمل بلا أهمية بالنسبة لإدارتي، التي هي- على كل حال - بعيدة جدًا، تقتضي أيامًا وأيامًا من السفر، ولا قيمة لها. لا أعرف كثيرًا ما إذا كانت تقاريري تصل إلى وجهتها، ولا حتى ما إذا كانت قد قُرئت.

منذ الحرب وسعاة البريد يعملون بشكل سيئ، وكأن يلزم - على ما أعتقد- الكثير من الوقت ليعود ذلك إلى الاستقرار. وتقريبًا لم أعد أتلقى نقودًا. وتملكني شعورٌ بأني نُسيت، أو أنهم ظنوا أني قد مت، أو بالأحرى لم يعدوا بحاجة إليَّ.

في بعض الأحيان، كان الفريد فورتسفلر، ساعي البريد الذي كان يقضي في المرة الواحدة - ذهابًا وإيابًا إلى شلوس - خمسة عشر يومًا على قدميه ليتبادل البريد- فهو الوحيد الذي كان يمكنه الذهاب، لأنه كان لديه "تصريح" -كان يُفهمني أنه يحمل إليَّ حوالة ويعطيني بعض السندات المالية. وأطالبه ببعض الإيضاح. يقوم بحركات كثيرة لا أستطيع تفسيرها، وبأصوات مفرومة كاللحم تخرج من فمه مهروسة بشفته الأرنبية، أصوات لا أفهمها. أتناول الاستمارة- غير المقروءة والمفروكة التي انهال عليها بثلاث ضربات من الختم - والقليل من النقود. بهذا نبقى على قيد الحياة.

"لا نطلب منك كتابة رواية". إنه رودي جوت البيطار- الحداد، مَن كان يتحدث. على الرغم من دمامته- حيث هشَّمت حدوة حصان أنفه تمامًا، وحطمت وجنته اليسرى- إلا أنه متزوج من امرأة جميلة جدًا، تُدعى جيرد، دائمًا ما تتخذ مكانها أمام كور الحدادة، كأنها كانت تنتظر للأبد الرسام الذي يرسم صورتها. "ستتكلم عن الأشياء، هذا كل ما في الأمر. كما في أحد تقاريرك". كان جوت يمسك بمطرقته الكبيرة في يده اليمني. وكتفاه العاريتان تبرزان من صدريته الجلدية. كان قريبًا من المدفأة. لفحت النار وجهه، والتمع فولاذ آلته كنصل منجل مطلي بالقصدير. "موافق، قلت، سأحكي، سأحاول، أعدكم أنني سأحاول، سأقول "أنا" كما في تقاريري،

لأني لا أعرف الحكي بطريقة أخرى، لكنني أخبركم مسبقًا، إن ذلك يعني الجميع، وأنتم تسمعونني. سأقول "أنا" كأني أقول كل القرية، كلَ الضِياع المحيطة، نحن كل شيء.. موافقون؟"

حدث هرجٌ ومرج، جلبة دابة ارتخى عريش عربتها وتتذمر بقليل من الراحة، ثم قالوا: "مفهوم، فليكن كذلك، ولكن، انتبه، لا تُغير شيئاً، يجب أن تقول كل شيء. يجب حقًا قولُ كل شيء، حتي يستطيع مَن سيقرأ التقرير أن يتفهم ويصفح".

لا أعرف مَن سيقرأ، فكرت. أن يتفهم، ربما، ولكن أن يصفح، إنها مسألة أخرى: هذا الأمر لم أجرؤ على إظهاره، لقد فكرت فيه في أعماق نفسي. عندما قلت: نعم، حدثت جلبة في كل النُّزُل، وكنوع من التهدئة، استرخت القبضات. خرجت الأيدي من الجيوب. شعرت أن كل هذه التماثيل أصبحت بشرية مرةً أخرى. وأنا، تنفست الصعداء. لقد عبرتُ شيئًا ما عن بُعد إصبعين. ولم أكن لأُفضل حتى أن أعرف ما هو.

كان ذلك في بداية الخريف الماضي. كانت الحرب قد توقفت منذ عام. على المنحدرات، كانت نباتات السورنجات البنفسجية وحبات الثلج الأولى التي تنزل غالبًا في الصباح، على القمة الجرانيتية لجبال برنزُورني التي تحد وادينا من الشرق، ببياضها الفتِي المسحوق الذي يذوب في الساعات المملوءة بالشمس. كان ذلك بالضبط بعد ثلاثة شهور، باليوم تقريبًا، من وصول "لاندرير" إلى قريتنا، بحقائبه الضخمة، وملابسه المزركشة، وغموضه، وحصانه الأسمر المُحمَر وحماره- "اسمه السيد سقراط"- قال مشيرًا إلى الحمار، "وها هي الآنسة جولي، فلتحيوا الآنسة جولي، أرجوكم"، وأحنى حصانه الجميل رأسه مرتين مما جعل السيدات الثلاث الموجودات يتراجعن ويرسمن علامة الصليب. سمعت صوته الواهن أيضًا عندما قدم لنا حيوانيه كما لو أنهما آدميان، مما جعلنا نظل جميعًا مندهشين.

أخرج شلوس أكوابًا، وكؤوسًا، وأقداحًا، وفناجين للجميع، وخمرًا. كان لابد لي أنا أيضًا أن أشرب. كأنه قسَم. فكرتُ بهلع في وجه "لاندرير"، في الحجرة التي كان يسكنها، حجرة كنت أعرفها إلى حدٍّ ما لأني صعدت إليها- بناءً على دعوته- ثلاث مرات، وتبادلنا بعض الكلمات الغامضة ونحن نشرب الشاي الأسود والغريب جدًا، شاي كأني لم أشرب مثله في حياتي قط. كانت هناك كتب كبيرة ذات عناوين معقدة، بعضها بعدة لغات لا تُكتب مثل لغتنا، وكان لها جَرْس الحصى والصلصلة، كتب ذات أغلفة قوية بارزة ومزينة بماء الذهب، أو على العكس ضعيفة مرتخية ككومة من خِرَق، وطاقم مائدة من البورسلين الصيني كان يحفظه في صندوق جلدي مزين برؤوس مسامير، ولعبة شطرنج من العظم والأبنوس، وعصا في نهايتها كرة صغيرة من الكريستال المنحوت، وعدة أشياء أخرى مرتبة في حقائبه. دائمًا ما كانت تحتل وجهه ابتسامةٌ كبيرة، ابتسامة غالبًا ما كانت تحل محل الكلمات، التي كان مقتصدًا فيها. كانت عيناه شديدتى الاستدارة، بلون اليشب (*) الأخضر الجميل، وتبرزان قليلاً من وجهه مما جعل نظرته أكثر نفاذًا. كان يتحدث قليلاً جدًا، وكان ينصت بشكل خاص.

فكرتُ فيما فعله كلُّ هؤلاء الناس الذين كنت أعرفهم منذ سنوات. لم يكونوا وحوشًا، بل فلاحين، حرفيين، موظفين في مزرعة، عمال غابات، صغار موظفين. أناسٌ مثلكم ومثلي في نهاية المطاف. وضعت كأسي. تناولت الزُبد الذي غلفه لي ديتر شلوس، قطعة سميكة مغلفة في ورق سوليفان أصدرت صوت جناحَي يمامة، وخرجتُ من النُّزُل وجريتُ حتى منزلي.

لم أجرِ قط بمثل هذه السرعة في حياتي.

قط.

(*) اليشب: نوع من الأحجار الكريمة يشبه الجرانيت المخضر. (المترجم).

-٣-

عندما عدت، كانت بوبشيت نائمة، فيما كانت فيدورين غافية إلى جانبها، وفمها مفتوح قليلاً عن السنّات الثلاث التي تبقت لها. توقفت إيمليا عن الدندنة. رفعت عينيها نحوي. ابتسمت. لم أستطع أن أقول لها شيئًا. صعدت بسرعة السُّلَّم المؤدي إلى حجرتنا. دخلتُ تحت غطاء السرير، كأنني أغوص في النسيان. بدا لي الأمر حينئذٍ كأنه سقوط عظيم.

في تلك الليلة، لم أنم إلا قليلاً، بل بشكل سيئ. دُرت، دُرت، حول الكازيرسكفير. الكازيرسكفير، بسبب الحرب: لقد أمضيت نحو سنتين طويلتين بعيدًا عن قريتنا. قادوني، كآلاف الناس، لأنه كانت لدينا أسماء، وجوه، ومعتقدات لم تكن مثل ما لهؤلاء الآخرين. سجنوني بعيدًا، في مكانٍ لم يكن يمت بصلة للبشر، ولا تسكنه إلا البهائم غير الواعية التي اتخذت مظهر البشر.

كان عامًا من الظلمة الحالكة. أود أن أقول إنني أشعر بوجود هوة مظلمة جدًا وعميقة جدًا في حياتي، ولذلك أسميها الكازيرسكفير- الحفرة- وعلى حافتها لا أزال أجازف بنفسي في الليل.

لا تبرح العجوز فيدورين المطبخ أبدًا. هو مملكتها العظيمة. تقضي ساعات الليل على كرسيها. لا تنام. تقول إنها تخطت السن. لم أعرف قط بالضبط عمرها. تقول إنها هي نفسها لا تذكره، وعلى أية حال لم يمنعها ذلك من أن تولد ولن يمنعها من الموت. تقول أيضًا إنها لا تنام لأنها لا تريد أن تفاجأ بالموت، لكنها تريد أن تراه جيدًا وجهًا لوجه حين يأتي. تُغني مغمضة العينين، تُرقِّع القصص والذكريات، وتغزل بعض التطريزات بخيالات بالية، ويداها على ركبتيها أمامها، وفي يديها، يديها اليابستين المحفورتين بعروق ملتوية وتجاعيد منتصبة كأنصال سكين، يمكننا أن نقرأ فيها حياتها.

حكيتُ لفيدورين سنواتي البعيدة عن عالمنا. إنها هي التي عالجتني حين عدت، فيما كانت إيمليا لا تزال أيضًا بالغة الوهن. كانت فيدورين مهتمة بي مثلما كانت تهتم بي صغيرًا. استعادت الحركات. أطعمت فمي المكسور بالملعقة، ضمدت جراحي، كست عظامي شيئًا فشيئًا باللحم، سهرت عليَّ عندما كانت الحمَّى شديدة، حين كنت أرتعش كأني غطست في حوض من الثلج، وحين كنت أهذي. هكذا مرت الأسابيع. لم تطرح عليَّ أية أسئلة. انتظرت الكلمات لتخرج من تلقاء نفسها. وأنصتت إليَّ، طويلاً.

تعرف كلَّ شيء. أو تقريبًا.

تعرف بالهوة المظلمة التي دائمًا ما تعاودني في أحلامي. تعرف بتجوالي الثابت على حافة الكازرسكفير. وكثيرًا ما أقول لنفسي إنها لابد لها من هوَّات مشابهة، ولابد أن لديها غيابات كبرى تتسلط عليها وتطاردها. كلنا لدينا ذلك.

لا أدري ما إذا كانت فيدورين قد عرفت الشباب. رأيتها دائمًا ملتوية، ومنحنية كشجرة الزعرور الجرمانية المائلة التي نُسيت لثلاثة مواسم في بيت المؤن. حتى عندما كنت طفلاً والتقطتني، كانت تشبه بالفعل ساحرًا أحدب. كانا ثدياها الخاليان من اللبن يتدليان تحت سترتها الرمادية. كانت

قادمةً من بعيد جدًا، من زمن سحيق جدًا، ومن أقصى جغرافيات العالم. لقد هربت من بطن أوربا النتنة.

كان ذلك منذ زمن بعيد: كنتُ أمام منزل مُهدم يتصاعد منه بعض الدخان. اربما كان هذا منزل أبي، منزل أمي؟ لابد أنني أنا أيضًا كانت لديَّ عائلة. أصبحتُ وحيدًا في نهاية سنواتي الأربع. كنت ألعب ببقايا لعبة دولاب الأطفال التي التهمت النيران نصفها. كان ذلك في بداية حرب أخرى. مرت فيدورين وهي تجر عربتها. رأتني. توقفت. قلَّبت في خُرجها لتخرج منه تفاحة شديدة الاحمرار لامعة. ناولتها لي. أكلتها بنهم. كلمتني فيدورين، قالت لي عدة كلمات لم أفهمها، وطرحت عدة أسئلة لم أستطع الرد عليها، ربتت على جبيني وشعري.

تابعت السيدة العجوز صاحبة التفاح كما لو كانت عازف ناي. رفعتني على العربة، وضعتني بين أكياسها، وثلاثة قدور، وحزمة من العلف. كان أيضًا ثمة أرنب، بعيون سمراء جميلة، ووبر أشقر، وبطنه طري ودافئ جدًا. أذكر أنني ربَّتُّ عليه وأنه استسلم لذلك. أذكر أيضًا أن فيدورين توقفت عند منعطفٍ محاط بنبات الوزال، وسألتني عن اسمي بلغتي، وقالت لي اسمها- "فيدورين"- وطلبت مني أن أنظر من أعلى لأسفل على ما تبقي من قريتي. "انظر جيدًا يا صغيري بروديك، فأنت قادم من هناك ولن تعود إليه بعد ذلك، لأنه لن يبقى منه شيءٌ عما قريب. فافتح عينيك جيدًا!".

حينئذٍ، شاهدت بكل قواي الحيوانات النافقة منتفخة البطون، ومستودعات الحصاد المفتوحة على مصاريعها، والجدران المهدمة. كان أيضًا بالشوارع الكثير من الدُّمَى الممدة راسمةً بذراعيها علامة الصليب أو مكورة الجسم. دُمًى ضخمة، لكنها كانت تبدو لي - عن بُعد- صغيرة جدًا. ثم إن الشمس وضعت شعاعها الذهبي الساخن في عينيَّ حين ثبتُّهما في مواجهتها تمامًا، وأخفت مشهد قريتي.

ظللت أتململ في السرير. كان لديَّ شعور قوي بأن إيمليا لم تنم مثلي. فعندما أغمضتُ عينيَّ كنت أرى وجه "لاندرير"، وعينيه بلون المستنقع، ووجنيه الممتلئتين وكأنهما تخضبتا بنبات اللؤلؤ الأحمر، وشعرَه النادر، المجعد. كنت أشم عطره البنفسجي.

تحركت إيمليا. شعرُت بنَفَسها على خدي، بل طاف على شفتيَّ أيضًا. فتحتُ عينيَّ. أجفانها مغمضة. كانت تبدو عليها السكينة. كانت جميلة لدرجة جعلتني أسأل نفسي كثيرًا: ما الذي فعلتُه وجعلها ذات يوم تهتم بي. فبفضلها لم أمت في الماضي. ففيها كنتُ أفكر كل دقيقة، عندما كنت في المعسكر.

كان هؤلاء الذين يحرسوننا ويضربوننا يكررون دائمًا بأننا لسنا إلا روثًا، بل أقل من براز فأر. لم يكن لدينا الحق في أن ننظر إليهم مباشرة. كان علينا أن تبقى رؤوسنا دائمًا نحو الأرض ونتلقى الضربات دون أن ننطق بكلمة. وكل مساء، كانوا يسكبون الحساء في قصاع كلاب حراستهم، كلاب بفرو عسلي، وبأفواه مقلوبة، وعيونها تسيل بدموع فاتحة الحُمرة. كان علينا أن نقف على أربع، كالكلاب، ونتناول طعامنا مستخدمين فحسب أفواهنا، كالكلاب.

معظم مَن كانوا محبوسين معي رفضوا أن يقوموا بذلك. ماتوا. أما أنا، فكنت آكل كالكلاب، على أربع وبفمي. وأنا على قيد الحياة.

أحيانًا، وحين يكون الحراس سكارى أو في أوقات فراغهم، كانوا يتسلون بي فيضعون لي طوقًا ومقودًا. كان عليَّ أن أمشي هكذا، بالطوق والمقود. كان عليَّ أن أتبختر، أن أدور حول نفسي، أنبح، أُخرج لساني، وألعق أحذيتهم. لم يعد الحراس ينادونني ببروديك، بل بالكلب بروديك، وبعد ذلك يضحكون أكثر فأكثر. رفض معظم مَن كانوا معي أن يقوموا بدور الكلب، وماتوا، سواء من الجوع، أو من الضربات المتكررة التي كان يهوي بها الحراس عليهم.

لم يعد أيٌّ من المساجين الآخرين يوجه لي أي كلام منذ وقت طويل. "أنت أسوأ ممَّن يحرسوننا، أنت حيوان، أنت خراء يا بروديك!" كذلك الحراس، كانوا يكررون بأني لم أعد إنسانًا. ماتوا. كلهم ماتوا. أما أنا، فما أزال على قيد الحياة. ربما لم يكن لديهم أي سبب للبقاء أحياء؟ ربما لم يكن لديهم أي حب في أعماق قلبهم أو قريتهم؟ نعم، ربما لم يكن لديهم أي سبب للبقاء على قيد الحياة.

خلال الليل، كان الحراس ينتهون إلى ربطي في وتد، قُرب بيت الكلاب. كنت أنام على الأرض مباشرةً، في التراب، حيث رائحة وبر الكلاب، وأنفاسها، ورائحة بولها. من فوقي كانت السماء. أبعد قليلاً، المَراقب، والحراس، وأبعد الريف، هذه الحقول التي كنا نراها في النهار، وهي تجعل قمحها يتماوج في تباهٍ خيالي تحت تأثير الرياح، وصوت شواشي أيكات شجر البتولا، ضجيج النهر العظيم الذي تجري مياهه الفضية، قريبة تمامًا. أما أنا، فكنت في الحقيقة بعيدًا تمامًا عن هذا المكان. لم أكن مربوطًا في وتد. لم يكن لديَّ طوق جلدي. لم أكن ممددًا نصف عارٍ قُرب الكلاب. كنتُ في منزلنا، كنت في فراشنا، لصق جسم إيمليا الدافئ، ولم أعد مطلقًا في التراب. كنت حيث الدفء، وأشعر بدقات قلبها قُرب قلبي. كنت أسمع صوتها يقول لي كل كلمات الحب التي كانت تستطيع العثور عليها في ظلمة غرفتنا. لكل هذا، عُدت.

الكلب بروديك عاد إلى منزله، على قيد الحياة، والتقى إيمليا التي كانت تنتظره.

ـ ٤ ـ

صباحَ اليوم التالي لـ"الايرينيه"، استيقظتُ مبكرًا للغاية. حلقت ذقني، ارتديت ملابسي، وخرجت من المنزل بلا ضجيج. كانت بوبشيت وإيمليا لا تزالان نائمتين فيما كانت فيدورين تنعس على كرسيها وهي تغمغم ببعض الكلمات. كانت تقول كلمات بلا سياق ولا منطق بما جعلها ثرثرة غريبة، ملفقة من لغات عديدة.

بالكاد بدأ النهار يُندِّي السماء، وكل القرية لا تزال أيضًا مسجونة في النعاس. أغلقتُ الباب بهدوء شديد. كان العشب أمام المنزل مبلولاً بندًى مائل للبياض، تقريبًا لبني اللون، يرتعش ويقطر على حافة أوراق نبات الترفل. كان الجو باردًا. وكانت قمم البرانزهورني تبدو أكثر ارتفاعًا وحِدة من المعتاد. كنت أعرف أن ذلك إحدى العلامات المنذرة بطقس سيئ، وقلت لنفسي إن الثلج لن يتأخر هطوله بلا شك على القرية، وتغليفها، بل عزلها أيضًا أكثر.

"زِهر مُوجنِهلِش، بروديك!"

انتفضت كشخص ضُبط متلبسًا. كنت أعرف جيدًا أنني لم أقترف جُرمًا، ولا ما ألوم نفسي عليه أبدًا، إلا أنني - مع ذلك - قفزتُ كجِدي

نبهته لالتزام النظام خيزرانةُ راعي الغنم. لم أكن قد تعرفتُ الصوت. إلا أنه كان صوت جوبلر، جارنا.

كان يجلس على المسطبة الحجرية الملاصقة لحائط منزله. كان يمسك في يده عصًا يتكئ عليها. لم أره قط جالسًا على هذه المسطبة، ربما عدا مرة أو مرتين، خلال أمسيات الصيف النادرة الخانقة والثقيلة، حين يختفي الهواء من شوارع القرية وتختفي معه كل برودة.

هو رجل تخطى الستين، حاد القسمات، لا يبتسم أبدًا ولا يتكلم كثيرًا. وغشاوة من قشرة بيضاء تأكل شيئًا فشيئًا نظره فلا يرى أبعد من خمسة أمتار. لقد أعادته الحرب إلى القرية حيث شغل لعدة سنوات - فيما يُقال - وظيفةً ما في شلوس في إدارةٍ ما، لكننا لا نعرف في أية إدارة، ولم يسأله أي شخص عن ذلك، فيما أظن. وهو يعيش - من بَعد- من راتب تقاعده ومن تربية الدجاج. بالتأكيد انتهى به الأمر أن يشبه- إلى حدٍّ ما- ديوكه. عيناه تتحركان بنفس الطريقة، وجلده الذي يتهدل من تحت رقبته يرسم بقعًا دموية حمراء. زوجته، الأكثر شبابًا منه بكثير، تُدعى بولا. ممتلئة الجسم وثرثارة. تفوح برائحة الحبوب والبصل. ويُقال إن لديها بقعة مشتعلة الحرارة في تجويف فخذيها، حيث كان يلزمها الكثير من دلاء الماء لإطفائها. وتبحث عن الرجال كالأخريات لأسباب حياتية.

"نعم، صباح جميل! كرَّرها. أين تذهب إذن؟"

كانت المرة الأولى التي يسألني فيها جوبلر. ترددت. فأنا مشوش. تعثرت الكلمات في فمي وتصادمت ببعضها البعض، كحصًي في سيل. دفع جوبلر بطرف عصاه حلزونًا كان يتجه نحوه بهدوء، ثم أعادها. حلزون صغير في قوقعة صفراء سوداء، بجسم دقيق ورقيق الشكل، ممتلئ بجمال بريء. الحيوان المتفاجئ قليلاً استغرق وقتًا قبل أن يعود إلى قوقعته بجسمه وقرونه الهشة. حينئذٍ رفع جوبلر عصاه ونزل بها على الحشرة الصغيرة التي انفجرت كثمرة جوز.

"فلتحذر، بروديك.." همس بعد ذلك، دون أن يبرح نظره حطام القوقعة وجسم الحلزون الذي لم يعد إلا عصيدة نيئة بلون بني فاتح.

"فلتحذر، إنه جالب للنحس..."، أضاف.

عادت عيناه نحوي. ابتسم قالبًا شفتيه. هي المرة الأولى التي أراه فيها يبتسم حقًا، وأرى أسنانه، الرمادية، الحادة، الحادة جدًا كما لو كان قد بردها لعدة أمسيات وأمسيات. لم أجب بشيء. أوشكت أن أهز كتفيَّ استخفافًا لكني تمالكت نفسي. رعدةٌ كبيرة جعلت ظهري كله يقشعر. شددت قبعتي على أذنيَّ، رفعت الياقة حول صدغيَّ، وابتعدت دون أن أنظر إليه أكثر. كان على جبهتي بعض العرق. صاح أحد ديوكه، تتبعه الديوك الأخرى. تلاطمت ضوضاؤهما في رأسي. أثارت هبات ريح قادمة من أعماق الوادي بعض الزوابع حولي، محملة تمامًا برائحة الراتينج، والروث، ونبات الخلنج، وبالصخور المبللة.

في شارع بوبنسالتز، شارع قريتنا الرئيس، أخذ العجوز أوهمنست يذهب ويجيء من بيت إلى بيت. إنه كلبٌ مميز. ندعوه هكذا لأنه لم يكن له سيد، ولم يشأ قط. يبتعد عن الكلاب الأخرى والأطفال، يقنع بالقليل، يستجدي طعامه تحت نوافذ المطابخ. يصحب مَن يشاء إلى الحقول أو في الغابات، ينام في العراء، وعندما يحل برد قارس، يحتك بباب مخزن الحصاد حيث نمنحه طواعية بعض الطعام والحساء. كلبٌ كبير أسمر مبرقش، له جسم كلب الجريف، ووبر كلب الصيد، قصير وكثيف. لا شك أن دماءه قد امتزجت بكثير من الدماء الأخرى، لكن سيكون الأكثر ذكاءً مَن يستطع أن يحدد ما هي. عندما أتى ليتشمم رائحتي، تذكرت عندما كان يلتقي بـ"لاندرير"، كان ينبح مرتين أو ثلاثًا مبتهجًا ويحرك ذيله في كل اتجاه. حينئذ كان "لاندرير" يتوقف وينزع قفازيه، قفازين من الجلد الرهيف، والطري جدًا، ويلاطف رأسه. كان ذلك غريبًا جدًا أن تراهما هكذا، الكلب الوديع والسعيد، الذي يتقبل الملاطفة بهدوء، فيما لا يستطيع

أيٌّ منا - في الأحوال العادية - أن يقترب منه، أو على الأقل يلمسه، و"لاندرير" الذي يلاطف الكلب بيده العارية كأنه إنسان. في ذلك الصباح، كانت عيناه لامعتين ومضطربتين. سار إلى جواري للحظة، وهو يصدر- من آن إلى آخر- أنينًا قصيرًا وحزينًا. كان مطأطئ الرأس، كما لو أنه أصبح فجأة ثقيلاً عليه، ومشغولاً بكثير من الأفكار الأليمة. تركني بالقرب من نبع "أوربي"، واختفى في الزقاق المؤدي إلى النهر.

كانت لديَّ فكرة قلبتها في ذهني، خلال ليلتي الممتلئة بالمفاجآت: لابد أن أتحدث إلى أورشفير، العمدة.. لابد أن أراه، وأن يخبرني بما يتوقعه الجميع مني. لقد توصلت تقريبًا إلى التساؤل عما إذا كنت قد فهمت جيدًا كلمات جوبلر، وما إذا لم أكن قد حلمت بوجوده على المسطبة، وما إذا كان مشهد الليلة السابقة في النُّزُل، وكماشة الأجساد المحيطة بي، ومقشطة الوجوه هذه، وهذا الطلب وهذا الوعد، لم تُجرَ بنفس الطريقة التي شكلت بعض أفكاري الغريبة.

كان منزل أورشفير هو الوحيد الذي يسند ظهره حقًا إلى الغابة. هو أيضًا الأكبر في قريتنا. ويمنح إحساسًا بالرفاهية والقوة، فيما لا يمثل سوى مزرعة، مزرعة كبيرة، وقديمة، ناجحة، ودائرية، ذات أسقف ضخمة، وحوائط يمتزج فيها- في مربعات غريبة- الجرانيت والصلصال، لكن الناس يعتبرونها- إلى حدٍّ ما- قصرًا. من جهة أخرى، فأنا متأكد أن أورشفير يعتبر نفسه أحيانًا سيد قصر.. وهو ليس إنسانًا سيئًا على الرغم من سماجته الشبيهة بسماجة جيش بربري بالمعنى الكامل. ويُحكى أن سماجته هذه، وعلى نحو غريب، قد ضمنت له في الماضي غزواته عندما كان في سن ارتياد الحفلات. وكثيرًا ما يتكلم الناس دون أن يقولوا شيئًا في الغالب. وما هو مؤكد أن أورشفير انتهى إلى أن يتزوج بالجزء الأكثر ثراءً من بين المحيطين، إيلد بوبنهايمر، التي يمتلك أبوها خمس ورش نجارة وثلاث طواحين. وفضلاً عن هذا الميراث، فقد أعطته ابنين: صورة شديدة الشبه بأبيهما.

وهذا التشابه لم يكن كبيرًا. إنني أتحدث بصيغة الماضي لأنهم- على أية حال- ماتوا. في بداية الحرب تمامًا. نُقشت أسماؤهم على النصب الذي أقامته القرية، بين الكنيسة والمدفن، ويمثل امرأةً ملتفةً بوشاح كبير، جاثية على الأرض، لا ندري ما إذا كانت تصلي أم تجتر ثأرًا مَا: جونتار وجيرارت أورشفير، واحد وعشرون عامًا، وتسعة عشر عامًا. كان اسمي أيضًا على نفس النُّصُب، وبما أني عدت، فقد محاه المُرَمم بارن اسبورج. تألم كثيرًا. فهو دائمًا مرهف الإحساس تجاه ما تم تسجيله على الحجر. هكذا، سأتمكن من قراءة اسمي على النُّصُب مرةً أخرى. ذلك يجعلني أبتسم، فيما يجعل إيمليا تقشعر. ولا تحب المرور أمامه.

يتم الهمس بأن أورشفير قد أصبح عمدةً بفضل موت ولديه. مع أن موت الصبيين لم يكن من البطولة. فقد ماتا في مركز المراقبة وهما يلعبان كأطفال بقنبلة. في الحقيقة، كان هناك في الداخل أيضًا كثير من الأطفال الذين اعتقدوا أن الحرب ستجعل منهم رجالاً فجأة. سمعنا صوت الانفجار الواصل إلى قريتنا. كان الأول. هرع جميعنا إلى مركز المراقبة الصغير الذي كنا قد أقمناه على طريق الحدود، في الوسط تمامًا من مرعى شومبيه، وعلى الجانب الأكثر ارتفاعًا، الذي كان يشكل تلاً محميًا بصخرة صهباء مزينة بنباتات الحزاز بلون اليشب الأخضر. لم يكن قد بقي شيء أبدًا، لا من نقطة المراقبة، ولا من الصبية. كان الأول يضغط على بطنه بيديه محاولاً الاحتفاظ بأمعائه. والثاني قُطع رأسه تمامًا، ورأينا ذلك بوضوح. تم دفنهما في اليوم التالي في أكفان من الكتان الأبيض ونعوش من البلوط صنعها بعناية فيكسيهام النجار. هنا كان أول موتانا. قام الأب بيير، الذي كان لا يزال في هذه الفترة لا يشرب إلا الماء، بإلقاء عظة كان موضوعها القَدَر والخلاص. والقليلون منا مَن فهموه، بينما أعجب الحضور بانتقائه الكلمات، التي كانت- في الأغلب الأعم - نادرة وعتيقة جدًا، مما جعلها تتنقل لوقت طويل بين الأعمدة، والقباب، ودخان البخور، وأضواء الشموع الناعمة، وزجاج كنيستنا الصغيرة.

دخلتُ إلى فناء المزرعة، الذي كان ما يزال خاليًا حتى هذه اللحظة. شاسعٌ، هذا الفناء. يمثل بلدًا وحده، وتحده أكوام كبيرة من الروث. كان المدخل يعلوه باب خفي مصنوع بإتقان، مدهون باللون الأحمر الزاهي مع زخارف منحوتة لأوراق خشب الشاهلبوط، في وسطها يمكن أن نقرأ " Boden und herz geliesht التي تعني تقريبًا "البطن والقلب متحدان".

كثيرًا ما سألتُ نفسي عن معنى هذه الجملة. قالوا لي إن جَد أورشفير هو مَن نقشها. عندما أقول "قالوا لي"، فأنا أعني أن ديودم، المُعلِّم، هو مَن أخبرني. كان أكبر مني سنًا، لكننا كنا نتفاهم كأصدقاء. كان يحب مصاحبتي خلال إعداد تقاريري، إذا ما سمح وقته، وكنت أسعد بحديثي معه، لأنه إنسان عادي إلى حدٍّ ما، وكثيرًا- كثيرًا لا دائمًا- ما يتوافر على شيء من الحكمة، وكان يعرف الكثير من الأشياء، والأكثر بلا شك مما لم يصرح به بعد، ويتقن القراءة والكتابة والحساب، وهو بالتأكيد ما جعل العمدة السابق ينصبه معلمًا، مع أنه لم يكن من أبناء القرية، ورغم أنه أتى من قرية أخرى، على بُعد أربع ساعات سيرًا على الأقدام، أقصى الجنوب.

مات ديودم منذ ثلاثة أسابيع، في ظروفٍ غريبة ومبهمة لدرجة أنها نبهتني أكثر إلى كل الإشارات الصغيرة التي لاحظتها من حولي، والتي وطنت الخوف بهدوء في عقلي، حيث شرعتُ - منذ اليوم التالي لموته - في هذه الحكاية، على هامش "التقرير" الذي كان الآخرون قد طلبوا مني كتابته. وكتبت الاثنين معًا.

كان ديودم يقضي معظم أوقات فراغه في أرشيف القرية. كنت أرى أحيانًا نافذته مضاءة في وقت متأخر جدًا من الليل. كان يعيش وحيدًا، فوق المدرسة، في سكن ضيق، غير مريح، ومُترب. كانت الكتب والوثائق وسجلات العصور القديمة هى كل أثاثه. "ما أريده هو أن أفهم"، صرح لي بذلك ذات يوم. أضاف: "نحن لا نفهم شيئًا أبدًا، أو القليل جدًا من الأشياء. البشر يعيشون إلى حدٍّ ما كالعميان، وذلك ما يكفيهم، بشكل عام.

كنت أقول أيضًا إن ما يبحثون عنه، هو تجنب وجع الرأس والدوار، وأن يملأوا بطونهم، ويناموا، أن يأتوا بين أفخاذ زوجاتهم عندما تسخن دماؤهم، يقوموا بالحرب لأنهم طُلب منهم ذلك، ثم يموتوا دون أن يعرفوا كثيرًا ما ينتظرهم فيما بعد، لكن على أمل أن ثمة شيئًا ما ينتظرهم، بعد كلِّ ذلك. فأنا، ومنذ كنت صغيرًا، أحب الأسئلة والسبل التي تؤدي إلى إجاباتها. وأحيانًا، من جهة أخرى، ما لا أصل إلا إلى معرفة السبيل فقط، لكن ذلك ليس بالغ الأهمية: كما قلت من قبل".

ربما بسبب ذلك مات ديودم، من فرط رغبته في فَهم كل شيء، وفي أن يحدد كلمات وتفسيرات لما لا يمكن تفسيره، وما يجب أن نجهله دائمًا. في ذلك الحين، لم أكن أعرف ماذا أقول له. كنت أبتسم، فيما أظن. ابتسامة بلا قيمة.

لكن كان ثمة مرة أخرى، خلال أصيل يوم ربيعي، حيث كنا نتكلم عن أورشفير، عن بابه الخفي، عن الجُملة. كان ذلك قبل الحرب. لم تكن بوبشيت قد ولدت بعد. كنا نجلس مع ديودم على العشب القصير لمراعي بورنكوبف الجرداء، الممتدة حتى الممر المؤدي إلى وادي دورا، وحتى فيما وراء الحدود. قبل أن نعاود الهبوط، استرحنا قليلاً، بالقرب من تمثال يجسد المسيح بوجه غريب يظنه المرء زنجيًا أو مغوليًا. كانت نهاية النهار. ومن مكاننا هذا كنا نستطيع أن نرى القرية كاملة، بل نمسكها في إحدى راحتي يدينا. كانت تبدو منازل صغيرة تخرج من لُعبة طفل. وشمس جميلة غاربة كانت تلون الأسقف بالذهبي، فيما مطر خفيف كان يأتي فحسب ليلمعها. كل ذلك كان ينفث دخانًا، وتحت تأثير المسافة، كانت التماوجات البطيئة والرخوة تمتزج بارتعاشات الهواء التي تخفق في الأفق وتجعله يبدو تقريبًا ككائن حي.

أخرج ديودم من جيبه قصاصات ورق، وأخذ يقرأ لي الصفحات الأخيرة من رواية كان يكتبها. إنها هوسه، الروايات. كان يكتب رواية على

الأقل كل عام، على أوراق مدعوكة، وقطع من ورق التغليف، والبطاقات، التي يحتفظ بها لنفسه دون أن يُطلع عليها أحدًا. كنتُ الوحيد الذي يقرأ له أجزاءً منها من حين لآخر. كان يقرأها لي، دون أن ينتظر شيئًا مني. لم يطلب رأيي، ولا وجهة نظري. هذا أفضل. فقد كنت غير قادر أن أعطيه رأيي. كانت دائمًا - وإلى حدٍ ما- هي نفس الحكايات، المعقدة، ذات الجمل المراوغة التي لا ننتهي منها، والتي تتحدث عن مؤامرات، وكنوز مخبأة في حفر عميقة، وعن فتيات وُضعن في السجن. كنت أحب ديودم بالفعل. كنت أيضًا أحب صوته كثيرًا. أشعر معه بالنعاس وبالدفء. أشاهد المنظر الطبيعي وأسمع موسيقاه. إنها من أروع اللحظات.

لم أعرف قط عُمر ديودم. أحيانًا كنت أجده عجوزًا جدًا. في مرات أخرى، كنت أقتنع بأنه لا يكبرني سوى بعدة سنوات. في وجهه كبرياء. ووجهه- من الجانب - كان وجهًا رومانيًا أو إغريقيًا خالصًا. وشعره الأسود الفاحم والمجعد، الذي ينساب بخفة على كتفيه، كان يجعلني أستعيد أبطال الأزمنة الغابرة، الذين يغفون في التراجيديات والملاحم، والذين تكفي أحيانًا تعويذة لتوقظهم أو تقضي عليهم للأبد. أو بالأحرى في أحد رعاة الأزمنة القديمة، الذين هم- في الغالب الأعم، كما نعرف- آلهة متنكرة أتوا ليزوروا البشر لإغوائهم، لإرشادهم، أو لإهلاكهم.

" Boden und herz geliecht" شعار غريب".. اختتم ديودم وهو يمضغ بعض العشب، فيما كان المساء يهبط رويدًا رويدًا على أكتافنا. سألتُ نفسي أين وجد العجوز هذا، في رأسه أم في الكتب. أحيانًا ما نجد مثل هذه الأشياء الغريبة في الكتب.

ـ ٥ ـ

كان أورشفير يجلس في طرف منضدة مطبخه، منضدة طولها أربعة أمتار، قُدت - بشكل واضح - من جذع شجرة بلوط عتيقة، من تلك الأشجار التي تنمو وسط غابة تانارنجن، وتشبه سادة الإقطاع. كان تقف بجانبه خادمة شابة. لم أكن أعرفها. لابد أن عمرها ستة عشر عامًا على الأكثر. كان وجهها جميلاً ومستديرًا، كوجه العذراء في بعض اللوحات القديمة جدًا، وشاحبًا أيضًا على الرغم من تورد وجنتيها الذي يمنحها مظهر طائر دفناش. كانت تتحرك في أضيق الحدود كما مانيكان خيَّاطة أو دُمية ذات قوام فريد. فيما بعد، علمت أنها عمياء، وهو ما كان غريبًا لأن عينيها، على الرغم من جمودهما الشديد إلى حدٍّ ما، كانتا تبدوان كأنهما تريان كل ما يحيط بها، وتبدو على راحتها في الحركة، ولا تصطدم أبدًا لا بالأثاث ولا بالجدران ولا بالآخرين. إنها قريبة من بعيد لآل أورشفير الذين آووها. أتت من بلدة نهساكسن. مات والداها، ودُمر منزلهم، كما تمت مصادرة أراضيهم. كان الناس يدعونها " Die keinauge الكفيفة".

صرفها أورشفير بصفير خفيف. ابتعدت بلا صوت. ثم أشار إليَّ بالاقتراب والجلوس. لقد جعله الصباح أقل قبحًا من المعتاد، كأن النوم شد

جلده ومحا كل عيوبه. كان لا يزال يرتدي السروال المنزلي، وثمة حزام جلدي كان ينتظر حول خصره البنطلون الذي يخرج به. كان قد ألقى بمعطف من فراء الماعز على كتفيه وارتدى بالفعل قلنسوته من فراء ثعلب الماء. أمامه، كان ثمة طبق كبير مملوء بالبيض وشحم الخنزير ينفث بخارًا برقة. كان أورشفير يأكل ببطء، ويقطع من حين إلى آخر قطعًا من الخبز الأسمر.

صب لي كأسًا من النبيذ، نظر إليَّ، دون أن يبدي أدنى اندهاش وقال ببساطة: "إذن، كيف الحال؟" ودون أن ينتظر ردًا مني، قطّع باستغراق – إلى أجزاء متساوية – القطعة الأخيرة من شحم الخنزير، قطعة سميكة كان دهنها الذي أصبح شفافًا بالطهي يسيل في الطبق كدموع على جسد شمعة. كنت أشاهده وهو يقوم بذلك، أو بالأحرى أشاهد سكّينه، هذه السكين التي كان يستخدمها استخدامها الطبيعي جدًا في هذا العالم هذا الصباح، وهو الأكل، والتي غُرست مساء الليلة الماضية – بلا شك – عدة مرات في جسم "لاندرير".

دائمًا ما أجد مشقة– إلى حدٍّ ما – في الكلام وفي التعبير عن عمق أفكاري. أفضِّل الكتابة. حينئذ تبدو لي الكلمات وقد أصبحت أكثر طواعية، مثل العصافير عندما تأتي لتأكل من يدي، وأصنع منها تقريبًا ما أشاء، فيما تختبئ حين أحاول تجميعها في الهواء. لم تُصلح الحرب شيئًا. بل جعلتني أكثر صمتًا. كنت أرى في المعسكر كيف يمكننا استخدام الكلمات، وما نستطيع أن نطالبها به. فضلاً عن ذلك، ففيما مضى، كنت أيضًا أقرأ الكتب، خاصةً كتب الشعر. الأب نوزل هو مَن منحني هذه الذائقة خلال فترة الدراسة في العاصمة، وبقيت لي عادة محببة. لم أكن لأنسى أبدًا أن أحمل في جيبي ديوان شعر عندما أذهب لإنجاز تقاريري، وحين كان ينتصب من حولي مشهد الجبال العظيم ووعورة الغابات ورُقع المراعي، حين كانت السماء التي تعلو كل هذا تبدو راعية وراضية عن

اتساعها اللانهائي، كثيرًا ما كنتُ أقرأ بصوت عالٍ عدة أبيات من الشعر، وأعيد قراءتها إلى أن أشعر بأنها تُولِّد داخلي نوعًا من طنين محبب، كرجع صدًى لأشياء مشوشة كنت أحملها في أعماق نفسي، ولم أكن بقادر على التعبير عنها.

عندما عدت من المعسكر، وضعت كل كتب الشعر في المدفأة وأحرقتها. كنت أرقب اللهب يلوي الكلمات، ثم الجُمل، ثم الصفحات. لم يكن الدخان المتصاعد من القصائد المشتعلة عظيمًا ولا أكثر نبلاً أو رقة من أي دخان آخر. لم يتميز بأي شيء خاص. علمت فيما بعد أن الأب نوزل قُبض عليه في الحملات الأولى، شأن عدد من الأساتذة والرجال الذين كانت مهنتهم معرفة العالم وشرحه. مات بعد ذلك بقليل في معسكر يشبه معسكري، معسكر يشبه مئات المعسكرات الأخرى التي نمت تقريبًا في كل مكان فيما وراء الحدود، مثل زهور سامة. لم يكن للشعر أدنى فائدة ليبقيه على قيد الحياة. بل ربما أيضًا أسرع بموته. فآلاف الأبيات اللاتينية، واليونانية، وباللغات الأخرى- التي كان يحفظها في ذاكرته باعتبارها من أعظم الكنوز- لم تساعده في شيء. ولا شك أنه لم يقبل، على العكس مني، أن يلعب دور الكلب. نعم، ذلك بالتأكيد. فالشعر لا يعرف الكلاب. بل يجهلها.

غمس أورشفير الخبز بالطبق.

"بروديك، بروديك.. أرى أنك لم تنم جيدًا"، بدأ يكلمني، بنبرة هادئة، نبرة لوم خافتة. "فأنا، انظُر، منذ وقت طويل لم أنم جيدًا أيضًا، آه حقًا، منذ وقت طويل.. لم أستطع من قبل إغماض عينيّ. بينما هذه الليلة، شعرت أن عمري ست أو سبع سنوات. وضعت رأسي على الوسادة، وبعدها بثلاث ثوانٍ، رحت في النوم.."

كان النهار الآن قد أشرق تمامًا، ودخل ضوؤه الأبيض المطبخ بأشعة مائلة تضرب الأرضية ذات البلاط القرمزي. سمعنا أيضًا أصوات المزرعة،

والحيوانات، والخدم، وصرير المفصلات، وخبطات مبهمة، وأحاديث متبادلة.

"أريد أن أرى الجثة". نطقتُ بهذه الجملة دون أن أعيها. خرجتْ تقريبًا من تلقاء نفسها وتركتُها. بدا أورشفير مندهشًا وحزينًا. تغير وجهه في لحظة. انغلق على نفسه كصَدفة سُكبت عليها ثلاث قطرات من الخل. عادت ملامحه وبقوة إلى سماجتها الكبيرة. رفع قلنسوته، وحك أعلى رأسه، ثم وقف وأدار لي ظهره، واتجه نحو نافذة استقر عندها.

"فيم سيفيدك هذا، بروديك؟ ألم تحصل على نصيبك من الموتى في الحرب؟ أتستطيع أن تقول لي ما الفرق الكبير بين ميت وآخر؟ عليك أن تحكي الأحداث. لا ينبغي أن تنسى شيئًا، ولكن لا ينبغي أن تضيف أيضًا تفاصيل غير مفيدة تحيد بك عن الطريق، وتجازف بأن تخسر القارئ، بل وتشويقه، فلا تنس أنك ستُقرأ يا بروديك، ستُقرأ، من أناس يشغلون وظائف مرموقة في شلوس، نعم، ستُقرأ، حتى لو كنتُ أشعر بأنك تشك في ذلك.."

استدار أورشفير وتأملني من شعر رأسي حتى إخمص قدميّ.

"أنا أقدرك، يا بروديك، لكن عليَّ أن أنبهك، باعتباري العمدة وباعتباري.. لا تحد عن الطريق، عن اللياقة، ولا تبحث عما لا يوجد، أو عما لم يعد موجودًا".

فرد هيكله الضخم متثائبًا بقوة، ومد يديه الكبيرتين نحو السقف.

"تعال معي، سأريك شيئًا ما".

تخطاني بطريقة لطيفة. عبرنا من المطبخ إلى ممر كبير كان يتلوى بطول البيت كله. خامرني شعور بأننا لن نخرج أبدًا من هذا الممر. أصابني بالدوار وأفقدني كل شعور بالأمان. كنت أعرف أن منزل أورشفير كبير، لكني لم أكن أعتقد أنه متاهة إلى هذا الحد.

إنه مبنى قديمٌ رُمم عدة مرات، شاهدًا على زمن لم يكن مشغولاً بالتخطيط ولا بالمنطق. لم يقل لي ديودم سوى أن جدرانه الأولى عمرها أكثر من أربعة قرون، وإنه وجد في الأرشيفات مرسومًا يشهد بأن الإمبراطور جعل منه استراحة، في خريف ١٥٦٧، عندما ذهب إلى ثغور كارينت لمقابلة عظيم الترك. كنت خلف أورشفير الذي يسير بسرعة ويهز كتلة الهواء. كنت أشعر بأني مجتذبٌ به، برائحته المستمدة من الجلد، من الليل، من شحم الخنزير، من اللحية، من البشرة المتسخة. كنا نصعد أحيانًا عدة سُلَّمات أو ننزل اثنتين أو ثلاثًا أخرى. وسأجد صعوبة فعلاً في أن أقول كَم من الوقت بقينا هكذا، بضع دقائق أم بضع ساعات، حيث محا هذا الممر علامات المكان والزمان.

أخيرًا توقف أورشفير أمام باب ضخم مصفح بالنحاس المخضَر والمسامير المربعة. فتحه. بهرني ضوء لبني. يلزمني أن أبقى برهة في ظلام جفنيَّ المغمضين لأعود إلى النور. وأرى.

كنا في خلفية المنزل، التي لم أرها قط، سوى عن بُعد، حين كنت أسير على أعالي القمم. كنت أعرف أن هنا المباني التي كانت تؤوي ثروة العمدة، وقبله ثروة أبيه، وأبوي أبيه. ثروة وردية وصاخبة تمضي وقتها في التمرغ في الوحل. ثروة لها صوت الأرانب الذي يثير طوال النهار صخب كل الشياطين.

ذهب أورشفير هو الخنازير. فمنذ أجيال عدة، والعائلة تعيش وتثرى من دهن الخنازير. لم يكن ثمة مُربون آخرون بنفس الأهمية في محيط خمسين كيلومترًا من جميع الجهات. كل صباح كان العديد من العربات تترك المنطقة محملةً بالحيوانات المذبوحة أو- مذعورةً أو ناعقةً- تستعد لذلك، نحو القرى، والأسواق، ومحلات الجزارة في الجهات المحيطة. كان نشاطًا كثيفًا دقيق التنظيم لم تنجح حتى الحرب في عرقلته. فنحن نأكل أيضًا في زمن الحرب. في كل الأحوال بالتأكيد.

حينئذٍ، بعد ثلاثة شهور من بداية الحرب، بعد هذه اللحظة العظيمة من الصمت المفاجئ، حين كان كلٌّ منا ينظر نحو الشرق، ويرهف السمع إلى أصوات أحذية "جمعية أخوة الشيطان" التي ظلت غير مرئية - هكذا يمكننا أن نُسمِّي هؤلاء الذين أتوا لإشاعة الموت والرماد، رجالٌ جعلوني أصبح حيوانًا، رجالٌ يشبهوننا، وبالنسبة لي أعرفهم جيدًا بما أني ذهبت لمدة عامين لأدرس في العاصمة، رجالٌ - بالنسبة لبعضهم - يألفوننا، لأنهم كانوا كثيرًا ما يأتون إلى قريتنا، تقودهم التجارة أو الاحتفالات الشعبية، بل يتحدثون لغة هي الأخت التوأم للغتنا، ونفهمها بلا مشقة-، كُنست المراكز الحدودية كما تُكنس أوراق الزهور الورقية بنفخة طفل، ولم يقلق أورشفير أدنى قلق في العالم: واصل تربية خنازيره، وبيعها، وأكلها. سيظل بابه نظيفًا. لم يُلطَّخ بعلامة شائنة. وهؤلاء الذين يمشون منتصرين في شوارعنا، كانوا يتحملون شيئًا من المسؤولية عن الموت الأحمق لولديه، لكنه تنازل لهم بلا ضغينة عن خنازيره السمينة مقابل بعض النقود، التي كانوا يخرجونها حفنات من جيوبهم بعد أن كانوا قد سلبوها من مكان آخر دون شك.

في القطعة الأولى المسورة التي أراها لي أورشفير، عشرات من صغار الخنازير التي لم تتجاوز أعمارهما بضعة أسابيع، تلعب على القش المُندَّى. كانت تجرى تتحرش ببعضهما، تهتاج مطلقة صيحات بهجة قصيرة. ألقى لهما أورشفير بثلاث مغارف من الحبوب. أخذت تتصارع نحو طاولة الطعام.

في القطعة المسورة التالية، كان ثمة مجموعة خنازير أعمارها ثمانية أشهر، تروح وتجيء، تتدافع متحدة بعضهما البعض. تشعر أن بينهما عنفًا ووحشية غريبة، مجانية، لم يكن يبررها أو يفسرها - فيما يبدو - أي شيء. كانت هناك أيضًا حيوانات ضخمة، سمينة، بآذان متهدلة، وبخطم مفترس ووحشي. نتانة فظة كانت تستولي على الأنف. فالقش الذي كانت

تتمرغ عليه ملوثٌ بالبراز. تذمراتٌ تصطدم بالحواجز الخشبية وتضرب الأصداغ. وددت الخروج بأقصى سرعة.

أكثر بُعدًا، في القطعة الأخيرة المسوَّرة، كانت تنام الخنازير البالغة. ضخمة. ممتقعة. تُسحب برَسَن كأنها مركب. كلهما على أجنابهم. نائمة في طين أسود، كثيف كثُفل قصب السكر، لاهثة مفتوحة الفم. كان بعضهما ينظر إلينا بضجر كبير. وأخري نبشت الأرض من تحتهما. اعتقدنا أن عمالقة قد تحولوا إلى حيوانات، مخلوقات حُكم عليها بمسخ مروع.

"مراحل الحياة"، همس أورشفير الذي كنت قد نسيت وجوده تقريبًا، وأفزعني صوته. "لقد رأيتَ البراءة أولاً، ثم الشراسة الغبية، ثم هنا، الحكمة.." أضاف. أخذ بعض الوقت ثم أكمل بصوت بطيء وخفيض. "لكن أحيانًا، يا بروديك، لا تكون الحكمة ما نعتقدها. فهؤلاء الذين تراهم أمامك وحوش. وحوش حقيقية، بمظهرهم الأرضي المضحك، وحوش بلا قلب أو عقل. بلا ذاكرة أيضًا. لا يضعون في الحسبان إلا بطونهم، بطونهم، لا يفكرون إلا في شيء واحد، طوال الوقت، القدرة على ملئها".

توقف ونظر إليَّ بابتسامة غامضة، كانت تقطع- في وجهه الملطخ- قسماته الضخمة. تبرقش بعض بقايا الخبز شاربه، كما تحتفظ شفتاه أيضًا ببعض اللمعان الذي كان قد تركه شحم الخنزير.

"من الممكن أن يأكلوا أشقاءهم، لحومهم، لن يزعجهم هذا، لا يبالُون. يمضغون، يبتلعون، يتبرزون، ويكررون ذلك إلى ما لا نهاية. لا يشبعون أبدًا. وكل شيء جيدٌ بالنسبة لهم. فهم يأكلون كل شيء، بروديك، دون أن يطرحوا أسئلةً أبدًا. مطلقًا.. أتفهم ما أقول؟ لا يتركون شيئًا وراءهم، لا أثر، لا دليل. لا شيء. وهم، يا بروديك، لا يفكرون. لا يعرفون الندم. يعيشون. الماضي- بالنسبة لهم - مجهول. ألا تعتقد أن هؤلاء هم العقلاء؟

- ٦ -

أحاول أن أعود عن قُرب أكبر من هذه اللحظات، فيما كل ما أتمناه، هو أن أنساها، ثم أهرب، أهرب بعيدًا جدًا، بساقيين خفيفتين وعقل جديد تمامًا.

ينتابني إحساس بأني لم أُخلق لحياتي. ما أود أن أقوله هو أن حياتي تفيض من كل جانب، وأنها لم تفصَّل لإنسان مثلي، وأنها تمتلئ بالكثير من الأشياء، بالكثير من الأحداث، بالكثير من البؤس، بالكثير من الفشل. ربما هي غلطتي؟ ربما أنا الذي لم يستطع أن يكون إنسانًا؟ الذي لم يعرف ما يأخذ، ما يترك، وما ينتقي. أو ربما هو خطأ هذا العصر الذي أعيش فيه، الذي يشكل حفرة كبيرة يُسكَب فيها فائض الأيام، كل ما يقطع، يسلخ، يسحق، يُجزِّئ. أشعر أحيانًا بأن رأسي على حافة الانفجار، كقذيفة متخمة بالبارود.

هذا اليوم الشهير، اليوم التالي للإيرينيه، لم يكن - مع ذلك - ببعيد جدًا. وعلى الرغم من كل شيء، فهو يغزلني بين أصابعه. لا أتذكر إلا بضع مشاهد وبضع كلمات، محددة بدقة، وواضحة جدًا، مشعة في ليل حالك. كما أتذكر خوفي، خوفي بالذات، كأن الخوف أصبح من الآن فصاعدًا

ردائي. رداء لن أستطيع - فضلاً عن ذلك - أن أخلعه أبدًا، بل على العكس تمامًا، يضغط كأنه يضيق عليَّ من أسبوع لآخر. والأمر الأكثر غرابة، هو أنني عندما كنت في المعسكر، حين أصبحت الكلب بروديك، لم يكن يتملكني الخوف. لم يكن الخوف موجودًا هناك، فقد كنت بعيدًا عنه تمامًا؛ ذلك أن الخوف ينتمي إلى الحياة. فحين تدور الضباع حول الجيَف، لا يملك الخوف الانفصال عن الحياة. إنه هو الذي يغذيها ويحافظ عليها. لكنني كنت على هامش الحياة. والآن في وسط النهر.

لدى خروجي من مزرعة أورشفير، اعتقدت أني تهت في الشوارع. كان الوقت لا يزال مبكرًا جدًا. لم تفارقني صورة الخنازير التي تتمرغ على أجنابها، وهي تنظر إليَّ بعيونها ذات اللون الأخضر المزرق. كنت أحاول طرد هذا المنظر لكنه التصق بذاكرتي. كان قد غرس داخلي جذورًا لن أستطيع اقتلاعها. هذه الحيوانات، بوجوهها الضخمة، وكروشها المنتفخة، وعيونها، عيونها الشاحبة التي كانت تُحدق فيَّ، ونتانتها أيضًا. يا إلهي.. كان كل ذلك ينتهي بأن يتراقص بعشوائية في رأسي، الخنازير، والوجه الهادئ والواثق لـ"لاندرير"، رقصة "السربندة" بلا موسيقى، بمصاحبة الكمان الوحيد، الهدوء المرعب لـ أورشيفير.

وجدتُ نفسى أمام مقهى الأم بيتس الكائن قبالة المغسل القديم. لا شك أني جئت إلى هنا لأني متأكد أني لن أقابل أحدًا، على الأقل لا أحد من الرجال. فهو لا يرتاده سوى عجائز النساء، اللائي يلتقين فيه في كل وقت، لكن بشكل خاص في نهاية اليوم على شراب عُشبي أو كؤوس صغيرة من شراب الفاكهة المُسكرالممزوج بثمرة العرعر وقليل من السكر.

- في قريتنا نسمى هذا "المَخادع".

الحق أقول إن هذا المقهى لم يكن مقهى تمامًا. هو حجرة إسكان ملاصقة للمطبخ. ثمة ثلاث مناضد مغطاة بمفارش موشاة، وبعض الكراسي حولها، ومدفأة صغيرة تعمل بشكل سيئ، ونباتات خُضر في

أصص لامعة، وعلى الحائط صورة باهتة تمامًا لشاب يضحك عن قصد وهو يربت شاربه بإصبعين. تخطت الأم بيتس الخامسة والسبعين. منحنية على قسمين، كطية على شكل زاوية قائمة. عندما يقابلها الصبية في الشارع ينادونها "زاوية قائمة". والشاب الكائن في الصورة هو زوجها، أوجست بيتس، الذي مات منذ نصف قرن.

لابد أنني الرجل الوحيد الذي تطأ قدماه - من حين لآخر - عند الأم بيتس. أحيانًا ما تساعدني. ولذلك أذهب إليها. فهي تعرف كل نباتات الهضبة، حتى الأكثر ندرة منها، وحينما لا أجدها في كتبي أذهب إليها لأسألها عنها، فنمضي هكذا عدة ساعات نتحدث عن الزهور والنجيليات، الدروب، نباتات الأحراج، المراعي التي تلتهمها الخراف بأفواهها، الماعز، الأبقار، والرياح التي لا تتوقف أبدًا، كل هذه الأماكن التي لم تعد تستطيع الذهاب إليها منذ وقت طويل جدًا.

"لقد قطعوا أجنحتي، يا بروديك... فحياتي هناك في الأعلى حقًا، على المراعي الجرداء في الأعلى مع قطعان الماشية. هنا أختنق، والهواء خفيض جدًا. نحن كالديدان نزحف على مستوى الأرض. نسِفُّ التراب بينما في الأعلى...".

لديها أروع كتب الأعشاب التي أعرفها. دولاب كامل مملوء يقرقع من الكتب الكبيرة، ذات الأغلفة الكرتونية داكنة السواد، التي مددت فيها - ولعدة سنوات - زهور وأعشاب الجبل. تحت كل نوع خطَّت - بأسلوبها المجتهد- مكان القطف، واليوم، وحالة السماء، ورائحة النبات، وألوانه المحددة، واتجاهه، ثم، أحيانًا، تعليقًا صغيرًا بلا أهمية.

"إذن، برودیك، ألا تزال تأتي من أجل "السِّفر الكبير للمتوفين والمتوفيات"؟"- قالت ذلك باللهجة المحلية، مما يعطي تأثيرًا أقل تراجيدية وأكثر رقة.

هكذا استقبلتني في ذلك اليوم الشهير حين دفعتُ بابها ذا الجلاجل. أغلقتُه كما لو كنت مُطاردًا، بلا شك بسيماء شاحبة وعجلة شخص متواطئ، وذهبت لأجلس إلى المنضدة في أقصى الزاوية، التي غطستُ فيها كأني كنت أريد أن أختفي فيها. طلبتُ منها شيئًا بالغ القوة والسخونة، لأني كنت أرتجف كناقوس خشبي قديم تحت رياح عيد الفصح. تجمدتُ. كانت الشمس- مع ذلك- قد كست السماء وتتسيدها.

سرعان ما عادت الأم بيتس بفنجان يتصاعد منه البخار. أشارت إليَّ لأشرب. أطعتُها كطفل. أغمضتُ عيني، وتركت الشراب يغزوني. بدأ دمي يستعيد الدفء، ثم يداي ورأسي. أرخيتُ قليلاً ياقة سترتي، وأيضًا ياقة قميصي. كانت الأم بيتس تنظر إليَّ. كانت الجدران تتحرك برقة، كأوراق شجر الحور، والمقاعد أيضًا، التي كان يبدو أنها تريد أن تذهب نحوهم وتدعوهم للرقص.

"ماذا حدث بروديك؟ هل رأيت الشيطان؟".

أمسكت يديَّ بيديها وكان وجهها قريبًا جدًا من وجهي. كانت لها عينان واسعتان خضراوان، جميلتان جدًا، وشذرات مذهَّبة على محيط قزحية عينيها. أتذكر أني اعتقدت أن العينين بلا عمر، وأن الإنسان يموت بعينَيْ طفل، دائمًا، عينيه اللتين انفتحتا ذات يوم على العالم ولن يغمضهما أبدًا.

هزتني قليلاً وكررت سؤالها.

ماذا تعرف، وماذا أستطيع أن أقول لها؟ فمساء الليلة السابقة، في نُزل شلوس، لم يكن هناك سوى رجال، ومع هؤلاء الرجال عقدتُ صفقةً ما. وعندما دخلتُ بيتي لم أقل شيئًا لنسائي، وفي الصباح أيضًا، خرجتُ قبل أن يستيقظن. ألا يتصرف الآخرون، كل الآخرين، كذلك مع زوجاتهم، وأخواتهم، وأمهاتهم، وأطفالهم؟

استمرت في الضغط قليلاً على يديَّ كما لو أنها تستخرج منهما الحقيقة. توالت الكلمات في ذهني:

"لا شيء. لا شيء أيتها الأم بيتس. لا شيء خطير، غير طبيعي: مساء أمس قتل رجال القرية "لاندرير". حدث ذلك في نُزل شلوس، ببساطة تامة، كجزء من لعبة الورق، أو اتفاق بيع. كان ذلك مخفيًا لوقت طويل. وصلتُ فيما بعد، كنت قد أتيت لأشتري زبدًا، لم أكن في المجزرة. وقد كُلفت ببساطة بإنجاز "تقرير". لابد لي أن أفسر ما حدث منذ مجيئه، ولماذا لم يسعهم إلا قتله. هذا كل شيء".

لم تتخط الكلمات شفتيَّ. ظلت في الداخل. لم تكن تريد الخروج. ومع ذلك حاولت. نهضت العجوز، وذهبت إلى مطبخها، وعادت بوعاء صغير مطلي باللون الوردي. سكبت لي باقي الشراب في الفنجان وأشارت إليَّ بتناوله. شربت. بدأت الحوائط تتراقص. شعرت بدفء شديد. رحلت الأم بيتس مرةً أخرى. وحين عادت هذه المرة، كان بين ذراعيها أحد كتبها الكبيرة، أحد كتبها عن الأعشاب. على الغلاف، كانت الملصقة تحمل تنويهًا– Blüte vo Maï un Heikraüte vo June- يمكنني أن أترجمه إلى "زهور مايو والنباتات الطبية في يونيو". وضعت الكتاب أمامي على المنضدة، وجلست بجانبي، ثم فتحته.

"ألقِ نظرة إذن بعد ذلك على وفياتي الصغيرة، بروديك. سيغير ذلك أفكارك".

حينئذٍ، كما لو كان قد اجتُذب بهذه الكلمات، شعرت بأن "لاندرير" أتى فوق كتفي، يضبط عويناته ذات الإطار الذهبي، كما كنت كثيرًا ما أراه يفعل ذلك، ثم أضحكني بوجهه الجميل المستدير الطفولي الذي كبر بسرعة بالغة قبل أن ينحني إلى الأمام برأسه الكبير المحاط بالسوالف المجعدة، ويتأمل– في كتاب الأم بيتس– الأوراق الجافة والتويجات المتساقطة.

قلتُ من قبل إنه قليل الكلام. قليل جدًا. أحيانًا، وأنا أنظر إليه، أفكر في بعض صور القديسين. إنها لشيءٌ مثير، القداسة. حين نلتقيها، كثيرًا

ما نتعامل معها من أجل شيء آخر، من أجل شيء آخر تمامًا، بلا مبالاة، بسخرية، بتواطؤ، بفتور، بوقاحة، باحتقار ربما. نخطئ، وحينئذٍ ننجرف. نرتكب الخطأ الأسوأ. لهذا، ولا شك، دائمًا ما ينتهي القديسون إلى شهداء.

- ٧ -

ينبغي أن أحكي عن وصول "لاندرير" إلى قريتنا، لكني خائف: خائف من أن أهيج الأشباح، وخائف من الآخرين. أهل القرية، الذين لم يعودوا معي كما من قبل. فبالأمس- على سبيل المثال- لم يرد فريتس أشنباش، الذي أعرفه منذ أكثر من عشرين عامًا، على تحيتي، عندما التقينا عند مرتفع يورنيتس. كان عائدًا بأغصانه المقطوعة، بينما كنت ذاهبًا لأرى ما إذا كنت أستطيع أن أجد بعضًا من عش الغراب. ذُهلت. توقفت، استدرت، صِحت: "إذن فريتس، ألم أقل صباح الخير؟" إلا أنه لم يبطئ حتى من سيره، لم يلتفت للوراء، بل اكتفى بأن يقذف ببصقة كبيرة إلى الجانب، هذا كل شيء. ربما كان مستغرقًا في التفكير لدرجة أنه لم يرني، لم يسمعني. ولكن أية أفكار هذه؟ وبمَ تتعلق؟ لست مجنونًا. لا أتحول إلى مجنون. مات ديودم بعد ذلك! موت إضافي! كان موتًا غريبًا، سأتحدث عنه في التو. منذ المعسكر، وأنا أعرف أن هناك ذئابًا أكثر من الحملان.

وصل "لاندرير" في نهاية أصيل ١٢ مايو، وهو ما يعني بعد عام من الربيع القادم. يوم بالغ اللطف، ومصبوغ بألوان شقراء. كان المساء يأتي على أطراف أصابعه، كأنه لا يريد إزعاج أحد. في الحقول التي تحيط

القرية، وفي المراعي الأعلى- على مرمى البصر- لم نكن نرى إلا تماوجات بيضاء وصفراء. كان العشب الأصفر يختفي تحت سجادة أزهار الهندباء البري. كانت الرياح تؤرجحها، تنظفها، أو تحميها، حسب مزاجها، فيما - فوق الجميع - كان ثمة سحب متجمعة تنطلق في شريط نحو الغرب، وتندفع نحو هُوة براتس لتختفي فيها تمامًا. فوق المراعي، كانت بعض ندف الثلج لا تزال تقاوم بدايات الحرارة التي كانت تلعقها، وتقلل منها من يوم لآخر، وستحولها عما قريب إلى أغادير صافية وباردة.

ربما كانت الساعة الخامسة، الخامسة ونصف، حين لمح - جونتر بكنفور، الذي كان مشغولاً بترميم كوخه الخاص بالرعي، من ناحية بورنكويف - جماعةً غريبةً على الطريق الآتي من الحدود، الذي لم نر عليه منذ نهاية الحرب أي شيء قط، حيث لم يعد أي شخص يسير عليه، أو حتى يفكر في الذهاب إليه أبدًا.

"كان ذلك يسير ببطء تمامًا"، هو مَن يكلمني، بناءً على طلبي، ليمكنني تدوين كل كلمة يقولها لي في مفكرتي، وأقول فعلاً كل كلمة. كنا في منزله. قدم لي كأسًا من البيرة. وأنا أكتب. كان يمضغ ببطء لفافة تبغ قام بلفها منذ قليل، نصفها تبغ ونصفها نبات حزاز الصخر، تترك في الحجرة عفونة قَرن يحترق. في أحد الأركان، أبوه العجوز، بينما ماتت أمه منذ أمد طويل. يكلم العجوز نفسه وحيدًا تمامًا، في قرقرة فكه، حيث لم يبق له إلا سِنتان أو ثلاث، وهو يهز باستمرار رأسه الهزيل، الشبيه برأس زرزور، على طريقة صغار الملائكة في لوحات الكنائس. في الخارج، بدأ الثلج في الهطول. الثلوج الأولى هي التي تبهج الأطفال، حيث يبهر بياضها الجديد. نراه يأتي أحيانًا قُرب النافذة، بغرابة، مثل مئات من العيون المتجهة نحونا، ثم يرحل من جديد مفزوعًا، بكميات كبيرة نحو الشارع.

"كان ذلك يتقدم بالكاد، كما لو أن الرجل كان ينقل لنفسه بنفسه مجموعة من النُّصُب الجرانيتية. بل إنني توقفتُ لأتمعن على مهل، لأرى ما

إذا كنت أحلم، لا لم أكن أحلم، كنت أرى بالفعل شيئًا ما، لكني لا أعرف أيضًا ما هو، اعتقدتُ للوهلة الأولى أنها حيوانات ضالة، أو أناس تائهون، أو أيضًا باعةٌ لما لا أدري، لأني الآن كنت أدرك جيدًا أنه إنسان، إلى حدٍّ ما، بعد كل هذه الأمر. ارتعدتُ - على ما أذكر - رعدةً قوية، لا من البرد، بل رعدة لدى معاودة التفكير في الحرب، في طريق الحرب، هذه العاهرة الحثالة خراء الطريق الذي لا يوصلنا هنا إلا إلى التعاسة وأشكال البؤس، وهو، هيئة الإنسان بحيوانيه اللذين لم أكن أعرف حينئذٍ ما إذا كانا من البقر أو الخيل، كان بالتحديد على هذا الطريق. كان لا يسعه إلا أن يأتي من هناك، من عند "الأطفال القذرين"، ذوي الخصى القذرة، الخارجين من بطون أمهاتهم النتنة، العاهرات العجائز... أتذكر ما فعلوه لقاتور، هؤلاء الخراء الأخضر؟"

أومأت له بالإيجاب. قاتور، كان مُرمِّم الخزف. كان أيضًا صهر بيكنفور. أراد أن يتذاكى على "الأطفال القذرين" عندما وصلوا إلى القرية، وفُقد. ربما سأتحدث عنه.

"كنت متحيرًا لدرجة أني وضعت ألواحي وأدواتي. فركت عينيَّ، حدقتُ بهما، حاولت أن أرى لأبعد مدى. كان كشبح من زمن آخر. ظللت فاغر الفاه. شخصية استعراضية حقيقية، مزركشة بشكل لم نعد نفعله، ويخبِ بخطوات قصيرة بدواب سيركه كأنه كان ذاهبًا إلى تمثيلية هزْلية أو خارجًا من مسرح عرائس".

هنا، الخيول، قمنا بذبحها منذ أمد بعيد، وأكلناها. ومنذ نهاية الحرب، لم نكن نفكر في استعادتها. لم نعد نريدها. كنا نفضل عليها الحمير، والبغال. حيوانان في غاية الحماقة، ليس بها أي شيء من الإنسانية، ولا ذكريات على ظهريهما. وأن نرى شخصًا ما قادمًا على حصان، فذلك ما كان يعني بالضرورة أنه أتي من مكان بعيد، ولا يعرف شيئًا عن منطقتنا، لا يعرف بما حدث فيها ولا بمآسينا.

فلم يكن يركب حصانًا إلا من كان عجوزًا: فمنذ الحرب، كان ذلك قليلاً جدًا كما لو أننا رجعنا بالزمن: كل البؤس التي بذرَته نبَت حبوبًا في ربيع مناسب. أعدنا إخراج آلات زمن آخر من المخازن، أصلحنا ما لم يُدمر أو يُسرق، عربات نقل عرجاء، وعربات يد مرممة. نحرث بشفرات محراث صُنعت منذ أكثر من قرن. وهنت قوة الذراع. كل العالم عاد إلى الوراء كأن الزمن الإنساني تلقى صدمةً كبيرة أو أعطى للإنسانية ركلة فظيعة في مؤخرتها ليدفعها إلى البدء من الصفر، مرةً أخرى تقريبًا.

كان الشبح يخِب ببطء، وهو ينظر- فيما يبدو- إلى الشمال واليمين، مداعبًا بيده رقبة مطيته ومتحدثًا إليها كثيرًا، لأن شفتيه كانتا تتحركان. كان الحيوان الثاني مربوطًا بالأول. كان حمارًا عجوزًا، لا يزال قويًا وذا رُسغ مربع، ويسير بخطى واثقة دون ضعف أو انحراف، ويحمل أيضًا على ظهره ثلاث حقائب كبيرة تبدو ثقيلة جدًا، وكذلك العديد من الأكياس الضخمة التي تتدلى إلى اليمين واليسار كحزمة بصل معلقة بعارضة المطبخ.

"في النهاية، وصل - بعد كل ذلك- إلى مستوى رؤيتي، كنت أنظر إليه كما لو كان جنيًا أو "العفريت" الذي كان أبي يكلمني عنه عندما كنت طفلاً صغيرًا ليبث فيَّ الخوف، وكان يقول لي إنه يعيش في جحور الوادي، بين الثعالب وحيوانات الخَلَد، حيث يقتات بالأطفال التائهين وصغار الطيور. خلع قبعته، قبعته الغريبة التي تتخذ شكل بطيخة، وتم صقل استدارتها، وحياني بشكل احتفالي. ثم بدأ ينزل من فوق حصانه، حيوان جميل بوبر نظيف ولامع، كان يتمتع برعاية متميزة. ترك نفسه ينزلق على طول بطنه، وهو يتنفس بقوة ويدعك بطنه الذي كان مترهلاً بشكل سيئ. عندما نزل على الأرض، نفض الغبار عن ملبسه الهزلي، سترة طويلة من القطيفة والجوخ، مع بهرجة غريبة وشارات قرمزية. كان له وجه كأنه بالون حقيقي، وبشرة مشدودة تمامًا محمرَّة في وجنتيه. تأوه الحمار قليلاً. أجابه

الحصان بهز عنقه، وهنا قال لي هذا الأضحوكة الساخرة مبتسمًا: "أنتم تعيشون في بلد رائع، يا سيدي، نعم، بلد رائع..."

"قلت لنفسي إنه يسخر من شكلي. لم يتحرك حيواناه، مؤدبان للغاية مثل سيدهما، لم يزعجا شفاههما حتى بالعشب الندي الذي كان تحت وجهيهما، مثلما كان لآخرين أن يفعلوا بلا إزعاج. اكتفيا بأن ينظرا إلى بعضهما البعض، ويتبادلا الكلمات فيما بينهما من حين إلى آخر، كلمات حيوانات. ثم أخرج سلسلة ساعة، وبدا مندهشًا من الوقت، مما زاد ابتسامته وسألني ببساطة، وهو يشير برأسه في اتجاه قريتنا: "يجب أن أصل قبل الليل.."

لم ينطق باسم قريتنا. أشار فحسب إلى اتجاهها، فضلاً عن ذلك فلم ينتظر إجابتي. كان يعرف جيدًا إلى أين يذهب. يعرفه! وهو حقًا ما كان أغرب شيء، حقيقة أنه لم يكن رجلاً تائهًا على الجبل، لكنه كان في الحقيقة رجلاً يسعى للمجيء إلى قريتنا، وأن يصل إليها بأقصى سرعة!"

صمت بيكنفور وجرع كأسه الخامسة من البيرة دفعةً واحدة. وثبت بسيماء مخبولة لوح المنضدة الذي كان يحتوي خدوشًا وأخاديد ترسم أشكالاً غريبة. كان الثلج فيما وراء النافذة يهطل الآن بشكل مباشر ومنتظم. بهذه السرعة، كان يمكن للثلج أن يتراكم خلال ليلة بارتفاع متر على السقوف وفي الشوارع. وحينئذٍ، نحن الذين كنا بالفعل على هامش العالم، سنصبح أكثر من ذلك. وذلك مريع: أن تكون وحيدًا - بالنسبة للبعض - لا يؤدي إلا إلى اجترار غريب، وخطط معذِّبة وبلا أساس. وفي هذه اللعبة، كنت أعرف فيها الكثير الذي يصل- خلال بعض أمسيات الشتاء- إلى إظهار حماقات المعماريين.

ـ ٨ ـ

لا نزال في هذا اليوم الشهير من الربيع، تحدث "لاندرير" بهدوء، دون أن يتخلى عن ابتسامته، ثم امتطى حصانه من جديد، حدَّق في بيكنفور دون أن ينطق بكلمة، وانطلق إلى قريتنا. نظر إليه بيكفنور طويلاً، إلى أن اختفى وراء صخور كولنك.

قبل أن يصل إلى قريتنا، كان عليه أن يتوقف في مكانٍ ما. إجباريًا. لقد ألصقتُ التوقيتات. فثمة فجوة بين اللحظة التي غاب فيها عن نظر بيكنفور ولحظة عبوره بوابة المدينة، عند الغسق، تحت بصر الابن الأكبر لدورفر، الذي تردد في دخول منزله، لأن أباه، السكران مرةً أخرى كمتسول، كان يصيح بأنه سيبقر بطنه. هذه الفجوة لا تستطيع حتى الرحلة المتباطئة على الحصان أن تسدها. بالتفكير جيدًا أظن أنه توقف عند النهر، عند تسربروك، هناك حيث يتعرج الطريق على نحو غريب، في أرض مخضوضرة رقيقة كوجنة طفل. لم أر إلا هذا. المنظر بديع جدًا في هذه المنطقة، وبالنسبة لَمن لا يعرف بلدتنا، فهذا هو المكان الذي يمكننا أن نحسه كقطعة نسيج، لأننا نرى منه سقوف القرية ونسمع جلبتها، ونندهش بالذات من النهر.

فليس "ستوبي" مجرد مجرى مائي يتوافق مع مشهد طبيعي. فنحن نتوقع أن نجد هنا تدفقًا بطيئًا، يحيد، ثم يفيض، وينبسط في المروج، تعرقله شقائق مائية ذات رؤوس ذهبية وكذلك طحالب بطيئة ورخوة، مثل شَعر مُبلل. بدلاً من ذلك، لدينا سيل مندفع، مرح، ينعي، يصرخ، يدفع بقوة الحصَى، ينحت الصخور الناتئة، يلتطم ويطلق زَبدًا ورذاذًا في الهواء. وحشٌ حقيقي بالنسبة للجبل، واضح وقاطع مثل بلّورة، نرى من خلالها الوميض الرمادي لأسماك التروتة. جامح. صيف شتاء، مياهه باردة وتبرِّد رأسك من الداخل، وأثناء الحرب، في الصباح الباكر، كنا أحيانًا ما نجد كائنات أخرى غير الأسماك، بالغة الزرقة، بسيماء مندهشة إلى حدٍّ ما، مغمضة الأعين، كما لو أنها نامت مندهشة وهي مُحاطة بهذا البساط المائي الجميل.

لكي أتحدث معه عن عدة أشياء، فأنا متأكد أن "لاندرير" قد أخذ وقته في تأمل نهرنا. "ستوبي"، كم هو اسم غريب. لا يعني شيئًا، حتى في اللغة المحلية. لا نعرف مِن أين يأتي. بل إن ديودم في كل أوراقه التي استطاع قراءتها والتفتيش فيها، لم يتوصل إلي معرفة أصله أو معناه. إن الأسماء بالغة الغرابة. أحيانًا لا نعرف شيئًا عنها ونقولها بلا توقف. إلى حدٍّ ما، هي مثل البشر من الداخل، هؤلاء الذين نقابلهم على مر السنين فعلاً، إلا أننا لا نعرفهم أبدًا، ويظهرون ذات يوم، تحت عيوننا، على نحو لم نتوقع أبدًا أن يكونوه.

لا أعرف ما الذي يمكن أن يكون "لاندرير" قد فكر فيه، وهو يرى للمرة الأولى منازلنا ومدافئنا. كان قد وصل. انتهت رحلته. أتى إلى هنا لا إلى أي مكان آخر. فكَّر بيكنيفور في ذلك، وفهمه جيدًا، وفيما بعد كنا كلنا مثله. لم يكن ثمة خطأ. كان "لاندرير" قد جاء إلى هنا دون شك بإرادته الكاملة، استعدادًا لمغامرته، مُحضرًا لأجلها كل ما يلزم، وليس بتأثير ضربة على رأسه أو نزوة قَدَر.

حتى ساعة الوصول، لابد من وضعها في الحسبان. ساعة مزعجة، خلالها يرفع الضوء الحجاب عن الأشياء، الجبال التي تحرس الوادي، الغابات، المراعي، البيوت وواجهتها، الأسيجة الشائكة والأصوات، مما يضفى عليها جمالاً أكثر، وعظمة أكبر. ساعة ليست واضحة تمامًا، لكنها تكفي لإعطاء كل حدث أوكسيدًا فريدًا، وإصدرا دَوِي واضح لدى وصول شخص غريب، في قرية تعدادها أربعمائة نسمة، ينشغلون تمامًا بتصفح الذهن في الأوقات العادية. لكنها على العكس، ساعة ترتبط أيضًا بحقيقة أنها متعلقة بيوم يحتضر، وتثير الفضول لا الخوف. الخوف، سيأتي فيما بعد، عندما تُطبق المصاريع على النوافذ المغلقة، وعند انزلاق آخر حطبة تحت الرماد، وحين يوسع الصمت مملكته في أعمق أعماق المنازل.

أشعر بالبرد. أطراف أصابعي أصبحت كالحجر، ملساء ومتيبسة. وأنا في مخزن المنزل، وسط ألواح خشبية مهملة، آنية، مسامير، حبال، كراسٍ محشوة بالقش، وكل الأشياء القديمة نصف المستهلكة. هنا يتكدس زَبَد الحياة. وأنا هنا. جئت إلى هنا بنفسي. أحتاج إلى أن أختلي بنفسي لأحاول تنسيق هذه القصة المرعبة.

نحن نقطن في هذا المنزل منذ أقل قليلاً من عشر سنوات. تركنا الكوخ لنصل إلى هنا، حين استطعت شراءه من الأموال التي اقتصدتها من أجري، ومن بيع تطريزات إيمليا. احتضن المُعلم كنوبف يديَّ بقوة، عندما وقَّعت عقد البيع: "ها أنت منذ الآن في منزلك حقًا يا بروديك. لا تنس أبدًا أن المنزل كالوطن". ثم أخرج عدة أكواب، قرعناها ببعضها البعض، هو وأنا، لأن البائع رفض ما مده له الموثق- كان يُدعَى رودلف ساش، يرتدي عوينات وقفازات بيضاء، وأتى من شلوس على وجه السرعة ونظر إلينا من علٍ، كما لو كان يعيش على سحابة بيضاء، ونحن في مياه المزابل. كان المنزل لأحد أشقاء جده الذي لم يعرفه بالتأكيد قط.

الكوخ، أُعطي لنا عندما وصلنا، فيدورين، وعربتها وأنا. مضى على ذلك الآن أكثر من ثلاثين عامًا. نحن في طرف العالم. استمرت رحلتنا أسابيع كحلم لا ينتهي أبدًا. عبرنا حدودًا، أنهارًا، بقاعًا خضراء، ممرات، مدنًا، جسورًا، لغات، شعوبًا، حقولاً وغابات. كنت على العربة كملك صغير، يشد نفسه بجانب حزمة البضائع وبطن الأرنب الذي احتفظ دائمًا بنظرته المخملية إليّ. كل يوم كانت فيدورين تطعمني خبزًا، وتفاحًا، وشحم خنزير، كانت تأخذها من حقائب كبيرة من القماش الأزرق، وأيضًا كلمات، كلمات كانت تدسها في أذني وكان عليَّ أن أخرجها مرةً أخرى من فمي.

ثم ذات يوم، وصلنا إلى هذه القرية التي أصبحت قريتنا. أوقفت فيدورين عربتها أمام الكنيسة ودفعتني إلى إنعاش ساقَي. في هذه الفترة، لم يكن أحدٌ يخشى الغرباء، حتى لو كانوا أفقر الفقراء. أحاطوا بنا. أتت إلينا نساء يحملن إلينا ما نأكله ونشربه. أتذكر أيضًا أن بعض الرجال جرُّوا العربة، وأخذوها إلى الكوخ، حيث لم يريدوا لفيدورين أن تقوم بأدنى مجهود. كان هناك الأب بيبر، الذي كان شابًا حينئذ مفعمًا بالحيوية، وكان لا يزال يؤمن بما يقوله، والعمدة، وهو رجل عجوز بشارب كبير أبيض ومفتول، وشخص باسم سيبيلوس كراسباش، كان موظفًا للصحة في الجيوش الامبراطورية. وضعونا في الكوخ وهم يفهموننا أننا يمكن أن نمكث فيه ليلة أو عدة سنوات. كانت بالكوخ مدفأة سوداء كبيرة، وسرير من الصنوبر، ودولاب، ومنضدة، وثلاثة مقاعد، وكذلك حجرة أخرى خالية. كان للحوائط الخشبية عذوبة العسل ولونه الدافئ. الجو في الكوخ حار. في الليل، كنا أحيانًا ما نسمع غمغمة الرياح في الغصون العالية لشجر الصنوبر القريب جدًا، وطقطقة الخشب الذي تداعبه نفثات المدفأة. نمت وأنا أفكر في السناجب، وطائر الغريد، وطائر السُمنة. إنها فردوس.

هنا، في المخزن، أنا وحدي. ليس مكانًا للنساء، أو الشابات أو العجائز. في المساء، تطلق الشموع هنا ظلالها الخيالية، والعوارض الحديدية تعزف

موسيقى خشنة. شعرت بأني بعيد جداً. انتابني شعورٌ- ربما زائف - بألاَّ شيء يمكنه إزعاجي هنا، ولا أن ينالني، وبأني في مأمن من كل شيء، شيء وأحد، فحتى عندما أكون في وسط القرية والكل حولي، إلا أن ثمة آخرين لا يجهلون عني شيئًا، أنفاسي، أعمالي وحركاتي.

وضعتُ الآلة على منضدة ديودم. فبعد موته قام أورشفير بإلقاء وإحراق كل شيء، الملابس، الأثاث القليل، والروايات، بحجة أن المكان لابد أن يكون نظيفًا، ليستقبل المُعلِّم الجديد. هو جوهان لولي الذي حل محل ديودم. إنه أحد أبناء القرية. لديه ساق أقصر من الأخرى، وزوجة جميلة أنجب منها ثلاثة أطفال، كان آخرهم لا يزال في المهد. لم يكن لدى لُولي معرفة كبيرة، لكنه أيضًا لم يكن أبله. كان قد قام من قبل بعدة مكاتبات لدار العمودية، والآن يتلعثم للأطفال، بعد أن يكتب على السبورة حروفًا وأرقامًا. كان هو أيضًا موجودًا ليلة "الإيرينيه". لمحتُ من بين كل الرؤوس التي كانت تنظر إليَّ شعره الكث الأصهب وكتفيه العريضتين المربعتين اللتين تجعلانك تظن أنه نسي دائمًا أن ينزع شماعة الملابس قبل أن يرتدي سترته.

لم أكن بحاجة إلى منضدة ديودم، لكن كانت لديَّ رغبة في أن أحتفظ بشيء منه، شيء كان قد لمسه، استخدمه. منضدته تشبهه. مصنوعة من لوحين جميلين من خشب الجوز الملمع، مثبتين جنبًا إلى جنب، على أربع أرجل بسيطة، بلا بهرجة أو زينة. دُرج كبير مغلق بمفتاح، لكن المفتاح ليس معي. وليس لديَّ أيضًا حب الاستطلاع لكسره، لأرى ما إذا كان يحتوي على شيء ما. عندما أحرك المنضدة قليلاً. لا يصدر عنها أي صوت. بدت لي خالية تمامًا.

ـ ٩ ـ

وقفتُ في مواجهة الحائط الداخلي للمخزن. الآلة أمامي. والجو بارد جدًا. ليس هناك سوى أصابعي التي أصبحت كالأحجار، وأيضًا أنفي. لم أعد أشعر به.

عندما أبحث عن كلماتي، وأرفع عينيَّ، أقابل الحائط، حينئذٍ أقول لنفسي ربما لم يكن من الواجب أن أضع المنضدة قبالته. فله شخصية قوية. هو ذو حضور قوي. يحدثني عن المعسكر. فقد قابلتُ هناك حائطًا يشبه حائطي.

عندما كان المرء يصل إلى المعسكر، كنا نمر علي "البوكست"- (الصندوق). كان الحراس يسمونه: الموضع، وهو قفص صغير من الحَجَر، مساحته متر ونصف المتر في متر ونصف، ولا يمكن فيه البقاء وقوفًا ولا النوم.

كانوا يخرجوننا في مواكب بالهراوات، والصراخ. بعدها، كان ينبغي الالتحاق بالمعسكر جريًا. ثلاثة كيلومترات من طريق وعر، تحت الصراخ، ونباح الكلاب وعضاتهم أحياناً. وهولاء الذين كانوا يقعون منا يتم الإجهاز

عليهم في مكانهم، بضربات العصى. كنا ضعافًا ,لم نأكل شيئًا منذ ستة أيام، وتقريبًا لم نشرب شيئًا. كانت أجسامنا متصلبة. وسيقاننا لا تقوى على حملنا.

كان بجانبي، في نفس عربة القطار التي كنت فيها، الطالب موش كِلمَر. لمدة ستة أيام كنا نتحدث، فيما نختنق مكدسين في الكماشة المعدنية الكبيرة، التي كانت تتقدم بسرعة "بزاق"[1] في قرية لم نرها حتى، وحيث أصبحت حناجرنا جافة كالقش في نهاية أغسطس، ومن حولنا كتلة بشرية كانت تتأوه وتبكي. لم يكن ثمة هواء ولا مكان. كان هناك عجائز، فتيات، رجال ونساء. كان بالقرب منا أم شابة وطفلها الرضيع. أم في ريعان الشباب وطفلها الصغير. سأتذكرهما طوال حياتى.

كان كِلمَر يتحدث لغة فيدورين، هذه اللغة الألفية التي أودعَتها فيَّ، وفجأةً- وبلا عناء- جرت على شفتى. كان يعرف الكثير من الكتب، ويعرف أيضًا الكثير من أسماء الزهور- حتى زهرة عناقية السيول - وهى نوع من الزهور الأسطورية في منطقتنا-، فيما كان يعيش دائمًا في العاصمة، أي بعيدًا جدًا عن قريتنا، بل بعيدًا جدًا عن الجبل. لم تطأ قدمه قط المرتفعات، وضاق صدره من كل العالم. كانت له أصابع فتاة، وشعر أشقر بالغ النعومة، ووجه رقيق. كان يرتدي قميصًا أبيض، من الكتان الجميل، موشًى بأهداب زخرفية في صدر القميص، قميص يرتديه المرء للحفلات، أو للمواعيد الغرامية.

سألته عن أخبار العاصمة التي عرفتها في الماضي، أثناء فترة الدراسة. في تلك الفترة كان أهل إقليمنا يعبرون الحدود ليصلوا إليها. حتى إن كانت هذه المدينة تنتمى لـ"فراترجيكيم"[2] فقد ظل قُطرنا مرتبطًا بها

---

(١) من فصيلة الرخويات (المترجم).

(٢) Fratergekeime لقب كان يُطلق على قوة الاحتلال (الألماني). في الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

عشرات السنين، تحت حكم الإمبراطور، ولا نزال نشعر فيها كأننا في بلدنا. حدثني كلمر عن المقاهي التي كان يرتادها الطلبة ليشربوا النبيذ الساخن، ويأكلوا الحلوى بالقرفة المنثور عليها بذور السمسم، وعن متنزه إيلسي، الذي يحاذي البحيرة الجميلة، حيث تتم في الصيف دعوة الفتيات للتنزه في قوارب، وفي الشتاء للتزلج، وعن المكتبة الكبيرة في شارع جلوكين سبيل، والآلاف من كتبها ذات الأغلفة المذهبة، ومقصف "ستوب" حيث كانت هناك امرأة بدينة، فراجليلك، التي كانت تعتبر نفسها أمًّا لنا، وتملأ أطباقنا بمغارف ممتلئة من اليخني وحساء النقانق. أما عن أسئلتي عن الأماكن التي عرفتها وأحببتها، فكان كِلمَر يجيبني في معظم الأحيان بأنه لم يرها منذ ثلاث سنوات على الأقل، منذ أن استقر- هو وكل مَن أطلق عليهم لقب "فريمدير"(*) في الجزء القديم من العاصمة الذي تحول فيما بعد إلى جيتو.

ولكن في هذا النطاق، كان ثمة مكان ارتاده كثيرًا وحدثنا عنه طويلاً، مكان كان أثيرًا بالنسبة لي، إلى حد أن أية إشارة بسيطة له تجعلني أتذكره من جديد، وتجعل قلبي يسرع في خفقانه، وتبعث فيّ روحي البهجة: إنه مسرح ستوبيسبايل الصغير، الذي كانت له خشبة مسرح صغيرة وأربعة صفوف فقط من المقاعد. كانت العروض التي تُقدم فيه هي الأسوأ بلا شك في المدينة. لكن تذكرة الدخول إليه لم تكن تساوي شيئًا تقريبا، وخلال الأيام الباردة في نوفمبر وديسمبر، كانت الصالة الصغيرة دافئة للغاية، ورقيقة ككومة من العشب.

ذات مساء، ذهبتُ إليه بصحبة أولي رات، وهو طالب صديق، مرح، وضحكه المتواصل يبدو كشلال من القطع النحاسية، وكان معجبًا بممثلة مبتدئة. وهي سمينة وسمراء إلى حدٍّ ما، كانت تؤدي دورًا صغيرًا في مسرحية هزلية، لا رأس لها ولا ذَيل. أخذت أنعس في المنتصف، حين

(١) Fremdir الغريب. (المترجم).

جلست فتاة على الكرسي الثاني الذي يخصني. ملابسها الخفيفة جداً بالنسبة لهذا الفصل من العام كانت تكشف عن أنها أتت إلى هنا لنفس الأسباب التي جئت من أجلها. كانت ترتعش إلى حدٍّ ما. تشبه عصفوراً صغيراً، أو طائر قُرقُب خفيف ومفعم بالحيوية. كانت شفتاها المنفرجتان بعض الشيء- بلونهما الوردي الشاحب- تبتسمان. نفخت في يديها الصغيرتين، والتفتت نحوي، ونظرت إليّ. ثمة أغنية قديمة من الجبل تقول: "عندما يدق الحُب على الباب.. لا يبقى إلا الباب.. ويختفي كل شيء آخر". أخذت عيوننا تتكلم هكذا لأكثر من ساعة، وعندما خرجنا من المسرح ككائنات آلية، كان للبرد بالخارج أن يخرجنا من خيالنا. كانت بعض الثلوج تتساقط على أكتافنا. وتجرأتُ وسألتها عن اسمها. قالته لي، وأصبح بالنسبة لى أكثر الهدايا قيمةً. في الليلة التالية، لم أتوقف عن الهمس باسمها، بأن أقوله وأكرره، كما لو أن تكراره هكذا إلى ما لا نهاية يستحضر أمامي، كأنما بفعل السحر، الملاك ذا العيون بندقية اللون، التي كان يحملها: "إيمليا، إيمليا، إيمليا....".

خرجنا، أنا وكلمر، من العربة في نفس الوقت، جريًا ونحن نحمي رأسينا بأيدينا. كان الحراس يعوُون. بل وصل الأمر ببعضهم إلى حد الضحك وهم يعوُون. وكان يمكن الظن بأننا في ملهاة كبيرة، لولا الأنين ورائحة الدم. كنا نلهث، أنا وكِلمَر. لم نكن قد أكلنا شيئًا منذ ستة أيام، وبالكاد شربنا. ولم تعد سيقاننا قادرة على حملنا. مفاصلنا غشاها الصدأ. نجري بقدر ما نستطيع. لن ينتهي ذلك أبدًا. كان النهار يبدأ في نشر ضوئه الشاحب على الضواحي القريبة، رغم أن الشمس لم تظهر بعد. مررنا بشجرة بلوط كبيرة، ملتوية، أحرقت صاعقة جزءًا من أوراقها. بعد ذلك بقليل توقف كلمر. فجأة.

"لن أذهب أبعد من ذلك، يا بروديك".

أجبته بأنه جُن، وبأن الحراس سيلحقون بنا، وسينقضون عليه ويقتلوه.

"لن أذهب أبعد من ذلك. لن أستطيع أن أعيش مع ما تعرفه..." كرر قوله.

حاولت أن أمسكه من كُمه، وأجره رغمًا عنه. لم يحدث شيء. جذبته بقوة. تمزقت قطعة من قميصه بيدي. لاحظ الحراس من بعيد شيئًا ما. توقفوا عن الحديث، ونظروا نحونا.

توسلت إليه: "هيَّا.. هيَّا.. أسرع!"

جلس كلمر بهدوء شديد وسط تراب الطريق. ولا يزال يكرر: "لن أذهب أبعد من ذلك"، برقة شديدة وهدوء بالغ، كشخص لا يسعه إلا أن يقول بصوت عال قرارًا خطيرًا تمعن فيه طويلاً في صمت أفكاره.

سار الحراس نحونا، أسرعوا شيئًا فشيئًا، وصاحوا.

"كِلمر...، همست، كِلمر...، هيَّا ،أتوسل إليك!"

نظر إليَّ مبتسمًا.

"ستتذكرني، عندما تعود إلى بلدتك، عندما تجد زهرة "عناقية السيول"، ستتذكر الطالب موش كلمر. ثم ستحكي، ستقول كل شيء. ستتحدث عن العربة، ستتحدث أيضًا عن هذا الصباح، يا بروديك، ستقول ذلك من أجلي، ستقوله من أجل كل البشر..".

التهبت مؤخرتي بشدة. ضربةٌ أخرى من العصا شجت كتفي. كان الحارسان يصرخان ويضربان. أغمض كلمر عينيه. دفعني حارسٌ، وصرخ فيَّ أن أرحل. ضربةٌ أخرى جعلت شفتيَّ تنشقَّان. سال الدم في فمي. بدأت أجري، وأنا أبكي، لا لأني أشعر بالألم، بل لأني أفكر في كلمر الذي حدد اختياره. ابتعد العواء. التفتُّ. انقض الحارسان على الطالب. كان جسمه يتقلب يمينًا ويسارًا، كدمية بائسة يتسلَّى بها أطفال أشرار فيكسرون مفاصلها وأجزاء تشغيلها. حينئذٍ، اعتقدتُ أني عُدت للحياة من خلال طريق مختصر وحشي، مساء "ليلة التطهر".

لم أجد قط زهرة عناقية السيول في جبالنا. لكنني وجدتها في كتاب، كتاب قيم جدًا: هي زهرة ليست مرتفعة كثيرًا، رقيقة الجذع، وتويجاتها لونها أزرق داكن، تبدو ملتحمة كأنها لا تريد أبدًا أن تتفتح. ولكن ربما لأنها لا تنمو أكثر من ذلك. ربما لأن الطبيعة قررت انتزاعها إلى الأبد من الكتالوج الكبير، وأن تحرم البشر من جمالها، تحرمهم منها لأنهم لم يعودوا يستحقونها.

في نهاية الطريق وفي نهاية ركضي، كان هناك مدخل المعسكر: بوابة كبيرة من الحديد المشغول، رائعة الصنع، كبوابة متنزه أو حديقة ترفيهية.

على جانبيها، كانت تنتصب نقطتا مراقبة مطليتان باللون الوردي والأخضر الفاتح، بداخلها يقف حراسٌ مشدودو القامة متصلبون، وفوق البوابة كان ثمة كُلاَّب كبير، يلتمع، يشبه كُلاب دكان الجزارة الذي تُعلق فيه ثيران كاملة. كان رجل يتأرجح منه، موثوق اليدين من الخلف، وحبلٌ في رقبته، جاحظ العينين، بل خرجت عيناه من محجريهما، اللسان عريض منتفخ، ويتدلى خارج شفتيه؛ صبي بائس كان يشبهنا كشقيق، فيما عتبة صغيرة كانت مزينة بلافتة كُتب عليها بلغتهم، لغة الـ"فراتيرجيكم"، التي تمثل نسخة من لهجتنا، أختها التوأم: "أنا لا شيء". كانت الريح تحركها قليلاً. وثمة ثلاثة غربان- ليست بعيدة عنه - تنتظر بصبر، وتترصد عينيه كقطعة حلوى.

كل يوم، كان ثمة شخص كهذا يُشنق في مدخل المعسكر. وكلٌّ منا يحدث نفسه - عند استيقاظه في الصباح- بأن دوره ربما سيحل ذلك اليوم. كان الحراس يخرجوننا من الأكواخ التي نتكدس فيها مباشرةً على الأرض في الليل، يدفعوننا إلى الاصطفاف، وننتظر واقفين هكذا لفترة طويلة، أيًا ما كان الوقت.ننتظر مَن سيختارونه من بيننا ضحية اليوم. أحيانًا يقررون ذلك في ثلاث ثوان. وفي أحيانٍ أخرى، يلعبون علينا النرد أو الورق. وعلينا أن نظل واقفين بالقرب منهم، متسمرين في صفوف منتظمة. كان

المتنافسون يلعبون، وفي النهاية يكون للمنتصر مزية الاختيار. كان يمر بين الصفوف. نحبس أنفاسنا. ويحاول كلٌّ منا أن يجعل من نفسه الأقل قيمة، قدر الإمكان. وكان الحارس يأخذ وقته. ثم كان ينتهي إلى أن يقف أمام سجين، يلمسه بطرف عصاه، ويقول ببساطة: "دو.. أنت!". أما نحن الآخرين، كل الآخرين، فكنا – من أعماقنا- نشعر بميلاد فرح مجنون، سعادة سمجة، لن تمتد إلا إلى اليوم التالي، حتى الحفل الجديد، ولكن مَن سيتاح له أن يصمد، أن يصمد مرةً ثانية؟

كان "الدو" يرحل مع الحراس. يذهب حتى البوابة. يجعلونه يصعد إلى الكُلاب. يجعلونه يُنزل مشنوق اليوم السابق، ثم يهبط به على ظهره. يحفر حفرة ويدفنه. ثم يجعله الحراس يضبط لافتة: "أنا لا شيء"، يلفون الحبل، يجعلونه يصعد أعلى الكرسي، ثم ينتظرون أن تصل "الزيلنسينس".

"الزيلنسينس".. هي زوجة مدير المعسكر. كانت شابة، وذات جمال لا إنساني، مجبول من شُقرة وبياض زائدين. كانت كثيرًا ما تجول في المعسكر، وتعطينا أوامر بألا ننظر في عينيها، وإلا فهو الموت.

لم تكن "الزيلنسيس" تفوت قط عملية شنق الصباح. كانت تصل هادئة، نضرة، متوردة الوجنتين، المنظفتين بالماء النقي والصابون والكِريم. وأحيانًا ما يحمل إلينا الهواء أريج عطرها، عطر نبات "الحلوة"، ولم أعد أستطيع- منذ ذلك الحين- أن أشم رائحة نبات "الحلوة" دون أن أتقيأ وأبكي. كانت ترتدي ملابس نظيفة. كانت تتجمل وتتأنق بطريقة مثالية، ونحن- على بُعد بضعة أمتار منها- يأكلنا الدود في أسمالنا التي لم يعد لها شكل ولا لون، والجلد مُتدرِّن ونتن، والرأس حليق ويملأه القشر، بعظامنا التي كانت تحاول أن تثقبنا من كل جانب، فنحن ننتمي إلى عالم آخر غير عالمها.

لم تكن تأتي قط بمفردها. دائمًا ما كانت تحمل بين ذراعيها طفلها، رضيعًا ذا بضعة أشهر، مزينًا بأغطية جميلة. كانت تهدهده بهدوء، تحدثه

في أذنه، تدندن له ألحانًا،أذكر واحدًا منها يقول: "عالمٌ، عالمٌ من نور/ يدُ البشر تعلو كل شيء/ عالمٌ، عالمٌ من نور/ أوه، فلتنَم، يا طفلي الرقيق".

كان الطفل دائمًا هادئًا. لم يكن يبكي. أحيانًا ما يكون نائمًا، ولكنها توقظه بحركات بسيطة بالغة الرقة. وعندما كان يفتح عينيه وتتحرك ذراعاه الصغيرتان وفخذاه الصغيرتان، يتثاءب نحو السماء، حينئذٍ، وبإيماءة بسيطة من ذقنها، تشير إلى الحراس أن الاحتفال يمكن أن يبدأ. كان أحدهم يطلق ضربة قوية بقدمه للكرسي، بينما يهوي جسم "الدو"، وهو يمسك بسرعة بالحبل. كانت "الزيلنسينس" تنظر إليه لبضع دقائق، وتعلو شفتيها حينئذٍ ابتسامة. لم تكن تُفوت شيئًا من انتفاضات الموت وحشرجته، والأقدام المنطلقة في الفراغ بحثًا عن الأرض، والضوضاء الضخمة لأمعاء كانت تفرغ، وأخيرًا.. السكون، الصمت العظيم. حينئذٍ، تضع قبلة طويلة على جبين طفلها، الذي كان أحيانًا ما يبكي قليلاً، لا من الخوف بلا شك، بل لأنه كان جائعًا ويطلب الرضاعة، وتذهب به في هدوء. كانت الغربان الثلاثة تتخذ أماكنها. لا أدري ما إذا كانت هى نفس غربان كل يوم. تتشابه كثيرًا. كان الحراس أيضًا كلهم يتشابهون، لكنهم لا يأكلون العيون، بل يكتفون بحيواتنا. مثلها. مثل زوجة المدير. هي التي نسميها فيما بيننا "زيلنسينس". "زيلنسينس": "آكلة الأرواح".

فيما بعد، فكرتُ كثيرًا في هذا الطفل، طفلها. أمات مثلها؟ أهو على قيد الحياة؟ إذا كان على قيد الحياة، فلابد أنه في مثل عمر صغيرتي بوبشيت. إذن، فكيف يكون هذا الصغير الذي كان، ولعدة شهور كل صباح، يتغذى على اللبن الفاتر لثديَي أمه، وعلى مشهد مئات الرجال المشنوقين؟ ما هي أحلامه؟ كلماته؟ هل يبتسم أيضًا؟ هل جُن؟ هل نسي كل شيء؟ أم يجتر في عقله الصغير حركات الأجسام المهتزة التي كانت تقترب من الموت، وأنات المشنوقين، والدموع التي كانت تسيل على الخدود الرمادية والمغضنة؟ والصرخات الحادة للعصافير؟

في الأيام الأولى بالمعسكر، في "البوكست"، تحدثت بلا توقف إلى كلمر، كما لو كان ما يزال حيًا. "البوكست"، زنزانةٌ بلا نافذة. كان النهار يأتي من تحت الباب الضخم المصفح، ذي الزخارف الحديدية. كنت أفتحُ عينيّ، فأرى الحائط في مواجهتي. وكنت أغمض عيني، فأرى كلمر، ومن خلفه، بعيدًا، أبعد بكثير، إيمليا، بكتفيها الرقيقتين النحيلتين، وعلى البُعد أيضًا فيدورين، التي كانت تبكي وهي تهز رأسها برقة.

لا أعرف كم من الوقت بقيتُ في "البوكست"، مع هذه الوجوه الثلاثة، ومع هذا الحائط. بلا شك,كثيرًا من الوقت. أسابيع، وربما شهورًا. ولكن على أية حال، فهناك في المعسكر، لم تكن لتَعني شيئًا الأيام، والأسابيع والشهور. فالزمن لم يكن يُحتسب.

لم يكن للزمن وجود.

- ١٠ -

لا أزال في المخزن. يشق عليّ أن أستعيد رباطة جأشي. فمنذ نصف ساعة تقريبًا، وأنا أظن أني أسمع أصواتًا غريبة قُرب الباب، نوعًا من احتكاكٍ ما. توقفت عن الكتابة على الآلة، مرهفًا سمعي. لا شيء. كان الصوت قد توقف. حبست أنفاسي لفترة طويلة. ومع ذلك كنت متأكدًا من سماعي شيءٍ ما. لم أكن أحلم.عاد الصوت بعد قليل، لكنه لم يعد قُرب الباب، بل بطول الحائط، وكان يتنقل ببطء شديد، كأنه كان يزحف. نفختُ في الشمعة، وسحبتُ الورقة من الآلة، أطبقتها تحت قميصي، وتكوَّرتُ في زاوية، بجوار سلة قديمة مملوءة بالكُرنب واللفت، خلف بعض الأدوات. لم يتوقف الصوت، كان دائمًا ما يتقدم ببطء، وينساب بطول جدران المخزن.

استمر ذلك طويلاً. أحيانًا كان الصوت يتوقف ثم يعود. كان يدور حول المخزن بإيقاع شديد البطء. بسماعه هكذا يدور من حولي، كنتُ أشعر بأني وقعتُ بين فكّي كماشة لا مرئية، وبأن يدًا لا مرئية هي الأخرى تنغلق عليَّ شيئًا فشيئًا.

دار الصوت دورةً كاملة. ها هو من جديد خلف الباب. رأيت سقاطة الباب المعدنية تتحرك. تميل لأسفل خلال الصمت المطبق. تذكرتُ كل

القصص التي كانت تحفظها فيدورين في ذاكرتها، حيث تتكلم الأشياء، وحيث تعبر قصورٌ- في ليلة واحدة - سهولاً وجبالاً، وحيث تنام ملكاتٌ لمدة ألف عام، وتتحول أشجار إلى رجال، وتنتصب جذورها لتمسك بالحناجر وتخنقها، وحيث تستطيع بعض الينابيع شفاء الجروح والأحزان العظيمة.

انفتح الباب، بالكاد، بلا صوت أيضًا. حاولت أن أنزوي أكثر، أن أتدثر بالظلام. لم أكن أرى أي شيء. لم أعد أسمع قلبي. كما لو أنه توقف عن الخفقان، أو أنه كان ينتظر أيضًا حدوث شيءٍ ما. حينئذٍ أمسكتْ يدٌ بالباب ودفعته. كان القمر يمد وجهه بين سحابتين. برز من الفتحة جسم جوبلر برأسه الشبيه برأس الدجاجة، على هيئة صور الظِّل (السلويت) التي كان صغار الباعة الجائلين في العاصمة، قُرب سوق ألبير جيبليتس الكبيرة، يشكلونها بالمقص من ورق يُسوده الدخان، والتي كانت تمثل عفاريت أو وحوشًا.

أرسل الهواء المندفع عبر الباب رائحة الجليد. كان جوبلر مُسمرًا، يفتش الظلام. لم أتحرك. كنت أعرف أنه هنا حيث أكون، ولم يكن يستطيع رؤيتي، وأنا أيضًا بالتأكيد، لكني كنت أشتَم رائحته، رائحة الطيور الرطبة، ورائحة حظيرة الدواجن.

"ألم تنم يا بروديك؟ ألا ترد بشيء؟ ومع ذلك، أعرف أنك هنا، رأيت الوميض تحت الباب قبل أن تطفئه، وسمعت الآلة..."

كان صوته في الظلام يتخذ تنغيمات غريبة.

"أنا سهران، يا بروديك... انتبه لنفسك!".

انغلق الباب واختفى ظِل جوبلر. ظللتُ أسمع وقع خطواته لبضع ثوان. حينئذٍ تخيلت حذاءه الضخم الجلدي المشحَّم، ونعله الموحل الذي كان يترك على طبقة الثلج الرقيقة آثارًا سوداء قذرة.

مكثتُ هكذا لفترة طويلة- في زاويتي - بلا حراك. كنت أتنفس أقل مما كنت أستطيع، وأطلب من قلبى أن يهدأ. كنت أحدثه كما نتحدث إلى حيوان.

في الخارج، هبت الرياح من جديد. أخذ المخزن في الارتعاش. شعرتُ بالبرد. فجأةً حل الغضب محل خوفي. ما الذي كان يريده مني تاجر الدجاج هذا؟ ثم بأي حق يتدخل؟ فهل كنت أراقبه أو أتجسس على زوجته البدينة؟ وبأي حق يدخل عندي دون أن يطرق الباب، ليهددني بنصف كلمة؟ إن من يقترف الأسوأ مع الآخرين لم يكن له أن ينصب من نفسه قاضيًا! بالفعل، أنا البريء من بينهم جميعًا. إنه أنا! الوحيد! الوحيد...!

الوحيد.

نعم، كنت الوحيد.

بقوله لي تلك الكلمات، فهمت فجأةً كم يدق هذا كناقوس خطر، وأن تكون بريئًا وسط مذنبين، هو- في مجمله- كأن تكون مذنبًا وسط أبرياء. تساءلتُ أيضًا لماذا- في الأمسية الشهيرة، أمسية "الإرينيه"- تواجد كل رجال القرية في نُزل شلوس، فى نفس اللحظة، كل الرجال، عداي. لم أفكر قط في ذلك، من قبل. لم أفكر قط في ذلك,لأنه حتى الآن، كنت قد قلت لنفسي- بسذاجة شديدة- إننى كنت محظوظًا لعدم وجودي هناك، دون أن أسأل نفسي ما هو أكثر. لكن الجميع لم يكونوا قد قرروا- كأنها صدفة في نفس الوقت- أن يذهبوا لاحتساء كأس من النبيذ أو كوب من البيرة. فلو أن كل هؤلاء كانوا موجودين هناك، فذلك لأنهم كانوا على موعد. وقد أُقصيت وحدي من هذا الموعد. لماذا؟ لماذا إذن؟

ارتعشتُ من جديد. كنت لا أزال في الظلام. ظلام المخزن وظلام السؤال. وفجأةً، تراقصت في رأسي ذكرى أول يوم على هيئة منشار في خشب أخضر تمامًا. أول يوم لعودتي. عندما عدت من المعسكر بعد مسيرتي الطويلة، حيث دخلت شوارع قريتنا.

ظهرت لي كل الوجوه التي قابلتني حينئذ: في البداية تماماً وفي الصدارة، ابنتا جليكر، الكبيرة برأسها الشبيه بحيوان القرنب، والصغيرة بعينيها الغريقتين في الشحم؛ ثم في حارة العصّارات، جوت الحداد، بذراعيه المغطاتين بالشعر الأصهب، والأم فولتاش أمام مقهاها، في ناصية حارة أونتيرال، وكيتسنيفر الذي كان يسحب بقرة مريضة بالقرب من نبع بيدر، وأوتو ميلك، بكرشه بين يديه، الذي كان يتحدث مع عامل الغابة بروسا تحت إفريز السوق، حيث فتح فمه عن آخره حين رأى شبحي، فوقع سيجاره الصغير الملتوي من بين شفتيه، ثم كل الآخرين الذين خرجوا من بيوتهم، كما لو أنهم بُعثوا من مقابرهم، ثم تحلقوا حولي، دون أن يتكلموا، وأحاطوني حتى منزلي، ثم- على نحو خاص- كل هؤلاء الذين دخلوا منازلهم وأغلقوا أبوابهم بخفة، كما لو أنني أتيت بحمولة مُتخمة من النحس أو الكراهية أو الانتقام، وكأني سأشيع كل ذلك في الهواء، كرماد بارد.

بالألوان والريشة، أستطيع أن أرسم هذه الوجوه، لو كنت أمتلك موهبة "لاندرير"، خاصة عيونهم؛ تلك العيون التي لم أقرأ فيها- في تلك الفترة- سوى الدهشة، ولكنها في الحاضر تبدو أكثر معرفة، حيث كان ثمة في الواقع مجموعة من الأشياء الشبيهة بما في تلك المستنقعات التي يخلفها الصيف وراءه، في الأراضي الجافة لفرجة غابة ترويربرينتس، التي تُخفي الكثير من العفونة المتحركة، والأفواه الصغيرة المستعدة لتمزيق كل ما يقف حائلاً دون أهدافها.

كنتُ قد تركت مركز الأرض. كنت محظوظًا أن أخرج من الكيزرسكفير. أن أصعد بطول جدرانه. وكل متر أناله كان يبدو لى ميلاداً جديداً.

ومع ذلك، كان لديَّ جسدُ ميت. وفي الأماكن التي مررت بها أثناء طريقي الطويل، كان الأطفال يفرون باكين، كما لو كانوا قد رأوا شيطانًا، فيما كان النساء والرجال يخرجون من المنازل، يقتربون مني، يلمسونني تقريبًا ويدورون حولي.

أحيانًا كانوا يعطونني كسرة خبز، أو قطعة جُبن، أو ثمرة بطاطس مطهية تحت الجمر، ولكن بعضهم كان يرجمني بالحجارة، بالبصاق، بكلمات قذرة كما لو أنهم التقوا شريرًا. لا يمثل هذا شيئًا بالقياس إلى ما تركتُه. كنت أعرف أنني قد جئت من بعيد جدًا بالنسبة لهم، ولم يكن الأمر موضوع الكيلومترات الفعلية. كنت قد جئتُ من بلد بلا وجود في عقولهم، بلد لم تذكره أية خريطة قط، بلد لم تعبر عنه أية حكاية قط، بلد خرج من الأرض في بضعة شهور، ولكن – من الآن فصاعدًا – لابد للذكريات المتعلقة به من أن تتزاحم لعدة قرون.

كيف استطعتُ السير طويلاً، والإحاطة بكل طرقاته تحت قدميَّ العاريتين، لم أكن أعرف. ربما وبكل بساطة، ولأني– دون أن أعرف – كنت ميتًا بالفعل. حقًا، فربما لأني كنت ميتًا مثل الآخرين، مثل كل الآخرين في المعسكر، لكني لم أكن أعرف ذلك، ولم أكن أريد أن أعرفه، ولأني كنت أرفضه، فقد وصلت إلى خداع يقظة هؤلاء الذين يحرسون الجحيم، والحقائق، وبفعل رؤيتهم للكثيرين ممن يصلون في هذه اللحظات إلى أبوابهم، تركوني أعود إلى بيتي، قائلاً لنفسي إنني– بعد كل هذا– سأستطيع ذات يوم أو آخر أن أستعيد مكاني في الجماعة الكبيرة.

مشيت، مشيتُ، مشيت. مشيتُ نحو إيمليا. ذهبت نحوها. عدت. لم أكن أكف عن أن أقول لنفسى إنني قد عدتُ إليها. كان يلوح في الأفق وجهها، ضحكتها، رقتها، بشرتها، صوتها المخملي الموشَّى، نبرتها، التي كانت تمنح لكل كلمة من كلماتها رعونة طفل تعثر في حصاة، وكاد يقع ثم استعاد توازنه ثم انفجر من الضحك. كان هناك أيضًا عطرها في الفضاء اللامتناهي، رائحة طحلب ورائحة عباد الشمس. كنت أكلمها. كنت أقول لها إنني قد عُدت. إيمليا. إيملياي.

بعد كل ذلك,لابد أن أقول إن كل مَن قابلوني أثناء طريقي الطويل لم يعاملوني ككلب ضال، أو صعلوك مصاب بالطاعون. فهناك أيضًا الرجل العجوز.

وصلتُ ذات يوم إلى بلدة منغلقة بشكل غريب، من الجانب الآخر من الحدود، من بلدهم، بلد الفراترجيكم، حيث كانت كل المنازل منتصبة، بلا فتحات، بلا فجوات، وبلا مزارع محترقة. الكنيسة- النزيهة والمحافظة- كانت ترعى القبر الصغير الذي يتمدد تحت قدميها، بين بساتين الفاكهة المنسقة وممر الزيزفون. لم تُنْهَبْ المتاجر. دار العمودية سليمة، وفي الأحواض نوافير كبيرة، وثمة أبقار جميلة، بجلود سمراء، وعيون هادئة كانت ترتوي في صمت، بينما الصبي الذي كان يحرسها ويقودها للحلب يلعب بلعبة من خشب أحمر.

كان الرجل العجوز يجلس على مقعد، مستنداً إلى واجهة أحد المنازل الأخيرة في القرية. كان يبدو نائمًا، يداه موضوعتان على عصا من شجر البهشية، والغليون منطفئ. كانت قبعة من اللباد تأكل نصف وجهه. وكنت قد تجاوزته عندما سمعته يناديني بصوت متهمل، صوت في مجمله كيدٍ أخوية نربت بها كتفًا: "تعال. فلتأتِ إذن..."

اعتقدتُ للحظة أنني أحلم بهذا الصوت.

"نعم، أكلمك أنت، أيها الشاب!"

كان غريبًا اسم "الشاب" الذي منحه لي. كانت لديَّ رغبةٌ أيضًا في الابتسام. لكني فقدت قدرتي على الابتسام. عضلات فمي، شفتاي، عيناي لم تعد تعرف، وأسناني المكسورة تؤلمني.

لم أعد شابًا. كنتُ قد شختُ عدة قرون، في المعسكر. استعرضتُ المسألة. ولكن كلما قمنا- نحن الآخرين- هناك بهذا التأهيل الغريب كانت أجسامنا تتلاشى. وأنا الذي كنت قد رحلتُ سمينًا ككرة، كنت أرى بشرتي اليوم تقترن بعظمي. انتهينا جميعًا إلى أن نشبه بعضنا بعضًا. كنا قد أصبحنا ظلالاً نشبه بعضنا البعض. كان يمكن أن نختلط، أن نلغي البعض منا كل يوم، لأنه يمكننا أن نضيف البعض الآخر في الحال تمامًا، وذلك لم يكن لَيُرى. فنفس الأشباح ونفس الوجوه العظمية تحتل المعسكر. لم نعد أنفسنا. لم نعد ننتمي لأنفسنا. لم نعد بشرًا، لسنا إلا مجرد نوع.

ـ ١١ ـ

اصطحبني العجوز إلى منزله الذي كان يفوح برائحة الحجر الندي والعشب. جعلني أضع على صندوق جميل ولامع صُرة ملابسي، التى لم يكن بها في الحقيقة شيء مهم، اثنان أو ثلاثة من الأسمال التي أخذتها ذات صباح من رماد مخزن للحصاد، وقطعة غطاء تشم فيها أيضًا رائحة النار.

في الحجرة الأولى، ذات السقف المنخفض للغاية، والمكسوة كلها بخشب الصنوبر، كان ثمة منضدة مستديرة مُعدة سلفًا كما لو كانوا في انتظاري. وكان ثمة مفرشان موضوعان قبالة بعضهما على غطاء قطني، وزهرية من الفخار بها باقة من زهور الحقل الرقيقة والمؤثرة، التى كانت تتحرك من أقل نسمة هواء، مشيعة حينئذٍ روائح تشبه ذكريات عن العطور.

في هذه اللحظة، عاودني التفكير - مرةً أخرى- في الطالب كلمر، بمزيج من الحزن والبهجة، ولكن العجوز وضع يده على كتفي، وبحركة بسيطة بذقنه أشار لي بالجلوس.

"أنت بحاجة إلى وجبة جيدة وليلة طيبة. قبل أن ترحل خادمتي كانت قد أعدت أرنبًا بالأعشاب وكعكة بالسفرجل؛ لا ينتظران سواك".

ذهب إلى المطبخ ثم عاد بأرنب ممدد في طبق صيني مسطح أخضر اللون، وسط قطع من الجزر والبصل الأحمر وأعواد الزعتر. لم أكن قادرًا على الحركة، ولا على النطق بكلمة. اقترب العجوز مني، قدم لي الكثير من الطعام، ثم قطع قطعة كبيرة من الخبز الأبيض. سكب في كأسي ماء صافيًا. لم أكن أعرف ما إذا كنت موجوداً بالفعل في هذا المنزل، أم في أحد الأحلام العديدة والممتعة التي كانت تراودني في ليل المعسكر.

جلس في مواجهتي.

"اعذرني على عدم مشاركتك، فمَن في مثل عمري لا يأكل إلا نادراً، فأرجوك، تفضل.."

كان أول إنسان- منذ وقت طويل جدًا - يخاطبني كما لو كنت إنسانًا. بدأت الدموع تنهمر من عيني ,دموعي الأولى منذ فترة طويلة جدًا أيضًا. قبضت بيدي على قوائم الكرسي حتى لا أقع في الفراغ. فتحتُ فمي، حاولت أن أقول شيئًا ما، لكنني لم أستطع.

"لا تتكلم,قال,لن أسألك عن أي شيء. لا أدري بالضبط من أين جئت، لكني أعتقد أني أستطيع التخمين".

انتابني شعور بأني طفل. أتيت بحركات خرقاء، متسارعة، ومتنافرة. كان ينظر إليَّ بطيبة. نسيت أسناني المكسورة. انقضضت على الطعام كما كنت أفعل في المعسكر، عندما كان الحراس يلقون إليَّ بقلب كُرنبة,وقطعة بطاطس وشيءٍ من الخبز. أكلتُ الأرنب كاملاً، وكل الخبز، لعقت الطبق، والتهمت الكعكعة. كنت لا أزال أخاف داخلي من سرقة طعامي إذا ما تباطأت كثيرًا. شعرت بأن بطني امتلأ كما لم يمتلئ منذ شهور وشهور، مما آلمني. شعرت بأنه سينفجر، وبأني سأموت في هذا المنزل الجميل، تحت النظرة المرحبة لمضيفي، أموت من الإفراط في الطعام بعد أن كنت على وشك الموت من الجوع.

بعد أن انتهيت من تنظيف الصحن والطبق بلساني، التقطت بطرف أصابعي البقايا المنثورة على المائدة. قادني العجوز إلى الحجرة.

كان في انتظاري برميلٌ خشبي مملوء بالماء الساخن الممتزج بالصابون. نزع عني ملابسي، وأدخلني في البرميل، أجلسني، ثم غسلني. كان الماء ينساب على جلدي الذي لم يعد له لون، جلدي المتعفن من القذارة والمعاناة، وغسل العجوز جسمي بلا نفور وبحنو الأب.

في اليوم التالي، صحوت في سرير عال من خشب الأكاجو، وبين أغطية مطرزة، جديدة، ومنشاة، كانت تفوح برائحة حيوانات. كانت الحجرة تعرض على كل جدرانها وجوهًا مرسومة لرجال ذوي شوارب وصدريات، يتزين بعضهم بأوسمة عسكرية. كانوا ينظرون إليَّ جميعًا دون أن يروني. آلمت نعومة السرير كل جسمي. شعرتُ بمشقة في القيام من النوم. عبر نافذة، رأيت الحقول التي كانت تحيط بالمدينة، حقول ممتدة، بعضها مزروع بالقمح وأخرى محروثة، فيها دواب ذات قرون تجر المحاريث التي تقلب الأرض وتُهويها، أرض سوداء سهلة الفلاحة، على العكس تمامًا من أرضنا الحمراء الكثيفة كغِراء. كانت الشمس قريبة جدًا من الأفق الذي يخترقه شجر الحور والبتولا. وما ظننته الفجر، كان في الحقيقة غسق المساء. نمت ليلةً ويومًا بكاملهما، نوماً تاماً، بلا أحلام، بلا انقطاع أو توقف. كنت أشعر بأني ثقيل وحُر في آن واحد من عبء لم أكن أعرف حينئذٍ كيف أحدده جيداً.

كان في انتظاري على الكرسي ملابس نظيفة. وزوج من أحذية للسير، من جلد مرن وقوي، أحذية غير مستعملة، هي التى أرتديها الآن وأنا أكتب. عندما فرغتُ من ارتداء ملابسي، رأيت شخصًا ينظر إليَّ في المرآة، شخصًا بدا لي أني أعرفه في حياة أخرى.

كان مضيفي يجلس على الكرسي في الخارج أمام المنزل، مثل الليلة السابقة. كان يسحب دخان الغليون ويرسله في فضاء المساء، دخان تشم

فيه جيداً رائحة العسل ونبات السرخس. دعاني لأجلس بجانبه. أدركت– في هذه اللحظة– أنني لم أوجه إليه كلمة واحدة بعد.

"اسمي بروديك".

سحب من غليونه نفسًا طويلاً إلى حدٍّ ما، فاختفى وجهه للحظة في الأريج المعبأ بالدخان، ثم كرر برقة:

"بروديك، بروديك.. لقد سعدت كثيرًا بقبولك دعوتي. أظن أنه لا يزال أمامك طريق طويل إلى أن تصل إلى قريتك".

لم أكن أدري ماذا أقول له. لقد فقدت عادة الكلام وعادة التفكير.

"لا تُسئ فهمي,كرر العجوز,ولكن أحيانًا من الأفضل ألا نعود إلى المكان الذي رحلنا عنه. فنحن نتذكر ما تركناه، لكننا لن نعرف أبداً ماذا سنجد، خاصةً حين يُجن الناس بشكل دائم. ما تزال شابًا... فكر في ذلك".

صك في حجر المقعد عود الكبريت ليشعل غليونه المطفأ. رحلت الشمس الآن بشكل كامل إلى الجانب الآخر من العالم. لم يكن قد تبقى على تخوم الأرض إلا آثار مُحمرَّة تمتد كخربشات نارية، وتنتهي متلاطمة في الحقول. فوق رؤوسنا، كانت السماء في صُفرتها تسمح بأن تأتي موجاتٌ من الحبر الأسود، وتبدأ بعض النجوم بنثر ضيائها فيها بين خطوط طيور السمامة الأخيرة والخفافيش الأولى.

"إنهم ينتظرونني".

لم أنجح إلا في قول ذلك.

هز العجوز رأسه ببطء. نجحت في أن أكرر مرةً أخرى عبارتي، لكن دون أن أقول مَن الذي ينتظرني، دون أن أنطق باسم إيمليا. احتفظت باسمها داخلي، خشية أن أتركه يذهب خارجي، كأني كنت أجازف بفقدانه.

مكثتُ أربعة أيام في منزله. أنام نومًا عميقًا، وأتناول طعامي كسيد. كان العجوز ينظر إليَّ بانتباه، وكان يعاود خدمتي، إلا أنه لم يكن يتناول شيئًا قط. أحيانًا كان يصمت. وفي أحيان أخرى يحادثني. حديث أحادي الصوت، دائمًا صوته ،لكن لم يبد أن هذا المونولوج كان يزعجه، فيما كنت أشعر بسعادة غريبة في أن تحيطني كلماته. كان لديَّ شعور بأني سأعود إلى لغتي بفضل هذه الكلمات، اللغة التي تكمن - فيما وراءها- إنسانيةٌ شاسعة، واهنة، وأيضًا مريضة؛ لكنها لم تكن تطالب إلا بالشفاء.

استعدتُ بعض قواي ،فقررتُ الرحيل، ذات صباح، وفي وقت مبكر، فيما كان النهار يشرق ومعه كانت رائحة عشب نضر ورائحة الندى يدعوان نفسيهما إلى المنزل. كان شعري الذي نما كبُقع يمنحني هيئة إنسان يتماثل للشفاء، دون أن يستطيع أي طبيب تحديد أي مرض نجوت منه. كانت لديَّ أيضًا سحنة بلون الطَّمي وعينان غائرتان، بعيدًا جدًا في محجريهما.

العجوز الذي قلت له الليلة السابقة إنني سأواصل طريقي، كان ينتظرني على العتبة. أعطاني حقيبة لها حمالات، في غطاء من صوف رمادي، وأحزمة جلدية. كانت تحتوي على قطعتي خبز كبيرتين، وقطعة من شحم الخنزير، ونقانق، وكذلك ملابس.

"خذها، قال لي، إنها على مقاسك تمامًا. كانت لابني، لكنه لن يعود. بلا شك هذا الشكل أفضل".

فجأةً، بدت لي الحقيبة التي كنت سأمسك بها ثقيلة الوزن. مد لي العجوز يده:

"رحلة طيبة، يا بروديك".

للمرة الأولى، كان صوته يرتجف. أمسكت بيده. يدٌ جافة وباردة، ببشرة بها نمش، تجعدت في يدي. كانت ترتجف هي الأخرى.

"لو سمحت..."، أضاف، "سامحه، سامحهم.." وتلاشى صوته في هذه الغمغمة.

ـ ١٢ ـ

لم أتابع هذه الحكاية منذ خمسة أيام على الأقل. ومن ناحية أخرى، فعندما أمسكت برزمة الورق التي كنت قد تركتها في زاوية من المخزن، كان بعضها مغطّى بالغبار الأصفر الذي يشبه غبار تلقيح النخل وبعض التراب. كان ينبغي أن أعثر لها على مخبأ أكثر رقة.

لا يتشكك الآخرون في شيء. فهم مقتنعون بأني أكتب "التقرير" الذي طلبوه مني، وأني مشغولٌ تمامًا بهذه المهمة. في الحقيقة، كان يلعب لصالحي الحدثُ الذي كان جوبلر قد فاجأني به في وقت متأخر جدًا ذلك المساء في المخزن. عندما قابلني - في صباح اليوم التالي - أورشفير في الشارع، بالصدفة تمامًا، وضع يده على كتفي وقال: "يبدو أنك تعمل بجد يا بروديك.. استمر". ثم أكمل طريقه. كان الوقت مبكرًا للغاية. فكرت مليًا في أنه على الرغم من هذه الساعة المبكرة، إلا أن أورشفير كان على علم بأنني - مساء الليلة السابقة، في منتصف الليل - كنتُ في المخزن أنقر على مفاتيح الآلة، عندما ارتفع صوته من جديد في الضباب الجليدي للفجر: "ولكن في الحقيقة ,إلى أين ستذهب إذن بحقيبتك يا بروديك، وفي هذا الوقت؟". توقفت. لاحظني أورشفير وهو يشد بيديه على قلنسوته

ليدفسها أكثر. كان يضرب قدميه ببعضهما البعض ليشعر بالدفء، فيما كان فمه يرسل نفثات كبيرة من البخار كانت تتصاعد إلى الفضاء.

"هل عليَّ أن أجيب من الآن عن كل الأسئلة التي تُطرح عليّ؟"

ابتسم أورشفير ابتسامة صغيرة، لكن ابتسامات أورشفير كانت تقريبًا كتكشيرات، وهز رأسه على نحو بطيء، بطيء جدًا، مثلما فعل عندما كنت قد أتيت لأراه في اليوم التالي لـ"الإيرينيه".

"بروديك، أنت تضايقني. فقد كان سؤالاً وديًا. لماذا تشعر هكذا تجاه حراسك؟"

انقطع نفَسي. استطعتُ بعد ذلك أن أرفع كتفي على نحو يجعل الأمر طبيعيًا قدر الإمكان.

"سأحاول أن أفهم موضوع الثعالب، لابد من كتابة ملحوظة عن ذلك". وزَن أورشفير ما قلتُه له، وهو يلقي بعدة نظرات على حقيبتي، كأنه يحاول أن يرى ما كانت تخفيه.

"الثعالب؟.. بالتأكيد.. الثعالب.. آه حقًا، يومًا جميلاً، بروديك,لا تبتعد كثيرًا بعد ذلك، فلتعلمني بما يجري". ثم أدار لي ظهره وواصل سيره.

كان الصيادون وبعض عمال الغابة في قريتنا هم من نبهوني منذ أسبوعين. بالصدفة، وخلال غارات أولى، وأغصان مقطوعة، وروحات وغدوات، اكتشف الكثيرون ثعالب ميتة، صغيرة وكبيرة، ذكورًا وإناثًا. للوهلة الأولى، فكَّر كل منا في داء الكَلَب، الذي يأتي لبلادنا بشكل منتظم، يقتل قليلاً ثم يبتعد. لكن لم يظهر على أيٍّ من الحيوانات التي وُجدت ميْتةً أيٌّ من العلامات المميزة للمرض، اللسان المبيَض من اللعاب، النحول الشديد، العيون المقلوبة، الوبر الكابي والملتصق على شكل خصل. على العكس تمامًا، كانت في حالة جيدة، بل كانت تبدو في صحة تامة - بقَر بروشير الجزار ثلاثة منها بناءً على طلبي: كانت بطونها ممتلئة بكثير من

المأكولات، ببعض الروث، وأجزاء من الفئران والطيور والديدان الحمراء- ولم يبد أن موتهما كان نتيجة عُنف ما، لأن أجسامهما لم تكن تحمل أية جروح أو علامات قتال. لقد اندهش كل مَن وجد حيوانًا ميتًا بسبب هيئته: كان الحيوان راقدًا على جنبه أو حتى على ظهره، ممدد الأقدام نحو الأمام كأنه كان يحاول أن يُمسك بشيءٍ ما. كانت العيون مغمضة، ويبدو أنه ينام في سكينة.

كنت قد ذهبت - في مرة أولى - لأزور إرنست - بيتر ليمات، الذي كان أستاذي في المدرسة ,وأستاذ جيلين من تلاميذ القرية. كان قد تخطى الثمانين، ولم يعد يغادر منزله إلا نادرًا، لكن الزمن ينزلق على عقله، دون أن يخدشه أو يقضمه. يقضي معظم وقته على كرسي مرتفع أمام مدفأته, حيث تشتعل بشكل مستمر نارٌ يفوح منها أريج السحر وخشب الصنوبر ممتزجين. ينظر إلى اللهب، يعيد قراءة مكتبته، يدخن التبغ ويشوي أبو فروة الذي يقشره بأصابعه الطويلة الرشيقة. أعطاني حفنة، أكلناها - بعد أن نفخنا فيها - قطعًا صغيرة، نتذوق لحمها الدسم الساخن، بينما سترتي المبللة كانت تجف قُرب النار.

وإرنست - بيتر ليمات ,علاوة على أنه علَّم مئات الأطفال القراءة والكتابة، فهو أيضًا ,بلا شك,الصياد والعداء الأكبر في غابة قُطرنا. كان يستطيع - وهو مغمض العينين - أن يرسم كل غابة من غاباتنا، كل صخرة، كل قمة، كل جدول مائي، ويضعهما بلا خطأ على الخريطة.

في الماضي، كان يرحل مشيًا ما إن ينتهي من الدراسة، مفضلاً صحبة أشجار الصنوبر الضخمة، والطيور والينابيع - عن بُعد - على البشر. في فترة الصيد، كان يحدث أن يختفي أيامًا كاملة، عندما كانت تُغلق المدرسة، وكنا نراه عائدًا وعيناه تلتمعان باللذة، والكيس مملوء بديوك البرية، بطيور تُدرج، وطيور السمنة، أو يحمل على كتفيه أيلاً، إن لم يكن ظبيًا جبليًا كان قد قام بمطاردته حتى الصخور الوعرة بمنطقة "هورن"، التى تهشمت فيها عظام الكثيرين من صيادينا.

الأمر الأكثر غرابة هو أن ليمات لم يكن يأكل قط مما اصطاده. فقد كان يوزعه على مَن هم أكثر احتياجًا لصيده. فبفضله، وعندما كنت صغيرًا، استطعتُ أنا وفيدورين أن نأكل- من حين لآخر - شيئًا من اللحم. أما ليمات، فلم يكن يقتات إلا الخضراوات وبعض الحساء الخفيف، والبيض، وسمك الترواتية، وعش الغراب، مفضلاً ثمرة "بوق الموت"، التي أخبرني ذات يوم أنها ملكة عش الغراب، وأن شكلها الجنائزي لا يُستخدم إلا في إبعاد الحمقى، وتثبيط همة الجهلاء. كان منزله من الداخل مزينًا دائمًا. كان يُعلق - في كل مكان فيه - باقات من الزهور، التي ما إن تجف حتى تعطي للبيت رائحة العِرق سوس والسماد. لم يتزوج قط. كانت تعيش معه في المنزل خادمته مارجريت، التي تبلغ تقريبًا نفس عمره، مما جعل ألسنة السوء كثيرًا ما تقول إنها بلا شك تصنع له ما هو أكثر من غسل ملابسه وتلميع الموبيليا.

كنت قد حكيتُ له حكاية الثعالب التي اكتشفنا العديد من جثثها، وهيئتها الهادئة. أخذ يبحث جيدًا في ذاكرته، فلم يجد سوابق لذلك، لكنه وعدني بأنه سيغوص في كتبه وسيخبرني إذا ما توصل إلى شيء أو حالات مشابهة في مناطق أخرى غير منطقتنا، أو في زمن آخر. ثم جرى نقاشنا حول الشتاء الذي كان يقترب بخطى واسعة، عن الثلج الذي كان يمتد نحو قريتنا كل يوم، وينزل شيئًا فشيئًا نحو خواصر الجبال والوادي، والذي سيصل عما قريب إلى أبوابنا.

شأن كل العجائز، لم يكن ليمات موجودًا في نزل شلوس مساء "الإيرينيه". لكني كنت أتساءلُ عما إذا كان على دراية بكل ما حدث. وكنت أتساءل أيضًا عما إذا كان قد علم بوجود "لاندرير" في قريتنا أو أُخبر به. كنت أحب أن أحدثه عن ذلك، وأفرغ حقيبتي.

"أنا سعيد جدًا أنك لا تزال تتذكر أستاذك العجوز، يا بروديك، إن ذلك يؤثر فيَّ. أتذكُر عندما وصلتَ إلى الفصل؟ فأنا أذكر جيدًا. كنتَ تشبه كلبًا

نحيفًا، بعيون كبيرة جدًا. وكنت تتحدث بكلام ملتبس تفهمه أنت وفيدورين فحسب، لكنك تعلمت بسرعة، يا بروديك، بسرعة كبيرة، لغتنا وباقي الأشياء".

أتت مارجريت تحمل إلينا كأسين من نبيذ ساخن كانت تفوح منه رائحة الفلفل الأسود والبرتقال وزهر كبش القرنفل، وثمرة الباديان. زودت المدفأة بحطبتين ستبعثان في الظلام نجومًا ذهبيةً ثم تختفي.

"لم تكن كالآخرين، يا بروديك"، قال المعلم العجوز، "وأنا لا أقول ذلك لأنك لم تكن من قريتنا، لأنك كُنت قد أتيت من بعيد. أنت لم تكن كالآخرين لأنك كنت تنظر دائمًا إلى ما وراء الأشياء.. دائمًا ما كنت تريد أن ترى ما لم يكن موجودًا".

صمَت، وأخذ يأكل أبو فروة ببطء، ثم شرب جرعة نبيذ، وألقى بقشر أبو فروة في النار.

"يعاودني التفكير في ثعالبك. إنه حيوان غريب.. الثعلب، كما تعرف. نقول عنه إنه ماكر، لكنه في الحقيقة أكثر من ذلك. يكرهه الناس دائمًا، لأنه يشبههم إلى حدٍّ بعيد. يصطاد ليتغذَّى، لكنه قادر أيضًا على أن يقتل من أجل اللذة فحسب".

توقف ليمات برهة، ثم أكمل، حالمًا: "إنه يموت مثل البشر في هذه الآونة الأخيرة، في هذه الحرب، التي تعرفها للأسف أفضل من أي شخص آخر هنا. ربما لا تفعل الثعالب سوى تقليدنا. من يدري؟"

لم أجرؤ على أن أقول لأستاذي العجوز إنني لا أستطيع كتابة هذا النوع من الأشياء في تقريري. فهؤلاء الذين يقرأونني في الإدارة - لو أنهم ما يزالون يقرأونني - لن يفهموا شيئًا من ذلك، وربما سيظنون أنني قد جُننت، وسيرغبون في تجنبي تمامًا، وحينئذٍ، ستتوقف البضعة ملاليم التي أحصل عليها بشكل منتظم، والتي تجعلني أعيش.

بقيت في صحبته لبرهة. لم نعد نتحدث عن الثعالب، ولكن عن خشب الزان الذي كان بعض الحطابين قد قطعوه في منطقة بوزنتال، لأنه كان قد أصبح مريضًا، ولابد أن عمره - وفقًا لهم - يزيد على أربعة قرون. ذكَّرني ليمات بأنه في بيئات أخرى، وفي قارات بعيدة، كانت تنمو بعض الأشجار التي كانت يمكن أن تحيا لأكثر من ألفي عام. كان قد قال لي ذلك عندما كنت طفلاً. حينئذٍ، فكرت في أن الله، لو أنه ما يزال موجودًا، كان شخصية غريبة بالفعل، إذ اختار أن يترك أشجارًا تعيش في هدوء تام على مدى قرون، فيما يجعل حياة البشر بالغة القِصَر والقسوة.

في مرافقته لي حتى عتبته، بعد أن أهداني باقتين من زهور أبواق الموت، سألني إرنست - بيتر ليمات عن أخبار فيدورين، وبطريقة وقور ورقيقة عن إيمليا وبوبشيت.

لم يكن المطر قد توقف بالخارج. لكنه كان يمتزج الآن بنتف كثيفة من الثلج الذائب. وسط الشارع، كان جدول صغير ينساب، يجعل البلاط الرملي يلتمع، وكان الجو البارد يفوح برائحة الدخان، والطحلب، ونبات الحراج. دسستُ عش الغراب الجاف تحت سترتي وعدت إلى المنزل.

طرحت نفس السؤال الخاص بموت الثعالب على الأم بيتس. لم تكن ذاكرتها بأفضل من ذاكرة المعلم العجوز. ولا شك أنها لم تكن خبيرة مثله فيما يتعلق بالطريدة والأشياء الضارة، لكنها مسحت - سيرًا على الأقدام، وبكل معنًى - الطرق، والمراعي الجرداء، والدروب، عندما كانت تقود حيواناتها بالمراعي الجبلية، إلى حد أنني كنت أتمنى - إلى حدٍّ ما - أن تتمكن من توجيهي. بتجميع أقوال هؤلاء وأولئك، توصلتُ إلى عدد أربعة وعشرين ثعلبًا وجُدِتْ مقتولةً، وهو رقم كبير حين نفكر فيه. للأسف، لم تكن تتذكر أنها سمعت أحدًا يتكلم عن مثل هذه الظاهرة، وأدركتُ بشكل قاطع أن هذا الأمر لم يكن يعنيها.

"فلتمت جميعًا، سيسعدني ذلك! ففي السنة الماضية أخذت مني ثلاث دجاجات وكتاكيتهما. لم تأكلها بالتأكيد، إلا أنهما مزقتها ثم رحلت. ثعالبك بمثابة "شيتسنجتسزون" (أبناء ملاعين)، لا تساوى حتى حد السكين التي ستذبحها".

قطعَت المحادثة معي بدخول فريدا نيجيل، وهى حدباء بعيون تشبه طائر العقعق، تفوح دائما برائحة الإسطبل، وتحب أن تستعرض معها الأرامل من الرجال والنساء في القرية والضِّياع القريبة ,حيث تتخيلان لهم زيجات جديدة ممكنة. أخذتا في تسجيل الأسماء على قصاصات من أوراق الكارتون، ولعدة ساعات- كما لو كانتا تلعبان الورق- تجمعانهم أمامهما بشكل زوجي، وتُقدران الأعراس والمصائر المرتقبة، وهما تشربان بعض الكؤوس الصغيرة من عصير التوت، كلما مر الوقت وازدادت إثارة الاثنتين جراء هذه اللعبة. أفهم أني كنت أزعجهم.

أختم بأن الوحيد الذي ربما كان يستطيع أن يوجهني قليلاً هو ماركوس سترِن، الذي كان يعيش على بُعد ساعة سيرًا على الأقدام من قريتنا، وحيدًا وسط الغابة. كان هو من كنتُ أتوجه إليه في الصباح الذي قابلتُ فيه أورشفير.

ـ ١٣ ـ

يصعد الدرب المؤدي إلى كوخ ستيرن بوعورة بمجرد الخروج من القرية. في قليل من الوقت، وعبر بعض الطرق المتعرجة التي تمر في غابة كثيفة الأوراق، نجد أنفسنا نطل على السقوف. في منتصف الطريق، ثمة صخرة على شكل منضدة، تدعو للتوقف. نسميها "لينجن"، وهو اسم نطلقه في لغتنا المحلية على صغار جنيات الغابة، التي تأتي لترقص هنا في الليالي المضيئة، وتنشد أغانيها التي تشبه ضحكات مخنوقة. في عدة أماكن، ثمة وسائد من الطحلب الأخضر اللبني تتلاشى صلابتها ,وتشكل مجموعةٌ من الخلينجيات باقات من الزهور. بقعةٌ رائعة للمحبين والحالمين. أذكر أنني رأيت "لاندرير" هناك. في أحد أيام الصيف الشديدة، ٨ يوليه - فأنا أدون كل شيء - نحو الثالثة بعد الظهر، أي ساعة السعير، حيث الشمس - التي يبدو أنها أوقفت ركضها في السماء - تصب رصاصًا مصهورًا على العالم. ذهبت لأجمع بعض ثمار توت العليق المشغوفة بها صغيرتي بوبشيت. كنت أود أن أعد لها هذه المفاجأة، فيما كانت تقضي قيلولتها.

كانت الغابة كلها تطن بعمل النحل وطيران الدبابير وصيحات الذباب، وذباب النُعرة، التي كانت تتحرك في كل الجهات كأنها جُنت فجأة.

سيمفونيةٌ عظيمة كان يبدو أنها تتدفق من الأرض والفضاء. لم أقابل في القرية أية روح حية.

أنهك المنحدر الجبلي الصغير قدميَّ ونفَسي. أصبح قميصي مبللاً ولزجًا، وملتصقًا بجلدي. توقفتُ على الطريق لألتقط أنفاسي، حينئذٍ أدركت أنه - على بعد عدة أمتار، على الصخرة، فيما أدير ظهري وأتأمل سقوف القرية - كان هناك "لاندرير". كان يجلس على مقعده الغريب الذي حيَّر الجميع، عندما رأيناه يخرجه للمرة الأولى؛ مقعد يُطوَى ويُفرد، وكان ضخمًا بما يكفي ليتحمل ردفيه العريضين، لكنه حين يلمه كان يشبه عصا صغيرة.

عبر المنظر شديد الإخضرار والصفرة المضيئة، وبلباسه الأسود، تلك السترة الخالدة المصنوعة من الجوخ والمكوية بشكل رائع، كان يرمي بظل متحرك. باقترابي قليلاً منه ,لاحظتُ أنه يرتدي أيضًا قميصه المزركش، وصدريته الصوف، ولفافات على حذائه الضخم الملتمع، الذى كان يرسل ضوءًا كألق مرآة.

احتكت قدماي ببعض الأغصان فالتفت وراءه.

لمحني. لا شك أنني كنت على هيئة لص، لكنه لم يبد مندهشًا، وابتسم لي، رافعًا يده اليمنى بقبعة خيالية لتحيتي. كانت وجنتاه شديدتي التورد، وباقي وجهه - الجبهة، الذقن، الأنف - مغطًى بدهان من السيبداج. وكانت خُصل شعره السوداء، المنثورة على جانبي رأسه الأصلع، تمنحه سيماء ممثل عجوز. كانت قطراتٌ كبيرة من العرق تسيل على وجهه، فيجففها بمنديل مزخرف بأحرف متشابكة غير مقروءة.

"لا شك أنك أيضًا قد أتيت هنا لتقيس العالم؟"؛ قال لي ذلك بصوته الرائع الناعم والرخيم، وهو يصاحب جملته هذه بإشارة من يده إلى اتساع المنظر. حينئذٍ لاحظت أن على ركبتيه الضخمتين الممتلئتين، كان يضع

مفكرته، فيما كان يمسك بيده قلمًا من الرصاص. في صفحة المفكرة كان ثمة بعض الخطوط، والسطور، والأجزاء المظللة. عندما أدرك أنني كنت أنظر فيها، أغلقها.

هي المرة الأولى التي أكون فيها بمفردي معه، منذ أن وصل إلى قريتنا، وكانت المرة الأولى التي يوجه لي فيها كلامًا.

"أتتكرم عليَّ وتؤدي لى خدمة؟ طلبًا؟"، قال، وبما أنني لم أرُد بشيء، وانغلق وجهي قليلاً، فقد كرر ذلك بابتسامته السحرية، التي لم تكن تفارقه قط: هدئ من روعك، فأنا أود بكل بساطة أن تُسمي لي كل هذه المرتفعات التي تحيط بالوادي. فأنا أخشى ألا تكون خرائطي دقيقة".

وإذ صاحبت كلماته حركةٌ كبيرة من يده، أشار ,مرتجفًا بسبب إنهاكه في هذا اليوم الصيفي، إلى التلال التي تتقطع عن بُعد، ممتزجةً تقريبًا في بعض المواضع مع السماء التي كان يبدو أنها تريد صهرها. اقتربتُ منه, وجثوت علي ركبتي حتي أصبح في مستواه، ثم بدأت من الشرق أعدد له الأسماء:

"هذا مرتفع هانتربيتس، ندعوه هكذا لأنه علي شاكلة رأس كلب,ثم مرتفعات شنيكليكاوبف الثلاثة، ثم مرتفع برونددربيتس، قمة هورني، رأس جبل هورني، وهي القمة الأكثر ارتفاعًا، ممر جبل دورا، قمة فلوريا، وأخيرًا في الغرب تمامًا، قمة نتوء موزن، بشكلها الذي يتخذ هيئة رجل مُنحنٍ تحت ثقل".

سكتُ، كان يقوم بكتابة الأسماء في مفكرته التي أخرجها من جيبه، وسرعان ما أدخلها مرةً أخرى.

"أشكرك بلا حدود"، وشد على يدي بحرارة، فيما في عينيه الجاحظتين والخضراوين كان يلتمع بريق من الرضا، كما لو كنت قد أهديته كنزًا. كنت على وشك أن أتركه عندما أضاف:

"قيل لي إنك مهتم بالزهور، بالأعشاب، نحن متشابهان. فأنا مغرمٌ بالمناظر الطبيعية، بالوجوه والصورالشخصية. عيبٌ بريء، مع ذلك. وقد أحضرتُ معي أعمالا نادرة إلى حد أنك لابد ستُشغف بها. وسيسعدني أن أطلعك عليها إذا منحتني شرف زيارتي ذات يوم".

أومأت بإشارة بسيطة من رأسي، لكنني لم أجب بشيء. لم أسمعه أيضًا قط يتحدث هكذا. رحلت وتركته على الصخرة.

"هل أعطيته كل الأسماء!؟"؛ كان فيلهم فورتينهو يرفع يده نحو السماء، وهو يرمينى بنظرةٍ ما. دخل محل خردوات جوستاف روبل فيما كنتُ أحكي مقابلتي مع "لاندرير"، بعد عدة ساعات من حدوثها. كان جوستاف صديقي. كنا أنا وهو نجلس على نفس المقعد في المدرسة، جنبًا إلى جنب، وكثيرًا ما كنت أسمح له بأن يقرأ من كراساتي إجابات المسائل، فيما كان يعطيني بالمقابل بعض المسامير منزوعة الرأس، والقليل من الحبال التي كان يستطيع نشلها من المحل الذي كان يديره أبوه في هذه الفترة. كتبت أن جوستاف كان صديقًا، لأنني اليوم لم أعد أعرف. لقد كان مع الآخرين في "الإيرينيه". وقد اقترف ما لا يمكن إصلاحه! ومنذ ذلك الحين، لم يوجه لي كلمة واحدة، فيما كنا نتقابل كل أحد بعد القداس، في فناء الكنيسة، حيث الأب بيبر - مترنحًا ومُحمَر الوجه - يصحب رعيته قبل أن يباركها مرةً أخيرة بحركات غير مكتملة. لم أعد أجرؤ على أن أدفع باب دكانه. أصبح لديَّ خوف كبير من أن ما بيننا لم يعد سوى هوة كبيرة.

قلت من قبل إنني أعتقد أن فورتينهو ثري جدًا، بل أيضًا شديد الحُمق. ضرب على ماكينة حساب روبل، مما جعل علبة مسامير تتدحرج.

"ولكن، هل تدرك ما فعلته، يا بروديك، لقد أعطيته كل أسماء جبالنا، وتقول إنه دونها!"

كان فورتينهو خارج منزله. وأذناه الضخمتان، بلونهما البنفسجي الداكن، تبدوان كأنهما قد ضُخ فيهما كل دم جسمه. أشرتُ له إلى أن

أسماء الجبال لم تكن سرًا، وأن الجميع يعرفونها، يعلمونها، ومن الممكن العثور عليها في وثائق، إلا أن ذلك لم يهدئه.

"أنت لم تفكر في ما يمكر فيه ,في تطفله في كل مكان كما يفعل، في طرح أسئلة لا تكشف عما يضمره، برأسه الذي يشبه سمك الشبوط، وطريقته المتكلفة ,وهو الذي أتى من المجهول!"

كررتُ ما قاله لي "لاندرير"، بخصوص المناظر الطبيعية، والوجوه، لأهدئ فورتينهو قليلاً، لكن ذلك لم يزده إلا غضبًا. ترك محل البقالة مُلقيًا بجملة بدت لي - في ذلك الحين - بلا أدنى أهمية، فيما ألحظ اليوم فيها كل ما كان يدور من تهديد:

"لا تنس أنه سيكون خطأك، يا بروديك، لو أن شيئًا ما حدث!"

ثم صفع الباب. نظر كلٌّ منا إلى الآخر، جوستاف وأنا، ورفعنا أكتافنا في نفس الوقت، وضحكنا من أعماق قلبينا، كما كنا نفعل من قبل، في طفولتنا.

ـ ١٤ ـ

احتجتُ إلى ساعتين تقريبًا لأصل إلى كوخ ستيرن، فيما- في الوقت العادي- تكفي ساعة واحدة. لكن لم يتحسب أحدٌ لعقبة وسُمك الجليد، الذي ما إن تجاوزت حد الأوراق الكثيفة، لأدخل بعد ذلك أحراج الأرز الكبيرة، حتى غُصت فيه إلى ركبتي. كانت الغابة صامتة. لم أكن أرى أي حيوان، أو أي طائر. لم أكن أسمع فيها إلا هدير نهر ستوبي الذي تساقط مياهه من نحو مئتي متر لأسفل في زاوية واضحة بما يكفي لتتحطم على الصخور الضخمة.

عندما مررتُ بالقرب من "لانجن"، حِدتُ بنظري ولم أتوقف. بل إنني أسرعتُ في مشيتي ودخل الهواء البارد إلي أعماق رئتي كما لو أنه سيجففها. كان يتملكني خوف شديد من رؤية شبح "لاندرير"، على نفس هيئته السابقة، على مقعده الصغير، في مواجهة الطبيعة، أو وهو آنذاك يمد إليَّ ذراعيه متوسلاً. ولكن أي شيء يتوسل مني؟

حتي لو كنت في النُّزل في المساء الذي جُن فيه الجميع، فماذا كنت أستطيع أن أفعل بمفردي تمامًا؟ فأقل كلمة من كلماتي وأقل حركة مني كانت ستقرر مصيري، وألقى نفس مصيره. ذلك أيضًا هو ما أصابني

بالرعب: معرفة أني لو كنت في النُّزل، لما استطعت أن أفعل شيئًا لمنع ما حدث، وكان لي أن أفعل أقل شيء ممكن، ولكنتُ حضرتُ هذا المشهد المرعب عاجزًا. هذا التخاذل، وإن لم يكن قد حدث، كان يثير اشمئزازي. في الحقيقة ,كنتُ مثل الآخرين، مثل كل هؤلاء الذين يحيطون بي، والذين حملوني مهمة هذا التقرير الذي يأملون في أن يبرئهم.

يقيم سترن خارج العالم، أعني خارج قريتنا. وكل آل سترن عاشوا مثله، دائمًا، وسط الغابة، ولم يرتبطوا مع القرية إلا ببعض العلاقات الواهية. لكنه الأخير في عائلة سترن. وحيد. بلا امرأة ولا أطفال. وكل شيء سيموت بعده.

يعتاش على الجلود التي يدبغها. ينزل إلى القرية مرتين في الشتاء، وأكثر قليلاً في نهاية الربيع والصيف. يبيع الفراء وأيضًا أشياء أخرى يصنعها من أغصان وجذوع شجر الصنوبر. كان يشتري، بما يجمعه من نقود، الدَّقيق، وحقيبة من البطاطس، وفولاً جافًا، وتبغًا، وسُكرًا وملحًا. وإذا ما تبقَّى لديه منها شيء، يشرب بها العَرَق، ويصعد في النهاية ثملاً إلى كوخه. لا يضل أبدًا. فقدماه تعرفان الطريق.

عندما وصلتُ إلى كوخه، وجدته على العتبة، مشغولاً بربط بعض الأغصان المقطوعة ليصنع منها مكنسة. قمت بتحيته. رد عليَّ بإشارة من رأسه، بلا كلمة. دائمًا ما يرتاب في زائريه. ثم دخل الكوخ تاركًا الباب مفتوحًا.

تتدلى من أعمدة الكوخ أشياء كانت قد قاربت على الجفاف، حيوانات، خضراوات، ومن ثم تمتزج الروائح النفاذة والحادة ولا إفلات منها. كانت نار المدفأة تلقي بألسنة لهب ضئيلة وبائسة وكثيرًا من الدخان. غمر سترن مغرفةً في قِدر وملأها مرتين بالحساء الدسم الذي كان بلا شك قد طُهي على مهل منذ الصباح، حساء منقوع الحبوب وثمرة القسطل. بعد ذلك، قطع شريحتين كبيرتين من الخبز الجاف، وسكب نبيذًا داكنًا في كأسين.

جلس كل منا قبالة الآخر، ثم أكلنا في صمت، وسط هذه النتن الناتج عن الجيف التي تجعل الكثيرين يهربون منه. لكني كنت أعرف رائحة النتن. ولم تكن تضايقني. فقد عرفت الأسوأ.

فبعد "البوكسيت"، وقبل أن أصبح "الكلب بروديك"، في المعسكر,كنت- ولمدة شهور طوال- "رجل البراز". كانت مهمتي القيام بإفراغ المراحيض، التي ترتاح فوقها بطون أكثر من ألف سجين,ولمرات عديدة يوميًا. كانت المراحيض حفرةً كبيرةً بعمق متر وعرض مترين وطول أربعة أمتار تقريبًا. كانت هناك خمسة مراحيض عليَّ أن أنظفها بعناية. ولذلك لم أُعد إلا إناءً كبيرًا مربوطًا بيد خشبية، ودلوين كبيرين من الصفيح. كنت أملأ الدلوين بالإناء، ثم، تحت الحراسة، أقوم بالرواح والغدو حتى النهر حيث كنت أفرغهما.

كثيرًا ما كان الإناء - الذي لم يكن يتوافر على ذراع إلا بفضل خيوط قديمة - ينفصل ويسقط في القاع. ويكون عليَّ أن أنزل في الحفرة وأبحث بيديَّ، بغمسهما في كتلة القاذورات. في المرات الأولى، أتذكر أني تقيأتُ كل أمعائي والقليل الذي كانت تحتويه. ثم اعتدتُ على ذلك. نحن نعتاد على كل شيء. وهناك ما هو أسوأ من رائحة البراز. هناك الكثير من الأشياء بلا رائحة، لكنها تنخر الحواس، القلب، والروح، بأكثر- بكل تأكيد - من كل البراز.

كان الحارسان اللذان يصحبانني يسدان أنفيهما بمنديل مخضب بالعرقي. كانا يقفان على بعد عدة أمتار مني يحكيان قصصًا نسائية، تتناثر بها تفاصيل إباحية تجعلهما يضحكان ويحمر وجهاهما. كنت أنزل النهر. أُفرغ الدلوين. ودائمًا ما كنت أندهش من جنون مئات أسماك البلعوط التي كانت تأتي إلي الدوامة السوداء للتمرغ فيها، وهى تحرك أجسامهما الفضية الصغيرة في كل اتجاه، كأنها جُنت بالغذاء النتن. ولكن التيار المائي السريع للغاية كان يقلل من القاذورات ولا يبقى إلا الماء

الصافي وحركة الطحالب، وكذلك انعكاس أشعة الشمس التي كانت تضرب سطح الماء كما لو كانت تريد أن تغرس فيه قطع وشظايا المرآة.

في بعض الأحيان، كان الحراس المخدَّرون بسُكرهم يتركونني أغتسل في المجري المائي. كنت آخذ حصاة ملساء مستديرة، وأستخدمها كصابونة، داعكًا جسمي لأزيل عنه البراز والوسخ. وكان يحدث أحيانًا أن أستطيع التقاط بعض صغار السمك التي لا تزال تلتطم بساقي، ربما طمعًا في جراية أخرى. بإصبعين، كنت أضغط على بطنها لأخرج منها أمعاءها وأضعها بسرعة في فمي قبل أن يسمح الوقت للحارسين برؤيتي. كان ممنوعًا علينا - مع التهديد بالموت - أن نأكل شيئًا آخر غير الحساء العفن الذي كان يُقدم لنا كل مساء ومكعب الخبز الجاف والخشن في الصباح. كنت ألوكها طويلاً، هذه الأسماك، مثل حلوى لذيذة.

في هذه الفترة، لم تكن لتبرحني رائحة البراز. كانت ردائي الوحيد والحقيقي. وفي أثناء الليل، في المعسكرات، كان لديَّ - نتيجةً لهذا - مكانٌ إضافي للنوم، لأن ما من أحد كان يريد النوم بجانبي. هكذا يصنع الإنسان ما يجعله يعتقد أنه روح محض، صانع للأفكار، للخيالات، للأحلام وللمعجزات. ولا يحب أن يتذكر أنه أيضًا كائن مادي، وأن ما ينساب من بين ردفيه هو ما يشكله، شأنه شأن ما يدور وينبت في عقله.

نظف سترن قصعته بقطعة خبز، ثم بصفير قصير، أخرج من مكانٍ ما كائنًا صغيرًا: ابن مقرض، كائن مستأنس، كان بصحبته ويأتي ليأكل من يديه. كان هذا الحيوان - وهو يأكل بلذة عارمة - يرمقني بنظرة غريبة من حين لآخر، وعيناه المستديرتان اللامعتان تشبهان لؤلؤتين سوداوين أو ثمرتي توت. بدأت أحكي لستيرن كل ما كنت أعرفه بخصوص الثعالب. أخبرته أيضًا بزيارتي لليمات وللأم بيتس.

نهض بتمهل، اختفي في غبشة داخل الحجرة، ثم عاد ووضع علي المنضدة الكبيرة جلودًا جميلة صهباء اللون، مربوطة ببعضها البعض بخيط من القنب.

"إلى كل ثعالبك، يمكنك أن تضيف أيضًا هؤلاء الثلاثة عشر. لم أكن بحاجة لقتلها. وجدتها ميتة، كلهم في نفس الموضع الذي ذكرتَه".

أخذ سترن الغليون وحشاه بتبغ مقطع من أوراق شجرة الكستناء، فيما كنت أمرر يدي على الفراء الذي كان متألقًا وكثيفًا. ثم سألته عما يعني كل ذلك حقًا. رفع كتفيه، وهو ينشق غليونه الذي أصدر موسيقى خشخشة، وأطلق نحوى أبخرة قوية جعلتني أسعل.

"لا أعرف شيئًا، يا بروديك، لا أدري شيئًا من ذلك. الثعالب، لا أعرف ما في رؤوسها"

صمَت، وداعب حيوانه ابن مقرض، الذي بدأ يلتف حول ذراعه ويطلق تأوهات خافتة.

"لا أعرف شيئًا عن الثعالب"، بدأ حديثه، "لكني أتذكر أن الجد سترن كان يتحدث عن الذئاب. كان لا يزال يوجد منها في عصره. اليوم عندما أرى أحدها، يكون ضالاً أتى من بعيد، إن لم يكن شبح ذئب. ذات مرة حكى العجوز سترن قصة قطيع، قطيع جميل حسب رأيه، وصل عدده لأكثر من عشرين حيوانًا. كان يسعد بمراقبتها، يقوم بمطاردتها ببساطة تقريبًا ليهيج أعصابها. ثم ذات يوم لم يعد لها وجود. لم يعد يسمعها ولم يعد يراها. قال لنفسه إنها انزعجت من لعبته الصغيرة بما يكفي لترحل إلى الجانب الآخر من الجبال. يمضي الشتاء. شتاء طويل مليء بالثلج. ثم يعود الربيع. طاف بالغابة، كأنه يفتشها، في سفح صخرة موليتول الضخمة، ماذا وجد؟ بقايا كل القطيع وقد أوشكت على التحلل. كانت كلها، الكبار، الصغار، الإناث، والذكور، ورؤوسهم مهشمة. الذئب لا يقع من فوق صخرة، أحيانًا يقع واحدٌ، حين يفاجئه الفراغ أو ينزلق، أو تقع عليه صخرة. لكن ليس قطيعًا بالكامل". صمت ستيرن ونظر مباشرةً في عينيّ.

- "أتعني أنها كانت قد ذهبت للموت من تلقاء نفسها؟"

- "أقول ما سمعته من فم العجوز ستيرن، هذا كل شيء".

- "ولكن بالنسبة للثعالب؟"

حك ستيرن في شعره.

- "الذئاب، الثعالب، إنهما أولاد عم وصحبة. ربما ليس هناك إلا البشر الذين يبالغون في التفكير".

أشعل ستيرن غليونه الذي كان قد قارب على الانطفاء، أخذ ابن مقرض الصغير الذي كان يحاول الآن أن يدخل تحت سترته، وملأ كأسينا بالنبيذ.

ساد بيننا صمتٌ طويل. لم أعرف فيم كان يفكر ستيرن، لكني كنت أحاول الدمج بين ما كان قد حكاه لي وما قاله لي العجوز ليمات، لكنني لم أتوصل إلى أي شيء، أي شيء واضح، أي شيء كان يمكنني أن أكتبه في تقريري ويمكن أن يقبله موظف شلوس، دون قلق ودون أن يرمي به في المدفأة.

كانت النار تخمد. ألقمها ستيرن بعض حِزم نبات الوزال الجاف. كنا ما نزال نتحدث، وربما لمدة ساعة، عن فصول السنة وعن الشتاء، عن الطريدة، عن الأغصان المقطوعة، بعيداً عن الثعالب. ثم عندما بدأ النهار في الزوال، وكنت أريد العودة قبل الليل، استأذنت ستيرن الذي رافقني إلى الخارج. كانت الرياح قد اشتدت، وكانت تدعك قمم أشجار الصنوبر الضخمة. نزل الثلج، في شكل ركام كبير، لكن العواصف كانت تهشمه إلى مسحوق ناعم راح يغطي أكتافنا برماد أبيض ثلجي. صافح كلٌّ منا الآخر، وهنا سألني ستيرن:

- "ألا يزال "جيفيشور" في القرية؟"

كنت على وشك أن أسأل ستيرن عمَّن يتحدث، ثم تذكرت أن البعض كانوا قد أطلقوا على "لاندرير" أيضًا اسم: "الجيفيشور"- "العالِم"- ربما

لأن هيئته كانت توحي بذلك. لم أرُد في الحال، وشعرت فجأةً بالبرد. وفكرت أن ستيرن إذا ما كان يطرح عليَّ السؤال، فذلك لأنه لم يكن يعلم شيئًا، عن أمسية "الإيرينيه" الشهيرة,ولم يكن في النُّزل. إذن، فعلى الأقل نحن الإثنين لم تتلطخ أيدينا بالدم. لم أكن أعرف ماذا أقول له!

- "رحل..."

- "إذن انتظر". قال ستيرن، ثم دخل كوخه. خرج منه بعد عدة ثوان، وفي يده صُرة أعطاها لي.

- لقد طلب مني ذلك. إنها مدفوعة الثمن. إن لم يعد قط فتستطيع أن تحتفظ بها لنفسك".

كانت قلنسوةً ما، وزوجًا من القفازات، وخُفًا. وكلها مصنوعة من فراء السمور الثمين. والمعالج جيدًا، والمحاك جيدًا أيضًا. ترددتُ ثم انتهيت إلى وضع الصُّرة تحت ذراعي. في هذه اللحظة، قال لي ستيرن، وهو ينظر مباشرةً في عيني:

"تعرف، الثعالب,يا بروديك,أعتقد أنه لم يعد يوجد منها شيء. كلها ماتت. ولن يوجد منها أبداً".

وبما أنني لم أكن لأجيب بشيء، لأني لم أكن أعرف بماذا أجيب، فقد صافحني دون أن ينطق بكلمة، وبعد عدة ثوان من التردد,انطلقتُ في طريقي.

ـ ١٥ ـ

قلتُ – من قبل – إنه في لحظة وصوله، وعندما عبر "لاندرير" الباب السري مع مُعداته، كان الليل يزحف. كقط يرقب فأرًا ,وهو متأكدٌ أنه عما قريب سيمسك به من شواربه.

هي لحظة غريبة. الشوارع خالية، الغبش ينساب فيها عبر برودة متدرجة، والمنازل تصبح ظلالاً مثيرة مليئة بالوعيد والأشياء المضمرة. غريبةٌ هي سلطة الليل التي تغير الأشياء الأكثر أُلفة والوجوه الأكثر بساطة. فضلاً عن ذلك، فأحيانًا ما لا يغيرها بل يكشفها، كأنه في تغطيته الطبيعة والكائنات بالظلام كان يستخرج منها الطبيعة الحقيقية. كان يمكن أن تسخروا من كل ما أقوله، وتعتقدوا أني أصف مخاوف من زمن آخر، أو أبتكر روايةً ما. لكن قبل أن تحكموا أو تُدينوا، لابد من تخيل المشهد، فهذا الرجل أتى من المجهول- لأنه بالفعل كان قد أتى من المجهول، كما قال فورتينهو, الذي أحيانًا ما يذكر، وسط ركام حماقاته، بعض الحقائق- بملابسه التي تنتمي إلى شخصية من قرن آخر، ودوابه العجيبة، وحقائبه الضخمة- ليدخل قريتنا التي لم يكن هناك مَن دخلها منذ سنوات، هكذا، وببساطة، وبهذا الشكل الطبيعي جدًا. إذن، فمَن ذا الذي لن يشعر ببعض الخوف؟

- "أنا، لم ينتبني خوف".

إنه غلام دورفِر، ابنه الأكبر، الذي يجيب على أسئلتي. فهو أول من رأى "لاندرير" عندما وصل.

دار حوارنا في مقهى بيبرزهيم. ووالده هو مَن حرص على أن تتم هذه المحادثة هنا بدلاً من البيت. لابد أنه قال لنفسه إنه يمكنه أن يشرب بعض النبيذ بهدوء. جوستاف دورفر كائن كدِر صغير، دائمًا ملفوف في ملابس قذرة تفوح منها رائحة الشلجم الناضج. يؤجر نفسه في المزارع، وعندما يحصل على بضعة ملاليم يشرب بها. يبلغ وزن زوجته ضعفه، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يضربها ضربًا مبرحًا أثناء سُكره، بعد أن يدمر المنزل ويهشم بعض الأواني. أنجبت له خمسة أطفال، بائسين ومحزونين. الكبير يُدعى هانز.

- "وماذا قال لك؟"؛ ينظرالغلام إلى أبيه كأنه يطلب منه الإذن ليجيب، لكنه يسخر منه. لا عين له إلا على كأسه الفارغة، التي يتأملها وهو يحتضنها بين يديه بحزن أليم. أشرتُ إلى بيبرشيم، الذي يراقبنا من خلف ماكينة الحساب بأن يقدم له كأس نبيذ أخرى. ينتزع من فمه عود الخلة الذي يمصه بلا توقف، تجعل من لثته متهدلة كعرف ديك ودامية أيضًا، وكذلك كريهة الرائحة، ويمسك بزجاجة ويعيد ملء الكأس. أشرق وجه الأب قليلاً.

"سألني عن الطريق المؤدي إلى نُزل شلوس".

- أكان يعرفه بالاسم، أم أنك أنت الذي قلته له؟

- كان يعرفه.

- حينئذ، ماذا قلت له؟

- شرحتُ له كيفية الذهاب إليه.

- وماذا فعل؟

- دوَّن ما قلتُه في مفكرته الصغيرة.

- وبعد؟

- بعد ذلك، أعطاني أربع كرات جميلة من العاج، كان قد سحبها من إحدى الحقائب، وهو يقول : "جزاء لك".

- جزاء لك؟

- نعم، لم أفهم شيئًا، فما يقوله ليس ما يقال عندنا.

- والكرات، ألا تزال معك؟

- بيتر لولي ربحها مني. إنها قوية ولديه منها الكثير في حقيبة كاملة".

لم يكن جوستاف دورفر يسمعنا. كانت عيناه مسمرتين على منسوب كأسه الذي كان قد انخفض بسرعة كبيرة. غطس الصبي برأسه بين كتفيه. كانت هناك آثار للطمات على جبينه، وندوب صغيرة، وقشور جروح، وتورمات، بعضها قديم وبعضها حديث جدًا، ونظرته - عندما كان يتصادف أن تتلاقى النظرات أو تعلق ببعضها البعض قليلاً- تنبئ عن الضربات والمعاناة، وكمية الإصابات التي كان ينالها كل يوم بعنف ثابت.

فكرتُ - مرةً أخرى - في المفكرة التي كنت قد رأيتها في يد "لاندرير"، والتى يُدوِّن فيها كل شيء، على سبيل المثال الطريق المؤدية إلى النُّزل، الذي لم يكن يقع إلا على بُعد ستين مترًا من مكانه الذي كان موجودًا به. وكلما كانت إقامته تمتد فيما بيننا، كانت قصة المفكرة تبدأ في الدوران في رأس هؤلاء وأولئك، التي تبدو في السَّفَر هوسًا غريبًا- يخرجها لمجرد كلمة نعم أو لا - عادة مستهجنة وغريبة كانت إما تصنع ابتسامةً أو تصنع ثرثرة، وسرعان ما تصبح مادة لمناقشات حادة.

أتذكر - على نحو خاص - محادثةً مفاجئة في يوم السوق، الثالث من أغسطس، حين كان ينتهي ولم يعد باقيًا منه إلا بعض الخضر التالفة،

والقش القذر، وبعض بقايا الحبال، وشظايا الأقفاص، وكل الأشياء عديمة القيمة التى كان يبدو أنها تُركت هنا بمَد غير مرئي.

تحب بوبشيت السوق كثيرًا، ولذلك أصطحبها تقريبًا كل أسبوع. صغار الحيوانات الموضوعة في أقفاص، الجداء، الأرانب، الدجاج، وصغار البط تدفعها إلى التصفيق والضحك. وبعد ذلك هناك الروائح التي تهز أنفها الرقيق، الفطائر، والمقليات، والنبيذ الساخن، أبو فروة، اللحوم المشوية، والأصوات أيضًا، أصوات كل شيء وكل الناس، تختلط ببعضها كأنها في حوض كبير، الصياح، النداءات، ثرثرة الباعة الجائلين، نداءات الباعة بصور القديسين، والغضب الزائف الذي يحيط بالمساومة. لكن ما تفضله بوبشيت هو عندما يأتى فيكتور هيديكريش بآلة الأكورديون، ويبدأ بإطلاق نغماته في الفضاء، لتبدو أحيانًا كأنين وأحيانًا أخرى كصيحات فرح. نعد له مكانًا، نحيط به، وفجأةً تبدأ جلبة السوق في التلاشي كما لو كان كلٌّ منا إنما كان في انتظار الموسيقى، التي كانت تصبح- في هذه اللحظة- أهم من كل شىء.

يوجد فيكتور في كل الاحتفالات وحفلات الزواج. هو الوحيد في قريتنا الذي يعزف الموسيقى، والوحيد أيضًا الذي يمتلك آلة تعمل. أعتقد فعلاً أن هناك بيانو في الصالة الصغيرة في نُزل شلوس، في الصالة التي يجتمع فيها "الأوريكنز برودشايف"، وربما أيضا آلات نحاسية - فقد أكد لي ديودم ذلك، وبأنه رآها ذات يوم حيث قال لي إن الباب لم يكن مغلقًا تمامًا، كأني قد ضايقته عندما قلت له إنه على علم تام، ويبدو أنه يعرف الغرفة جيدًا، وربما في الحقيقة يمثل جزءًا من هذه الصحبة، فاغتم وطالبني بالسكوت. إن أكورديون فيكتور وصوته يمثلان- إلى حدٍّ ما- ذاكرتنا أيضًا. في ذلك اليوم، دفع النساء إلى البكاء، وعيون الرجال إلى الاحمرار، وهو يترنم بـ"أنين يوهاني" . إنها أغنية الحب والموت، التي تلاشى أصلها عبر الزمن,وتحكي عن بؤس فتاة تحب، لكنها لم تلق الحب في

المقابل، وبدلاً من أن ترى مَن تسبب في تحطيم قلبها وهو في ذراع امرأة أخرى، فضلت أن تدخل نهر ستوبي، في يوم شتاء، في لحظة الغسق، وتنام إلى الأبد في الماء البارد الجاري.

When de abend gekomm johanni schlafft en de wasser
Als besser sein en de todt dass alien immer verden
De hertz is a schotke freige who neiman geker
Und ubche madchen kann genug de kusse kaltenen

حندما حل المساء استلقى يوهان في الماء
واعتبر ذلك أفضل من الموت لأنه دائمًا يحيش وحيدًا
فالقلب منصدمٌ ولا يجد ما يسعده
لكن الفتيات استطعن تقبيله بالفعل(*).

أحيانًا ما ترافقني إيمليا. أمسكها من يدها. أقودها. تستسلم لي، وعيناها تنظران إلى كل الأشياء التي تستطيع هي وحدها أن تراها. في يوم هذه المحادثة التي أود أن أخبركم بها، كانت تجلس إلى يساري وتدندن أغنيتها، وهي تهز رأسها إلى الأمام والخلف بإيقاع ناعم. وكانت بوبشيت إلى يميني تمضغ النقانق التي كنت قد اشتريتها لها. كنا نجلس قبالة العمود الأكبر لسوق الخضار. أمامنا، وعلى بعد بضعة أمتار، كانت العجوز روزفيلدا كلوجينجال، نصف المجنونة ونصف المتشردة، تقلب في القمامة بحثًا عن الخضر وسقط الذبائح. وجدت جزرةً مبتورة، رفعتها أمامها لتفحصها ,وبدأت تتكلم إليها كأن بينهما معرفة قديمة. هي اللحظة التي ارتفعت فيها الأصوات خلف العمود. أصوات أعرفها مباشرة.

كان هناك أربعة رجال: إيميل دورشا، عامل بالغابة؛ لودفيج بيفملينج، صبي إسطبل؛ بيرن فوجل، سمكري؛ كاسبر هوسورن، كاتب في دار

(*) قدم المؤلف النص السابق كما هو، دون أن يقدم ترجمة فرنسية له. والترجمة العربية تمت عن النص مباشرة. وقد كتب المؤلف بعض الكلمات بأخطاء في الهجاء، كمن لا يتقن اللغة الألمانية، وهو ما حاولنا اقتفاءه في الترجمة. (المترجم).

العمودية. أربعة رجال يتصايحون بسبب ما كانوا قد شربوه منذ الفجر، ويبدو أن السوق وجَوّه الاحتفالي قد سهل لهم الأمر كثيراً. كانوا يتحدثون بصوت عال، يتعثرون أحيانًا في الكلمات، يتكلمون بنبرات حازمة. أدركتُ بسرعة ما الموضوع.

- "ألم تروه بملامح المحتال وعينيه اللتين تتلصصان في كل مكان؟ انطلق دورشا.

- هذا الحيوان، إنه "سفالة خالصة"، أقول لكم إنه سافل وفاجر، أضاف فوجل.

- لم يسئ إلى أحد. أشار بيفملينج، إنه يتنزه، يشاهد، ويضحك دائمًا.

- ضحكٌ يخفي وراءه خداعًا، فأنت تنسى هذه الحكمة، وعلى كل حال، فأنت غبي وقصير النظر، لدرجة أنك لا ترى حتى الشر لدى الشيطان!"

إنه هوسورن الذي كان يتحدث، وكان يبصق كلماته كمَن يقذف أحجاراً صغيرة. ثم أكمل بنبرات هادئة:

- "لابد أنه أتى إلى هنا لشيءٍ ما، شيءٍ ما غير واضح تمامًا، وليس سعيداً بالنسبة لنا.

- "فيم تفكر؟"، سأله فوجيل.

- لا شيء حتى الآن. أفكر بعمق، لا أدري. لكن وقحًا مثله لابد أن تكون في رأسه فكرةٌ ما.

- إنه يُدون كل شيء في مفكرته، أشار لذلك دورشا، ألم تروه منذ قليل أمام حملان فوزتين؟

- تتحدث عما رأيناه، لقد ظل دقائق ودقائق، وكان يكتب كل شيء وهو ينظر إليها.

- لم يكن يكتب، صحح بيفملينج، بل كان يرسم. رأيت ذلك جيداً بنفسي، فحتى لو قلت إنني لم أر شيئًا إلا أنني رأيت هذا. وفضلاً عن

ذلك، فقد كان مستغرقًا فيما يفعله لدرجة أننا كان يمكننا أن نأكل على رأسه، دون أن يشعر بشيء. أتيت من خلف كتفه، ونظرت.

- يرسم حملانًا، فماذا يعني هذا حقًا؟ سأل دورشا وهو ينظر لهوسورن.

- ماذا أعرف عنه أنا! أتعتقد أن لديَّ إجابات لكل شيء؟"

هنا توقف الحديث. كنت أعتقدُ أنه انتهى ولن يُستأنف. لكنني كنتُ مخطئًا. عاد صوتٌ ما، صوت لم أستطع تحديده، لأنه كان قد أصبح منخفضًا جدًا ورصيناً.

"حملان. ليس لدينا منها الكثير هنا، أعني فيما بيننا.. ربما كل ما يرسمه يماثل ما في إنجيل الكنيسة، قانون الإيمان، الرهبان,وهي طريقة للتعبير عما هو كائن وما تم فعله منذ عهد قريب، حتى يمكن إبلاغه هناك من حيث أتى.."

أشعر بالبرد في ظهري، ويحُك عمودي الفقري. لم أكن أحب هذا الصوت، ولا ما قاله، حتى لو كان معنى الكلام قد بقي - إلى حدٍّ ما - في حالة غموض.

"لكن، إذا ما كانت المفكرة تُستخدم في كل ما تقول، فلا ينبغي أن تخرج أبدًا من قريتنا!"

هو دورشا، الذي رصد هذه الملحوظة. وكنت أعرفه من قبل.

"ربما لديك حق. عاد الصوت الأول الذي لم أستطع قط التعرف عليه. ربما يجب أن لا تذهب أبدًا هذه المفكرة، أو ربما لا ينبغي ألا يتمكن صاحبها أبدًا من الرحيل..."

ثم لا شيء. انتظرت. لم أكن لأجرؤ على أن أتحرك. في نهاية هذه اللحظة، وفيما بعد ذلك، انحنيت قَليلاً برأسي خلف العمود. لا أحد. كان

الرجال الأربعة قد رحلوا دون أن أسمعهم. كانوا قد تلاشوا في الأثير كأهداب الضباب التي تنتزعها نسمة الجنوب في صباحات أبريل على قمم جبالنا. سألتُ نفسي أيضًا ما إذا لم أكن قد حلمتُ بكل ما سمعته. جذبتني بوبشيت من ساعدي.

- "إلى المنزل، يا بابا، إلى المنزل؟"

كانت شفتاها تلتمعان من دهن النقانق، فيما كانت عيناها تغرقان في ابتسامة رائعة. وضعت قُبلة كبيرة على جبينها، ثم حملتها على كتفي. قبضت يداها على شعري، بينما ساقاها تخبطان صدري: "هيييه بابا، هيييييه بابا!". أمسكت يد إيمليا، مما دفعها للوقوف. وقفت. شددتها نحوي، وداعبت وجهها الجميل، ووضعت قُبلة على خدها. وهكذا عاد ثلاثتنا، بينما رأسي لا يزال يدوي بأصوات رجال بلا وجوه، والتهديدات التي أطلقوها كبذور لا تطلب إلا غرسها.

انتهى جوستاف دورفر إلى النوم على منضدة المقهى، لا شك بفعل تعب الجسم بأكثر مما بفعل السُكر، أو تعب الحياة. كنت قد توقفتُ - منذ فترة طويلة - عن الكلام عن "لاندرير" مع الصبي، وغيّرنا الموضوع. كان مولعًا بالطيور، وهو ما كنت أجهله. أخذ يسألني عن كل الأنواع التي كنت أعرفها، والتي دونتها في تقاريري. هكذا تحدثنا عن طيور السمنة التي نسميها الجثوم، ويسميها الآخرون رماديات مارس، والتي يتضح من اسمها أنها لا تأتي عندنا إلا في فصل الربيع، وعصافير المصلب التي تكثر في غابات الصنوبر، وطيور المُليك، وطيور القرقب، والحجل الثلجي، وديوك البراري، وتُدرج الجبال، والجنود الزرق، التي يُستمد اسمها الغريب من لون ريش صدرها، وموهبتها في العراك، والغربان، غربان الزاغ، ونسور وعصافير الدفناش، والبومة الصمعاء.

في رأسه المتورم من الضرب، كان الطفل الذي يبلغ اثني عشر عامًا يخبئ عقلاً تملأه المعرفة، وتنتعش عيناه بمجرد الكلام عن الطيور. وعلى

العكس، كانت حدقتاه تتكدران وتخبوان عندما كان يلتفت إلى أبيه ويلمح وجوده الذي كان حوارنا وقتا منسيًا بالنسبة له. هكذا كان يتأمل أبيه، شاخرًا، فاغر الفم، والوجه منبطح على الخشب القديم، والقبعة مائلة، بينما اللعاب يسيل على شفتيه.

"عندما أرى طائرًا ميتًا، يقول لي هانز دورفر، آخذه بين يديَّ، وتدمع عيناي، لا أستطيع أن أمنعهما، فما مِن مبرر لموت طائر. ولو أن أبي انفجر هنا بالقرب مني الآن فجأةً، أقسم لك أنني سأرقص حول المنضدة وسأدفع لك الشراب. وعدًا".

ـ ١٦ ـ

أقف في مطبخنا. وضعت على رأسي القلنسوة المصنوعة من فراء السمور. وانتعلتُ أيضًا الخُف. وارتديت القفاز.

سَرت في جسمي حرارة غريبة، زودتني بخدر مريح يشبه ذلك الخدر الذي ينتابني عندما أحتسي كأسًا أو كأسين من النبيذ الساخن، بعد مسيرة طويلة في فترة ما بعد ظهر نهاية الخريف. أنا بحالة جيدة وأفكر. بالبديهة في "لاندرير". لا أتحدث عن ارتدائي ملابس كانت له، وكان قد أوصى بها بنفسه، بل - من جهة أخرى - عن كيف قابل ستيرن الذي نادرًا ما يأتي إلى قريتنا، كما قلت؟ وكيف علم أنه يتقن حياكة الجلود؟- يلزمني أن أخترق أفكاره والعالم الصغير لعقله، لكن يبدو لي- رغم كل شيء- أنني أقترب منه، وأنني أعود بالقرب منه، ولربما تخبرني إيماءةٌ أو نظرةٌ ما ما هو أكثر قليلاً.

لابد من الاعتراف بأنني محبطٌ فعلاً. لقد حملوني بمهمة تتجاوز بكثير قدرة كتفيَّ وقدرة عقلي. لستُ محاميًا. لستُ شُرطيًا. ولا قصاصًا. فهذه الحكاية، إذا ما قُرئت، ستوضح ذلك بما يكفي، حيث لم أتوقف عن التقدم إلى الأمام، والرجوع، والقفز على خيط الزمن كسياج، والتوهان على الأجناب، وربما الصمت، بلا قصد، عن الجوهر.

عندما أعيد قراءة الصفحات السابقة من حكايتي، أدرك أني أسير إثر الكلمات كأنها فريسة مطاردة، تنطلق بسرعة، بالتواء، محاولةً تضليل الكلاب والصيادين المنطلقين في إثرها. ثمة كل شيء في هذا الركام. أُفرغ فيه حياتي. والكتابة تهدئ قلبي وعقلي.

بالنسبة لـ"التقرير" الذي أمرني الآخرون بأن أكتبه، فالأمر مختلف. فنبرتي شخصية. أعيد تدوين المحادثات بمعناها القريب. أوجز. فضلاً عن ذلك، فقد أبلغني أورشفير- منذ بضعة أيام- أنه يجب عليَّ الذهاب يوم الجمعة في نهاية النهار إلى دار العمدة.

"فلتأت يوم الجمعة، يا بروديك، ستقرأ علينا..."

أتاني إلى المنزل شخصيًا ليبلغني بذلك. وضع هيكله الضخم على المقعد الذي قدمته له فيدورين، لم يحيها أو يشكرها، نزع قلنسوته المصنوعة من فراء ثعلب الماء، رفض الكأس التي كانت قد قدمتها له.

"ليس لديَّ وقت، شكرًا. لديَّ عمل. فقد تم ذبح ثلاثين خنزيرًا هذا الصباح. وإن لم أكون هناك، فهم قادرون على إتلافها..."

سمعنا وقع خطوات فوق رؤوسنا. هي بوبشيت التي كانت تعدو بالأعلى كفأر السَّم. ثم كانت هناك خطوات أخرى أكثر بطئًا وأكثر ثقلاً، وصوت بعيد، هو صوت إيمليا التي كانت تدندن. رفع أورشفير رأسه لحظةً، ونظر إليَّ، كأنه كان يستعد لقول شيءٍ ما، لكنه عدل عن رأيه. أخرج كيس التبغ ولفَّ سيجارة. صمت مطبق، قاسٍ كحجر، حل بيننا. كان أورشفير قد تأخر بلا سبب، فقد أتى ليكلمني فيما ينتظرونه في المزرعة. سحب نفسين أو ثلاثةً من سيجارته، وامتلأ فضاء المطبخ برائحة العسل والكحول المعتق. لا يدخن أورشفير أي تبغ. إنه تبغ الأثرياء، الأشقر تمامًا والمقطوع بشكل جيد، والذى يأتي به من بعيد.

نظر - مرةً أخرى - إلى السقف، ثم أدار من جديد وجهه الكريه نحوي. لم نعد نسمع شيئًا، لا الخطوات ولا صوت إيمليا. وفيدورين

تتجاهلنا. كانت تقشر البطاطس وتجهزها بتقليبها في عجائن صغيرة، ثم تضعها فيما بعد في الزيت المغلي، وتقوم بتقديمها لنا، بعد أن تنثر عليها بذور الخشخاش.

تنحنح أورشفير.

"لستَ وحيدًا؟"

أشرت بـ"لا".

بدأ يفكر، سحب نفَسًا من سيجارته، ضاقت أنفاسه، واختنق. أصبحت بشرته حمراء كالكريز البري الذي ينمو في يونيو، وعيناه مليئتين بالدموع. تلاشى السعال.

"أتحتاج إلى شيءٍ ما؟

لا شيء".

مرر أورشفير يده الكبيرة على وجنتيه، كأنه يحلق ذقنه. كنت أتساءل داخلي بحدة عمّا يقصد من وراء ذلك.

"حسنًا، سأتركك إذن".

لفظ جملته بتردد. نظرتُ إليه مباشرةً لأحاول أن أرى ما كان في أعماق عينيه، لكنه اخفضهما بسرعة شديدة.

انتويت أن أرد بجملة غريبة، جملة كان لا يبدو أنها صادرة مني، لأنها بدت لي تهديدية:

"سيناسبك الأمر جدًا لو كُن غير موجودات، سيريحك، أليس كذلك؟"

كان للجملة تأثيرٌ أخرس أورشفير تمامًا. رأيته فيما كان يحاول التفكير فيما قلتُه، ثم دار ودار في كل معاني الكلمات التي نطقتُ بها ليحاول تجميعها، لكنه لم يصل إلى أي شيء بلا شك,لأنه وقف متوثبًا، وأخذ

قبعته، وغرزها في رأسه ومضى. أصدر الباب - وهو ينغلق- صوت عواء خشن. وفجأةً، بفضل هذا الصوت البسيط، عدتُ إلى الجانب الآخر من هذا الباب. منذ عامين، يوم عودتي.

كل هؤلاء الذين قابلتهم منذ أن دخلت القرية، كانوا ينظرون إليَّ بعيون مستديرة، وأفواه فاغرة تمامًا دون أن تخرج منها كلمةٌ واحدة. هرب بعضهم إلى المنازل ليعلن خبر عودتي، وأدرك الجميع أنه يجب تركي بمفردي، ولا يجب أن يطرحوا عليَّ أسئلة أيضاً، فالشيء الوحيد الذي أضعه في حسباني هو أن أصل بالقرب من باب منزلي، أن أضع يدي على السُّقَّاطة، أن أدفع الباب، أن أسمع صوته البسيط، أن أعود إلى بيتي، أن أجد مَن أحببتها ومَن لم أتوقف عن التفكير فيها لآخذها بين ذراعيَّ، أحتضنها بشدة لدرجة قد تؤذيها، أن أضم من جديد، وأخيرًا، شفتيها في شفتي.

يا لهذه الإيماءات، هذا الطريق، هذه الأمتار القليلة، كم من مرة طفت بها في الحلم! حينئذٍ، في ذلك اليوم، عندما دفعتُ الباب، بابي، باب منزلي، كان جسمي يرتجف وقلبي يدق في صدري كما لو أنه سينفجر. أعتقد أيضًا أني لم أكن أستطيع التنفس، وبأني كنت سأموت هنا، ما إن أعبر العتبة، أني سأموت من السعادة. ولكن فجأةً، لاح لي وجه "الزيلنسينس"، وتسمرتُ على الفور في سعادتي. كان ذلك - إلى حدٍّ ما - كما لو أنهم سكبوا كميةً كبيرة من الثلج بين قميصي وجسمي العاري. فلماذا إذن، في هذه اللحظة بالذات، خرج وجه هذه المرأة من الأعراف ليتراقص أمام عينيّ؟

في الأسابيع الأخيرة من الحرب، أصبح المعسكر مكانًا بالغ الغرابة أيضًا، بدرجة لم يكن عليها حتى ذلك الحين. جلبةٌ مستمرةٌ ومتناقضةٌ كانت تَرجُّه كأنه تحت تأثير عواصف حارّة وباردة في نفس الوقت. كان بعض القادمين الجدد يهمسون بأن الحرب على وشك الانتهاء، وأننا- نحن

الآخرين، الذين نبحث عن الجثث ونجمعها- كنا في معسكر المنتصرين. وكنا نقرأ حينئذٍ - في عيون الموتى الأحياء - أننا أصبحنا وميضًا اختفى منذ زمن طويل، واستعاد إشعال ضوئه الخافت. لكن- على الفور- كانت وحشية الحراس تطرد هذا الهرج الذي تركوه يظهر لعدة ثوانٍ، لكي يؤكدوا أنهم ما يزالون السادة، كانوا يأخذون أول واحد منا يمر أمامهم ويوسعونه ضربًا بالعصيّ، بالحذاء، بالعكاز، ويغمرونه في الطين، كأنهم يحاولون أن يخفوا أثر شيءٍ ما أو أثر نفاية ما. ولم تمنع عصبيتهم ومنظرهم المهموم البادي على وجوههم من أن تجعلنا نفكر أن شيئًا ما حقيقيًا كان قد حدث.

لم يعد الحارس الذي كان آمري ينشغل بي كثيرًا. بينما لعدة أسابيع، كان يروق له كل صباح أن يلف طوقًا جلديًا حول رقبتي، ويربط فيه مقودًا مفتولاً، ويصحبني هكذا في أنحاء المعسكر ماشيًا على أربع أقدام أتبعه في الخلف، منتبهًا لساقيه وتعليماته ,فلم أعد أراه إلا وقت الوجبة. كان يأتي خلسةً عند حجرة الكلب التي قدمها لي لأنام فيها، ويسكب مغرفتين من الحساء في الجفنة، لكني كنت أشعر تمامًا أن هذه اللعبة لم تعد تمتعه. كان وجهه قد أصبح رماديًا، وثمة أخدودان عميقان - لم أكن أعرفهما فيه من قبل - كانا قد شقا الآن جبينه.

كنت أعرف أنه كان محاسبًا قبل الحرب، وأن لديه زوجة وثلاثة أطفال، ولدين وبنتًا، وليس لديه كلب بل قِط. كان ذا طبيعة مسالمة، خجول الهيئة، زائغ العينين، صغير اليدين، يعتني بهما حيث يغسلهما بانتظام مرات عديدة يوميًا، وهو يصفر بلحن عسكري. وعلى العكس تمامًا من الحراس الآخرين، لم يكن يشرب، ولا يتردد أبدًا على المخيم الذى بلا نوافذ ,حيث كانت بعض السجينات - اللاتي لم نكن نلمحهن قط - تحت تصرف الحراس. كان رجلاً عاديًا، شاحبًا، متحفظًا، ودائمًا ما يتكلم بصوت معتدل، دون أن يرفع النبرة، لكنه - مرتين، وبلا تردد للحظة واحدة - قتل بضربات ثور هائج أمامي سجينًا كان قد نسي أن يحيّيه برفع قبعته. كان

اسمه جوس شايدجر. حاولتُ جاهدًا أن أطرد هذا الاسم من ذاكرتي، لكننا لا نفرض ذلك على ذاكرتنا. يمكننا أحيانًا أن ننيمها قليلاً فحسب.

ذات صباح، حدثت في المعسكر حركة تنقلات كبرى، جلبة بكل الأشكال، أوامر بصوت صارخ، وتساؤلات. كان الحراس يجرون في كل اتجاه يلملمون متاعهم، ويحمِّلون على العربات الكثير من الأشياء. كنا نشم في الهواء - كأنما فوق رائحة النتن التي كانت تفوح من أجسامنا البائسة - رائحة أخرى، حمضية، كثيفة: تغير الخوف في المعسكر.

لم يكن الحراس - في هياجهم الشديد- يعيروننا أدنى انتباه. من قبل، كنا نمثل لهم عبيدًا، لكننا - في ذلك الصباح - لم نعد أي شيء.

كنت نائمًا في حجرة الكلب، في الدفء، قبالة بطن كلاب الحراسة، وكنت أرى هذا المشهد الغريب من التشتت. كنت أتابع كل حركة. كنت أسمع كل نداء. كل أمر، أوامر لم تعد تخصنا. ذات لحظة، وفيما كان معظم الحراس قد غادروا أماكنهم، رأيت شايدجر يتوجه نحو المخيم الذي لم يكن ببعيد عن حجرة الكلاب، والذي كان يحمي مكاتب خدمة الإحصاء. بعد قليل من الوقت، خرج منه بحقيبة جلدية كان يبدو أنها تحوى وثائق. نبح أحد الكلاب حين رآه. نظر شايدجر نحو بيت الكلاب، وتوقف باديًا عليه التردد. نظر حوله، وبعد أن تأكد من عدم ملاحظة أحد له، أتى مسرعًا نحو حجرة الكلب، جثا على ركبتيه بالقُرب مني، قلَّب في جيبه، وأخرج منه مفتاحًا صغيرًا كنت أعرفه جيدًا، وبإيماءات مرتعشة، فتح قفل طوقي، ثم - دون أن يعرف ماذا يفعل بهذا المفتاح الصغير - رماه فجأةً على الأرض كما لو أنه كان يلسعه.

"مَن يدري مَن سيدفع ثمن كل هذا....؟"

همس شايدجر بهذه الكلمات، كلمات بائسة في مجملهاٍ لمحاسب يستحق الرثاء وبلا كرامة، وهو ينظر في عينيّ للمرة الأولى، ربما في

انتظار أن أمنحه إجابة. كان جبينه مغطًى بالعرق، وبشرته أيضًا أكثر اكفهرارًا من المعتاد. فماذا كان يأمل بإيماءاته تلك؟ العفو؟ عفوي؟ ظل هكذا لبضع ثوان أمامي مسمرًا، متوسلاً، وخائفًا. حينئذ بدأت أنبح، طويلاً، نباحًا طويلاً جدًا، كئيبًا وحزينًا، استعاده واستكمله كلبًا الحراسة. نهض شايدجر فجأةً مرعوبًا، ثم هرب جاريًا.

في أقل من ساعة، لم يعد هناك أي حارس في المعسكر. ليس هناك إلا الصمت. لم نكن نرى شيئًا أو نسمع أحدًا. ثم، تدريجيًا، وبخوف، خرجت ظلالٌ من المخيمات، غير مجترئين - ما يزالون- على النظر بالفعل من حولهم، أو نطق كلمة. امتلأت ممرات المعسكر بهذا الجيش المترنح، المتشكك، ذي الوجنات الكئيبة والمجوفة، ذي الهيئات المترددة. وبعد قليل، كان الحشد كبيرًا وهشًا، مطبق الصمت، في حالته الجديدة ,تائهًا بلا هدف محدد من اتجاه إلى آخر، يبرقش المعسكر بطوافه الغريب، في انبهار بالحرية التي لم يكن أحد ليجرؤ على أن يسميها.

الأمر العجيب حدث عندما استدار هذا النهر الكبير من العظام واللحم المتألم ناحية مخيم الحرس ورؤسائهم. كل شيء توقف تمامًا. رفع الأوائل أياديهم بلا كلمة، وتسمر الجميع. نعم، الأمر العجيب حدث: في مواجهة مئات المخلوقات التي تحولت تدريجيًا إلى بشر، كانت هناك الـ"زيلنسينس" وحدها. وحدها تمامًا. وحدها بصورة مطلقة.

لا أؤمن بالقدَر. ولم أعد أؤمن بإله. لم أعد أؤمن بأي شيء. لكنني أود الاعتراف بأن في هذه المقابلة بين شعب عظيم البؤس، وتلك التي كانت رمزًا للجلادين، كان هناك ما هو أكثر من الصدفة.

لماذا لا تزال هناك، فيما كان كل الحراس قد رحلوا؟ لابد أنها كانت قد رحلت أيضًا، ثم عادت - مرةً أخرى- على وجه السرعة، بالتأكيد لتبحث عن شيءٍ ما كانت قد نسيته. سمعنا صوتها في البداية. نفس الصوت المعتاد، الواثق بنفسه، القوي بسلطته وقانونه، صوت السيد الذي كان -

منذ لحظات – يعطى الأمر بشنق واحد منا، أو كان يغنى أغنية "حادي بادي" لطفله.

لم أفهم كلماتها. كنت بعيدًا – إلى حدٍّ ما – عن المشهد، لكنني أدركتُ أنها كانت تتكلم وكأن شيئًا لم يتغير. لا شك أنها لم تكن تعرف أنها بمفردها في المعسكر. مهجورة. ولا شك أنها كانت تظن أيضًا أنه لا يزال هناك حراس مستعدون لتنفيذ أبسط أوامرها، وضربنا حتى الموت إذا رغبت وطلبت. لكن لم يجبها أحد. لم يأت أحد لخدمتها ونجدتها. لم يأت أحدٌ بأية حركة في مواجهتها. واصلت الكلام. لكن صوتها تغير شيئًا فشيئًا. أخذت نبرة صوتها تتسارع فيما كانت حدتها تقل، ثم انفجرت، أصبحت عواءً، وصمتت من جديد.

اليوم أتخيل عينيها. أتخيل عيون الـ "زيلنسينس"، عندما بدأت تدرك أنها الأخيرة، أنها الوحيدة، وأنها ربما، نعم ربما، لن ترحل أبدًا من المعسكر، وأنه سيتحول، أيضًا بالنسبة لها، إلى مقبرة.

قيل لي إنها بدأت تضرب بقبضات يديها هؤلاء الذين كانوا في الصف الأول. لم يرُد عليها أحد. قاموا فحسب بالابتعاد عنها. حينئذ، دخلت شيئًا فشيئًا في النهر الكبير من الجثث الحية، دون أن تدري أنها لن تخرج مرةً أخرى منه، لأن الأمواج كانت تنغلق عليها من الخلف. لم يكن ثمة صرخة واحدة أو أنَّة. اختفت كلماتها معها. تم التهامها، وعرفت نهايةً بلا ضغينة، تقريبًا نهاية ميكانيكية لصورتها في المجمل. أعتقد بقوة، حتى لو لم أستطع أن أؤكد ذلك، ألا واحد رفع يده عليها. ماتت دون أن تُضرب، دون أن يُوجه إليها أي كلام أو أية نظرة، وهي التي كثيرًا ما احتقرت هذه النظرات. أتخيلها تترنح للحظة، وتهوى على الأرض. أتخيلها تمد يديها، محاولةً التعلق بالظلال التي كانت تمر بجانبها، فوقها، فوق جسمها، على ساقيها، على ذراعيها الرقيقتين البيضاوين، على بطنها، على وجهها المزين بالمساحيق، ظلالٌ لم تعرها أي اهتمام، ولم تنظر إليها، ولم تُنجدها،

وأيضًا لم تهجم عليها، ولكنها ببساطة تسير، وتسير، وتسير، فتدوسها بالأقدام، كما تدوس على التراب، على الأرض أو الرماد.

في اليوم التالي، اكتشفتُ ما كان قد بقي من جسدها. شيء بائس، منتفخ ومُزرَق. انسحب منها كل جمالها. فلنقل فاقدة الشخصية، أو إحدى "جنيات القش" التي يتم التجوال بها في شوارع القرية أثناء عيد سان-جان، قبل أن يقوموا بحرقها بإلقائها في النار المستعرة في المساء التالي، فيما نغني ونرقص على شرف الصيف؛ تلك الدُّمَى الضخمة التي يُعدها الأطفال بحشوها بالحشائش الجافة والملابس القديمة لامرأة. لم يعد وجهها موجودًا. لم تعد تملك عينين ولا فمًا ولا أنفًا. كانت جُرحًا كبيرًا مستديرًا ممدودًا كبالونة، وتعلق بها لبدة كبيرة من الشعر الأشقر المختلط بالطين. هو شعرها الذي أعرفه. شعرها الذي كان يبدو لي من قبل، فيما كنت أزحف على الأرض كالكلب، كأنه خيوط شمس باهرة وداعرة.

كانت تحتفظ في موتها بقبضتيها مضمومتين بقوة شديدة، إلى حد أنهما كانتا تشبهان حصاتين. كانت تتدلى من إحداهما سلسلة ذهبية رائعة الصنع. لا شك أن ثمة ميدالية كانت في نهاية هذه السلسلة، واحدة من أرق الميداليات المنقوش عليها صورة قديس أو قديسة، التي تُوضع حول عنق المواليد عندما يُجرى تعميدهم. ربما من أجل هذه الميدالية تحديدًا عادت أدراجها، عندما لاحظت أنها غير موجودة على صدر الصغير الرقيق؟ كانت قد دخلت - من جديد - إلى المعسكر، مُقدرةً الخروج - مرةً أخرى - بأسرع ما يمكن. لا شك أنها لم تكن تدري أنه عندما نترك جهنم فلا يجب أبدًا أن نعود إليها. لكن - في الواقع - ليس هناك أي اختلاف نوعي بين الموت جهلاً والموت تحت آلاف الخطوات لبشر أصبحوا أحرارًا من جديد. تُغمض الأعين ثم لا شيء. فالموت ليس صعبًا أبدًا. لا يتطلب أبطالاً أو عبيدًا. إنه يلتهم ما يُقدَّم له.

ـ ١٧ ـ

"لا تترك البيرة بُقعًا، ليس سوى العَرقي، لا النبيذ!"

لم يكن القس بيبر ليكف عن أن يُرغي ويُزبد. كان يرتدي سرواله وقميصه بالقرب من قناة الماء، ويدعك رداء القُداس الأبيض بارتباك، مستخدمًا فرشاة كبيرة وقطعة من الصابون.

"فضلاً عن ذلك، فهي تحديدًا على الصليب! فإذا لم أستطع إزالتها، فسيجد فيها البُلهُ والمتعصبون رمزًا ما! فالناس تخِر تحت الرموز، إنها تجارتنا، ولن نجد صعوبة في أن نبالغ فيها!".

كنت أشاهده يفعل ذلك دون أن أنطق بكلمة. كنت أجلس في زاوية بمطبخه على كرسي معوج الساقين بقش مُشعث. تنتشر في الحجرة رائحة خانقة شديدة بسبب الأواني القذرة، والدهون المتخثرة، والثفل، وعصارة النبيذ المنتشرة. مئات من الزجاجات الفارغة كانت هنا وهناك، وفي عنق واحدة من العشرات من بينها، غرس القس شمعة يتجه لهبها الضعيف نحو السقف.

توقف بيبرِ عن دعك ملابسه، التي ألقاها بغيظ في قلب حوض المياه الحجري، ثم استدار. نظر إليَّ بدهشة كأنه كان قد نسي وجودي وبدأ يكتشفني.

"بروديك، بروديك.. كأس؟"

أشرتُ برأسي نافياً.

"ما تزال في غير احتياج إليها، أنت محظوظ..."

بحث عن إحدى الزجاجات التي كان ما يزال بها بعض النبيذ، قلب الكثير منها، الفارغة، فأحدثت موسيقى زجاجية غير متناغمة، قبل أن يجد الزجاجة المرجوة. أمسك بعنقها كأن بقاءه على قيد الحياة كان يعتمد عليها، ثم صب كأسًا. أخذ الكأس بين يديه المضمومتين. رفعها إلى مستوى وجهه، ابتسم، وقال بصوت وقور يمتزج بالسخرية:

"إنه دَمِي، فهاكُم واشربوه جميعًا!"

احتسى الكأس في جرعة واحدة، وصك قاع الكأس على المنضدة، وغادر بضحكة رنانة.

كنتُ قد أتيت لأراه بعد أن كنت قد ذهبت إلى دار العمدة، كما طلب مني أورشفير، لأعرض حالة تقريري.

في ذلك اليوم، كان الليل قد حل فجأةً على القرية، كبلطة هوت على جذع شجرة. خلال النهار، كانت تتجمع في وادينا سُحب كثيفة آتية من الغرب، وتكتلت هناك عند الجبال، ساقطةً في الشَّرَك، ثم بدأت تدور حول نفسها مجنونةً، قبل انقسامها- في نحو الثالثة بعد الظهر- إلى اثنتين بفعل ريح جليدية شديدة قادمة من الشمال. حينئذ، من بطنها الفاغر، سقط ثلج كثيف، نِدَف جامدة بلا حصر، منضمةً إلي بعضها البعض، كجنود حازمين في جيش لا نهائي، وتَعلق بكل مكان، بالأسقف، والجدران، والأرصفة والأشجار. كنا في الثالث من ديسمبر. كل الأمطار الثلجية الأخرى السابقة لم تكن إلا صورية. نعرف ذلك. بينما هذه التي أخذت في الهطول في ذلك اليوم، فلم تعد مزحة. إنها أولى العواصف الثلجية الكبيرة. كانت عواصف أخرى ستأتي، وكان علينا أن نعيش في صحبتها حتى الربيع.

أمام دار العمدة، كان الـ"زونجفروست"- "اللسان المتجمد" قد أضاء قنديلين على جانبي الباب. وبمجرفة كبيرة، كان قد كشط الأرض وفتح على الجانبين طريقًا، دافعًا بالثلج على شكل تلَّين. كانت ملابسه تتغطى بالبياض وبالندف التي كانت ملتصقة به لتذكِّرنا بالريش. كان يشبه بهذا الشكل دجاجة كبيرة.

"تحياتي، زونجفروست!

تحـ.. تحـ... تحـيـاتي، يـا بـرو... بـروديك! أرا.. را.. را... أيت مـا حد..حد...حدث!

أتيت لأرى العمدة.

أنا... أعرف. هو ينتـ... ينتـ... تظرك... بالأعلى".

كان الـ"زونجفروست" يصغرني بعدة سنوات. دائم الضحك، لكنه ليس معتوهًا. وفضلاً عن ذلك، فلو شاهدنا ضحكته بالفعل، فقد كان ممكنًا أيضًا أن تكون تكشيرة. إنه وجهه الذي تسمر ذات يوم، منذ وقت طويل، وجهه، وضحكته، ولسانه، كل شيء تسمر. كان في السابعة أو الثامنة من عمره. كان ذلك في عمق شتاء آخر قارس أيضًا. التقينا - كل أطفال القرية الصبية، والأصغر سنًا - عند دوران نهر ستورني، الذي كان قد تجمد في ذلك العام تمامًا. نتزحلق على الجليد. كنا نتدافع. نضحك. وفي لحظةٍ، أطاح شخصٌ ما، لم نعرف قط مَن هو، بـ"تصبيرة"(*) زونجفروست - شريحة من شحم الخنزير في قطعة خبز - بعيدًا على الجليد، على بُعد متر أو مترين من حافة النهر الأخرى. نظر الصبي إلى تصبيرته التي كانت تبتعد، وتبتعد، ثم بدأ في البكاء، بدموع غزيرة، صموت، مستديرة كثمرات نبات الهدال. ضحكنا كلنا. ثم قال الأول: "كُف عن البكاء، فلتذهب إذن لتأتي بها!" ساد الصمت. جميعنا كان يعرف أنه

(*) طعام خفيف بين الوجبات. (المترجم).

في المكان الذي أوقفت فيه تصبيرته انطلاقها، لابد أن الجليد كان رقيقًا، لكن لم يقل أحد شيئًا. انتظرنا. تردد الصبي ثم، ربما بتحدٍّ، وليظهر أنه لا تنقصه الشجاعة، أو ربما ببساطة تامة لأنه كان جائعًا للغاية، تقدم على الجليد، ببطء، على أربع، وكل منا يحبس أنفاسه. جلسنا جميعًا على الجرف بجانب بعضنا البعض، ونظرنا إليه. كان يتقدم كحيوان صغير، بحذر، وكنا نخمن أنه كان يحاول أن يجعل نفسه أكثر خفة بقدر الإمكان، حتى لو لم يكن وزنه ثقيلاً تمامًا. كلما كان يقترب من تصبيرته، كانت عُصبتنا الصغيرة تخرج من ذهولها، ونقوم بتشجيعه، على نحو منتظم، وبإيقاع يشتد أكثر فأكثر. هي اللحظة التي مد فيها يده إلى الخبز وقطعة الشحم التي ابتعدت تمامًا. انسحب الجليد من تحته كمفرش نُزع بقوة من فوق منضدة، واختفى في مياه النهر بلا صرخة.

هو الأب هوبال، عامل الغابة الذي كان يمر عن قُرب، واستنفره صراخنا، هو من سحبه بعد ذلك بدقائق بمساعدة عصا طويلة. اكتسى وجه الصبى ببياض كالقشدة. شفتاه أيضًا أصبحتا بيضاوين. كان يغمض عينيه ويبتسم. اعتقدنا أنه مات بالفعل. وبعد انزلاقه تحت عدة أغطية، ودَعْك جلده بالكحول، استيقظ بعد عدة ساعات. عادت الحياة إلى شرايينه والدم إلى وجنتيه. كان أول ما طلبه هو تصبيرته، لكنه طلبها وهو يتعثر بكل كلمة، وكأن فمه كان قد تجمد في برد المجرى المائي، وظل لسانه مغلقًا، نصف ميت، تحت ركام الثلج. منذ ذلك اليوم، لم نعد ندعوه إلا بلقبه، الـ"زونجفروست".

من الطابق الأعلى، سمعت أصواتًا تأتي من قاعة المجلس. بدأ قلبي يخفق أسرع. أخذتُ نفَسي، ودققتُ الباب قبل أن أدخل.

قاعة المجلس واسعة. يمكنني أن أقول أيضًا إنها - إلى حدٍّ ما - كبيرة جدًا بالنسبة للقليل الذي سنفعله فيها. هي من زمن آخر، زمن كنا نقيس فيه ثراء البلدة نسبةً إلى مبانيها العامة. يضمحل سقفها عبر الارتفاع.

وجدرانها - المطلية ببساطة بالجير الأبيض - كان يَعلق عليها خرائط قديمة، شهادات جامعية في أطر مكتوب عليها كتابات مائلة ومعقدة، عن القوانين، ودعائم السفن، والسُّخرة التي ترجع إلى عصر كانت القرية تعتمد فيه على الإقطاعيين من عائلة مولنشيم، وذلك قبل أن يوقع الإمبراطور منشور عام ١٧٥٦م الذي يمنحها فيه حريتها، ويعلنها خاليةً من الرق. على كل هذه الوثائق أختامٌ من الشمع تتدلى في أوشحة باهتة.

في المعتاد، ثمة منضدة كبيرة يجلس إليها أعضاء المجلس، ويجلس العمدة في المنتصف، في مواجهة العديد من صفوف الكراسي التي يمكن أن يجلس عليها الجمهور الحاضر لسماع مداولات ذلك اليوم. كانت المنضدة موجودةً بالفعل، لكن الكراسي أُزيحت إلى زاوية الحجرة، وتكدست فوق بعضها البعض، في ركام لا يمكن وصفه. وفي مواجهة المنضدة الكبيرة، كان هناك فقط كرسي ومكتب صغير.

"اقترب، يا بروديك، لن نأكلك..."

كان أورشفير يجلس خلف المنضدة الكبيرة. وهو مَن كان يتكلم، حيث بعثت كلماته ضحك الآخرين، ضحكات صامتة، منها وفيها - بكل تأكيد- تشعر بالتواطؤ. والآخرون؟ كانوا اثنين. إلى يسار العمدة، المعلم كونوبف الذي كان ينظر إليَّ من فوق نظارته التي بلا ذراعين والقذرة تمامًا، وهو يحشو غليونه. إلى اليمين من أورشفير، بعد كرسي ظل خاليًا، كان هناك جوبلر، الذي كان يمد رأسه نحوي وهو يديرها قليلاً، كما لو أنه- منذ الآن- سيحاول رؤية الكائنات والمخلوقات بأذنيه، لا بعينيه، اللتين كانتا تخونانه أكثر فأكثر كل يوم. جوبلر.. هذا الذي لا يفور دمي إلا حينما أدرك وجوده.

"ستجلس أم لا؟"؛ قالها أورشفير بنبرة حاول أن تبدو حميمية. "نحن هنا بين الأصدقاء، يا بروديك. فلتكن كما في بيتك، ليس لديك ما تخشاه".

أوشكت أن أسأل العمدة عن سبب وجود جاري، وأيضًا عن سبب وجود المعلم كنويف، الذي - رغم كونه وجيهًا - فإنه ليس عضوًا بالمجلس البلدي. لماذا هؤلاء، وليس سواهم؟ لماذا هؤلاء، بالذات؟ في الحقيقة، بأية صفات؟ بأية وظائف؟ بأية كفاءات كانوا يجلسون خلف المنضدة الكبيرة؟

كان رأسي يغلي بكل هذه الأسئلة، عندما سمعت - من وراء ظهري - الباب ينفتح. أضاءت وجه أورشفير ابتسامة عريضة.

"تفضل، أرجوك؛ قالها باحترام للقادم الجديد الذي لم أكن قد رأيته بعد. لم يفت حضرتك شيء، كنا سنبدأ حالاً".

رنت في القاعة مشية متمهلة، تحددها ضربات عُكاز. كان القادم الجديد آتيًا نحوي، من ورائي. كان يقترب. لم أكن أريد الالتفات. توقف على بُعد خطوات مني، وحينئذٍ سمعت صوته يقول لي: "صباح الخير، يا بروديك". صوته الذي قال لي صباح الخير في تلك الليلة، كما قالها من قبل مئات ومئات المرات، فتوقف قلبي عن الخفقان، أغمضت عيني، وشعرت بأن يديَّ أصبحتا معروقتين، وشعرت أيضًا بمرارة تملأ فمي، وتغزوه كما لو لتغرقه. عادت الخطوات مرةً أخرى ومعها صوت بُطء لطيف. حدث احتكاكٌ بالكرسي، ثم ران الصمت. فتحتُ عيني. إرنست-بيتر ليمات. معلمي العجوز، كان قد أتى ليجلس إلى يمين أورشفير، وينظر إليَّ بعينيه الواسعتين الزرقاوين.

"هل فقدت لسانك، يا بروديك؟ هيا! كلنا موجودون هنا! يمكنك الآن أن تقرأ ما كتبت".

كان أورشفير يفرك يديه وهو يقول ذلك. مثلما كان يفركهما عندما يقدم على عمل شيء عظيم. لم يكن لساني هو الذي هجرني. لم يكن هو الذي فقدته فجأةً، بل كُتلة، كتلة كبيرة، من العقيدة والأمل.

عزيزي ومعلمي القديم ليمات، ماذا كنت تفعل هنا، خلف هذه المنضدة الشبيهة بمنصة المحكمة؟ هل كنتم تدركون ذلك إذن؟

ـ ١٨ ـ

الـوجوه. وجـوهـهم. أكـان ذلـك أيضـًا أحـد الأحـلام المـراوغـة الـتي كـانت ترميني في عـالم بلا معالم، أحـد تلك الأحـلام الـتي كانت تـأتيني في ليل المعسكر؟ أين أنـا؟ هل سينتهي كل ذلك ذات يوم؟ أذلك هـو الجـحيم؟ فأي خطـأ ارتكبتُ إذن؟ إيمليـا، قـولـي لي... لقـد تـركتك. نعم، تـركتُك. لم أكن هناك. فسامحيني، يا ملاكي، أرجوكِ. تعرفين جيدًا أنهم اقتادوني، وأنني لم أكن أملك أي شيء. حدثيني عن الأشيـاء. قولي لي مَن أكون. قولي لي إنك تحبينني. كُفي عن الدندنة، أتوسل إليكِ، كُفي عن ترتيل هذا اللحن الذي يعصف برأسي وقلبي. افتحي شفتيك واتركي الكلمات تخرج. أستطيع أن أسمع كل شيء الآن. أستطيع أن أسمع كل شيء. أنا منهكٌ جدًا. فأنا شيءٌ ضئيل لدرجة أن حياتي ليس بها أي بريق بدونك. أنا لا شيء. أنا عبث.

ذلك المساء، شربتُ أكثر قليلاً. منتصف الليل في الخارج. لم أعد أخشى شيئًا. لابد أن أكتب كل شيء. يستطيعون أن يأتوا. فأنا أنتظرهم. نعم، أنتظرهم.

في قاعة المستشارين، قرأت إذن بضع أوراق، ما يقرب من عشر على الأكثر، كنت قد دونتُ فيها الشهادات، واستعدتُ تجميع اللحظات. كنتُ

أركز عيني على السطور، دون أن أرفعها أبدًا نحو هؤلاء الموجودين أمامي والمنصتين إليّ. لم أتوقف عن الانزلاق بالكرسي الذي كانت قاعدته قد انزاحت إلى الأمام. أما المكتب، فكان صغيرًا إلى حد أنه كان من الصعب أن أُدخل ساقيّ تحته. كان وضعي غير مريح بالمرة، لكن ذلك كان ما يريدونه: أن يجعلوني غير مرتاح، في هذه القاعة الشاسعة، مع هذه الهيئة الجديرة بإصدار حُكمٍ ما.

قرأتُ بصوت ميت، صوت غائب. لم أكن قد أفقتُ بعد من اندهاشي وإحباطي الحاد من أني وجدتُ هنا أستاذي القديم. كانت عيناي تقرآن بينما كانت أفكاري في مكان آخر. كانت ذكرياتٌ كثيرة مرتبطة به تعاود ذاكرتي، منذ زمن بعيد جدًا، يصل إلى أول مرة طرقتُ فيها باب المدرسة، ورأيت عينيه تستقران عليَّ،عينيه الزرقاوين الواسعتين، ذات الزرقة الثلجية، زرقة تصدُّع جليدي عميق. كانت هناك أيضًا كل هذه اللحظات - لكم كنت أحبها! - حين كان يساعدني على التقدم، فيستبقيني في أمسيات ما بعد اليوم الدراسي، لألحق بما فاتني، حيث يمكث بصبر ومحبة بالقرب مني. في تلك اللحظات، كان صوته أقل وقارًا. لم يكن هناك سوانا نحن الاثنين. كان يحدثني بوداعة، ويصحح أخطائي بلا غضب، ويشجعني. أتذكر أنه - في بعض الليالي، وأنا فتى صغير - حينما كنت أحاول أن أستعيد وجه أبي، كنتُ كثيرًا ما أُفاجأ بنفسي وأنا أجعله يبدو في ملامح معلمي، وأتذكر أيضًا أن هذه الفكرة كانت مريحةً لي وتُعزيني.

عندما عدتُ إلى المنزل، أنزلت - في الحال - زهور "أبواق الموت" التي كان قد أعطاها لي في اليوم الأخير، عندما ذهبت لأزوره بخصوص الثعالب، وألقيت بها في النار.

"هل جُننت؟ ماذا فعلَت لك؟"، سألتني فيدورين التي فتحت عينيها ولاحظت مكيدتي.

هذه؟ لا شيء. لكن الأيدي التي ضفرتها لي ليست نظيفة تمامًا".

على ركبتيها، كان ثمة لفة صوف كبيرة، وإبر تريكو.

"أنت تتحدث لغة "تيبيرشوا"، يا بروديك".

الـ"تيبيرشوا" هي اللغة السحرية لبلدة "تيبيبوا"، حيث يدور الكثير والكثير من الحكايات التي تحكيها فيدورين، لغة يتحدثها الجن والعفاريت، والأقزام الخرافية,لكن البشر لا يستطيعون أبدًا فَهمها.

لم أجب بشيء. أخذت لتر العرقي وكأسًا، وذهبت إلى المخزن. احتجتُ إلى دقائق طويلة لأُخلص الباب من كل الثلج الذي تراكم عليه. ولا يزال يسقط. كانت الليلة مليئة به. كانت الرياح قد توقفت، وندف الثلج - المستسلمة لمزاجها وحده - كانت تنزل في شكل دوامات غزيرة، وغير متوقعة.

في قاعة المستشارين، عندما انتهيت من قراءة ما كتبته، حل صمتٌ مطبق. على مَن كان سيتحدث أولاً. رفعتُ عيني للمرة الأولى نحوهم. كان المعلم كنوبف يمص غليونه كما لو أن مصير العالم كان يتوقف على ذلك. لم يكن قد سحب منه إلا دخانًا ضئيلاً، وهو ما كان يبدو العكس. وكان يبدو أن جوبلر قد نام، فيما كان أورشفير قد انتهى من تدوين شيءٍ ما على قصاصة ورق. كان ليمات وحده هو مَن يلاحظني، بابتسامة. رفع العمدة رأسه.

"حسنًا. رائعٌ جدًا، يا بروديك. إنه رائع جدًا، ومكتوب بشكل جيد. استمر في هذا الطريق".

التفت إلى هؤلاء وأولئك، بحثًا عن موافقتهم أو منحهم الإذن لإبداء ملاحظاتهم. كان جوبلر أول من تكلم.

"كنت أتوقع ما هو أكثر، يا بروديك. فأنا أسمع كثيرًا الآلة. و"التقرير" بعيدٌ عن الاكتمال، إلا أنه يبدو لي أنك تكتب كثيرًا..."

حاولتُ إخفاء غضبي. حاولتُ أن أجيب بهدوء، دون أن يدهشني شيء، دون أن أقحم- في الموضوع- السؤال ولا حتى وجود مَن كان قد طرحه. وكم كنت أود أن أقول له إنه من الأفضل أن يهتم بالحريق الذي كان يشتعل في مؤخرة زوجته الفائرة بدلاً من الاهتمام بكتاباتي. أجبت بأن كتابة هذا النوع من التقارير لم يكن شيئًا طبعيًا بالنسبة لي، حيث عانيتُ حتى أجد النبرة والكلمات، وحيث كان من الصعب جداً صياغة الشهادات وتقديم صورة صحيحة، والإمساك بحقيقة ما قد حدث أثناء الشهور الأخيرة. نعم، كنت أعمل بلا توقف على الآلة، ولكني كنت أعاني، أنقِّح، أشطب، أمزق، أبدأ من جديد، وهو ما يفسر عدم تقدمي بسرعة كبيرة.

"لكني لم أكن أريد مضايقتك بقولي هذا، يا بروديك، كانت مجرد ملحوظة صغيرة، معذرة"، قال جوبلر في إشارته للضيق.

بدا أورشفير راضيًا عن مبرراتي. التفت مرةً أخرى إلى هؤلاء الذين يحيطون به. كان سيجفريد كنوبف يبدو سعيداً، لأن غليونه كان قد بدأ يخشخس من جديد. كان ينظر إليه بعيون ودودة، ويداعب موقده براحتي يديه، دون أن يعير مَن حوله أدنى اهتمام.

"ربما يسأل السيد ليمات". سأل العمدة باحترام شديد وهو يستدير نحو المعلم العجوز. كنت أشعر بالعرق ينزل على جبيني مثلما كان يحدث عندما يسألني في الفصل أمام كل زملائي. ابتسم ليمات، تمهل بعض الوقت، فرك يديه الطويلتين ببعضهما البعض.

"لا. لا أسئلة سيدي العمدة. هي بالأحرى ملاحظة، ملاحظة بسيطة.. فأنا أعرف جيداً بروديك. أعرفه جيداً. منذ زمن طويل. أعرف أنه سيلتزم - بكل ضمير- بالمهمة التي أوكلناها إليه، ولكن.. كيف نقولها.. إنه حالم، وأنا أقول له بلا إساءة، لأني أعتقد أنها مزية عظيمة أن تحلم، ولكن - في هذه الحالة - لم يكن يجب أن يشوش كل شيء، أن يخلط الأحلام بالواقع، ما هو موجود وما لم يحدث.. أتوسل إليه أن ينتبه، أتوسل

إليه أن يظل في الطريق المرسوم، ولا يترك خياله يسيطر على فكره وعباراته".

في الساعات التالية، قلَّبت مرات ومرات في رأسي كلمات ليمات. ماذا يُفهم منها؟ لا أدري.

"لن نستبقيك أكثر من ذلك، يا بروديك. أفترض أنك تريد العودة بسرعة".

وقف أورشفير، وقلدتُه في الحال. حييتهم جميعًا بإشارة صغيرة من رأسي، وتوجهت مسرعًا نحو الباب. في هذه اللحظة اختار السيد كنوبف أن يخرج من سباته. استعادني صوته الشبيه بصوت عنزة عجوز:

"لديك قلنسوة جميلة جدًا، يا بروديك، ولابد أنها دافئة جدًا. لم أر مثلها قَط... مِن أين أتيتَ بها؟"

التفت. اقترب المعلم كنوبف مني، بساقيه الملتويتين، وهو يحجل. لم تكن له عين إلا على قلنسوة "لاندرير" التي وضعتها على رأسى. الآن أصبح قريبًا جدًا مني، ومد يده المعقوفة نحوها. شعرت بأصابعه تجرى على الفراء.

"أصلية تمامًا، يا لها من صنعة جميلة.. رائعة! كم لابد أنك في حالة جيدة فيها، خاصةً في هذا الطقس الذي يهل.. أحسدك عليها، يا بروديك.."

كان كنوبف يداعب القلنسوة مرتعشًا. كنت أشم نفَسَه المشبع برائحة التبغ، وأرى في عينيه ضوءًا هائجًا يتراقص. سألتُ نفسي فجأةً إن لم يكن قد أصبح مجنونًا. جاء جوبلر لينضم إلينا.

"لم تجب، يا بروديك، عندما سألك المعلم كنوبف عمَّن صنع لك هذه القلنسوة!".

ترددت. ترددت بين الصمت بعض الكلمات التي كان لي أن ألقيها كأنصال سكين. كان جوبلر ينتظر. اقترب ليمات منا ولف رقبته النحيلة في طيات سترته المخملية.

"جوبلر، انتهيت إلى أن أقول بنبرة صدق، لن تصدقني أبدًا، إلا أنها هي الحقيقة الخالصة، لكني أرجوك، هذا سر، فلا تُعده على أحد، فهذه القلنسوة، تصور أن السيدة مريم العذراء هي التي شغلتها لي، والروح القدس هو مَن حملها إليّ".

انفجر إرنست - بيتر ليمات من الضحك. وضحك كنوبف أيضًا. الوحيد الذي اكفهر، جوبلر. كانت عيناه الميتتان تقريبًا تبحثان عن عينيَّ كأنه يريد أن يفقأهما. تركتهم متجمدين هناك، وخرجت.

في الخارج لم يكن الثلج قد توقف عن الهطول، والطريق الذي كان قد فتحه "الزونجفروست" منذ أكثر من ساعة تقريبًا لم يعد موجودًا. لم يكن في شوارع القرية أحد. القناديل المعلقة على الأفاريز كانت تهز هالاتها. وكانت الريح قد عادت من جديد، ولكن على نحو خفيف جدًا، حيث كانت تُطاير ندف الثلج في كل اتجاه. فجأةً شعرت بوجود شخصٍ ما بجانبي. إنه "لونيمست"، الذي كان يحاول أن يدخل وجهه البارد في بنطلوني. وأدهشتني هذه الألفة. وسألتُ نفسي أيضًا ما إذا كان قد خلط بيني وبين شخص آخر، ما إذا كان قد خلط بيني وبين "لاندرير"، الوحيد الذي كان يمنحه هذا التدليل من قبل.

سرنا جنبًا إلى جنب، أنا والكلب، خلال الهبوب القوي للبرد الثلجي ولأدخنة خشب الصنوبر التي تهبط من المدافئ في شكل زوابع. لم أعد أعرف بالضبط فيمَ كنت أفكر خلال هذه الجولة الغريبة. لكني أعرف أنني وجدتُ نفسي فجأةً بعيدًا جدًا عن هذه الشوارع، بعيدًا جدًا عن القرية، بعيدًا جدًا عن الوجوه المألوفة والغريبة. كنت أسير مع إيمليا. كنا نشبك ذراعينا في بعضهما. وكانت ترتدي معطفًا من الجوخ الأزرق المطرز على الأكمام، وعلى ياقته حاشية من فراء أرنب رمادي. شعرها، شعرها

الجميل جداًّ، كان يلتف في قبعة صغيرة حمراء. كان الجو شديد البرودة. كنا نشعر ببرد شديد. كانت الثانية عصراً. وكنت ألتهم وجهها، كل إيماءاتها، يديها الصغيرتين، ضحكاتها وعينيها.

"حضرتك طالب إذن، يا سيدي".

كانت لها لهجة لذيذة، كانت تنزلق على الكلمات فتجعلها كلها، جميلةً كانت أو قبيحة، ذات رونق رقيق. طُفنا بمحيط البحيرة ثلاث مرات، بمتنزه إيلسي. لم نكن بمفردنا. كان هناك ثنائيات أخرى مثلنا. ينظرون إلى بعضهم البعض كثيراً، ويتحدثون قليلاً، يضحكون من لا شيء، ثم يعودون إلى السقوط في الصمت. كنت قد اقترضت ثلاث مليمات من أولي رات. اشتريت فطيرة ساخنة محلاة من بائع له كوخ قُرب ميدان التزلج. صب عليها ملعقة عسل كبيرة إضافية، وناولنا إياها وهو يقول: "للعشاق!". ابتسمنا، لكننا لم نجرؤ على أن يرانا نبتسم. قدمت الفطيرة إلى إيمليا. كانت تمسك بها كما لو كانت تمسك بكنز. قطعتها نصفين، وأعطتني النصف. كان الليل يحل، ومعه الجليد الذي جعل وجنتي إيمليا أكثر توردًا، وعينيها بُندقيتي اللون أكثر بريقًا. كنا نأكل الفطيرة. وكان كلٌّ منا ينظر للآخر. كنا في بداية حياتنا تماماً.

أطلق "لونيمست" زفرة طويلة أعادتني إلى القرية. تمسَّح فيَّ مرةً أخرى برأسه، ثم ابتعد بخطوات صغيرة، هازًا ذيله يمنةً ويسرةً كأنه يقول لي إلى اللقاء. تابعته بعينيَّ حتى لحظة دخوله خلف مخزن الأحطاب الذي كان بطول ورشة حدادة "جوت". لا شك أنه وجد ملجأ يقضي فيه الشتاء.

لم أكن أدرك الطريق الذي اجتزناه، أنا وهو. كنا قد وصلنا إلى آخر القرية، قريبًا جدًا من الكنيسة والمقبرة. كان الثلج لا يزال يهطل بكثافة. وكانت الغابة تبدأ على بعد ثلاثين مترًا تقريبًا، ومع ذلك فلم يكن ممكنًا تمييز حدها. ما إن رأيت الكنيسة حتى خطر ببالي القس بيير، ورأيت الضوء يأتي من مطبخه، فقررت أن أطرق بابه.

ـ ١٩ ـ

كان بيبر ينصت إليَّ وهو يملأ كأسه بانتظام. أفرغت حقيبتي. تكلمتُ طويلاً. تقريبًا قلتُ كل شيء. عدا السطور التي كنت قد كتبتها زيادةً على "التقرير". لكنني عبرت عن شكوكي، ومخاوفي. وعبرت عن هذا الشعور الغريب بأني وقعت في فخ، لم أكن قد توصلت إلى أن أفهم بالضبط مَن كان ينسج خيوطه، ومَن كان يمسك بها، ولماذا دفعوني إليه؟ ولا بالذات بأية طريقة سأنجح في الخروج منه. عندما صمتِ، ترك بيبر بعض الوقت يمر. جعلني الكلام في حالة جيدة.

"لمن تبوح، يا بروديك؟ إلى الإنسان، أم إلى من تبقى من الكاهن؟"

كنت مترددًا في الإجابة، لأني ببساطة لم أكن أعرف بماذا أجيب. وعندما أحس بيبر باضطرابي، عاد يقول:

"أطرح عليك السؤال لأنهما ليسا نفس الشيء، كما تعرف، حتى مع إدراكي بأنك لم تعد تؤمن بالله. سأساعدك بعض الشيء، وأعترف لك: أنا أيضًا لم أعد أؤمن بالله. تحدثتُ إليه لفترة طويلة، سنوات وسنوات، وطوال سنوات، كان يبدو لي بالفعل أنه كان يسمعني، وكان يجيب عليَّ أيضًا، بإشارات، بأفكار كانت تواتيني، بإيماءات كنت أقوم بها، ويلهمني

إياهـا. ثم، تـوقف كل ذلك. الآن، أعـرف أنـه غيـر مـوجـود، أو أنه رحل إلى الأبد، الأمر سيان: نحن وحدنا، ذلك كل ما في الأمر. ومع ذلك، أستمر في المحافظة على المكان، شيء سيئ بلا شك ولكن لا يزال واقفًا. لن يسبب أذًى لأحد، كما أن هناك بعض النفوس الشائخة التي ستصبح أيضًا، فضلاً عن ذلك، وحيدة، ومهملة أيضًا، لو أني تركتُ المسرح ينهار. وكل عرض - كما ترى - يمنحهم القليل من القوة، قوة الاستمرارية. ومع ذلك، فهناك مبدأ لا يمكن أن ننكره، مبدأ السرية، سرية الاعتراف. إنه صليبي، وأنا أحمله. وسأحمله حتى النهاية".

فجأةً أمسك بيديَّ وضمهما بقوة.

"أعرف كل شيء، يا بروديك. كل شيء. ولا تستطيع حتى أن تتخيل ما تعنيه كلمة كل شيء".

توقف لأنه لمح كأسه فارغة. نهض مرتعشًا وأطلق نظرات قلقة نحو الزجاجات التي كانت تملأ الحجرة. حرك خمسًا أو ستًا قبل أن يجد من بينها الزجاجة التي كان قد بقي فيها قليل من النبيذ. أخذها بين ذراعيه مبتسمًا، مثلما نحتفي بشخص عزيز سعدنا بالعثور عليه، وعاد ليجلس، ويصب لنفسه.

"غريبون هم البشر. يقترفون الأسوأ دون أن يطرحوا كثيرًا من الأسئلة، لكنهم- بعد ذلك- لن يستطيعوا الحياة مع تذكر ما فعلوه. لابد أن يتحرروا منه. لذلك، يأتون لرؤيتي لأنهم يعرفون أني الوحيد الذي أستطيع تهدئتهم، ويقولون لي كل شيء. أنا المزراب، يا بروديك. أنا لست قسًا، أنا الرجل المزراب. ذلك الذي يتم صب كل الصديد، وكل القاذورات، في رأسه، ليتحقق الهدوء وإرضاء حاجة طبيعية. وبعد ذلك، يرحلون كأن شيئًا لم يكن. جديدون تمامًا. نظيفون جدًا. مستعدون للبداية من جديد. عارفون أن المزراب قد انغلق على كل ما اعترفوا به له. أنه لن يتحدث عنه أبدًا لأحد. يستطيعون أن يناموا في سكينة، وأنا طوال ذلك يا بروديك، وأنا

أطفح، أطفح بفعل فرط الامتلاء. لم أعد أستطيع، لكني أتماسك، أحاول أن أتماسك. سأموت وكل مخزون الرعب هذا في داخلي. أترى هذا النبيذ؟ حقًا هو صديقي الوحيد. فهو يجعلني أنام، وأنسى، ولو لبضع لحظات، كل هذا الركام المقزز الذي أحمله بداخلي، هذا العبء العفن، الذي أودعوه فيَّ. ولو أني أقول لك ذلك، فليس من أجل أن تشفق عليَّ، ولكن لأنك تفهم.. فأنت تشعر فقط بأن الواجب قول الأسوأ، بينما أشعر فقط بواجب الغفران".

توقف، ورأيت عينيه - بوضوح، عبر الضوء المتعدد والمتحرك للقناديل- تمتلئان بالدموع.

"لم أكن أشرب قط، يا بروديك، فأنت تعرف ذلك جيدًا. قبل الحرب، كان الماء مشروبي اليومي، وكنت أعرف أن الله قريبٌ جدًا مني. الحرب.. ربما كان الناس بحاجة إلى هذه الكوابيس. إنها تدمر ما أخذوا قرونًا في بنائه. تدمر ما كنا نمتدحه بالأمس. تجيز ما كنا نحظره. تحبذ ما كنا ندينه. الحرب، إنها يدٌ كبيرة تكنس العالم. إنها المكان الذي ينتصر فيه الوضيع، ويكتسب فيه المجرم هالة القداسة، نعفر جباهنا أمامه، ونعبده. لابد إذن من أن تبدو الحياة للبشر رتابة مفجعة كي يرغبوا بذلك في المذابح والدمار؟ لقد رأيتهم يقفزون على حافة الهاوية، يسيرون على حدِّها، ويشاهدون بافتتان رعب الفراغ الذي كانت تضطرب فيه أدنى العواطف. الهدم! القذارة! الاغتصاب! الذبح! لو أنك كنت رأيتهم..."

بحركة حادة، أمسك القس بمعصمي في يده وضغط عليها.

"لماذا يتسامحون - في رأيك - مع عِظاتي غير المتسقة، وقُداساتي التي تتخللها اللعنات وهذيان السُّكر؟ لماذا يأتون كلهم إلى هنا؟ لماذا لم يطالب أحدهم قط الأسقف بعزلي؟ لأنهم خائفون، يا بروديك، بكل بساطة لأنهم خائفون مني، ومن كل ما أعرفه عنهم. إنه الخوف مَا يسيطر على العالم. يُمسك بالبشر من خصيهم الصغيرة. يضغط عليها بيده ,من حينٍ لآخر،

ليذكرهم بأنه قادر على أن يُبيدهم لو أراد. أرى وجوهم في كنيستي، وأنا جالس في منبري. أراهم في وداعتهم الزائفة. أشم عرقهم الحمضي. أشمه. ليس الماء المقدس ما يرشح من مفرق مؤخراتهم، تستطيع أن تصدقني! لابد أن يلعنوا أنفسهم لأنهم قالوا لي كل شيء.. أتذكر عندما كنتَ تساعدني في أداء القداس، يا بروديك؟"

كنتُ صبيًا صغيرًا، وكان القس يؤثر فيَّ كثيرًا. كان صوته عميقًا وناعمًا، صوت لم تثقله كؤوس النبيذ بعد. لم يكن يضحك قط. كان لديَّ قميص كنَسي أبيض، بياقة صغيرة لونها أحمر قرمزي. أستنشق البخور وأنا مغمض العينين، وكنت أعتقد أن الله يتسرب داخلي هكذا بسهولة أكبر. لم يكن ثمة أي شق في سعادتي الطوباوية. لم تكن هناك أجناس. لا فرق بين البشر. لقد نسيت مَن كنت، ومن أين أتيت. لم أُعر انتباهًا قط لطرف الشهوة الصغير الغائب بين فخذَي، ولم أُلَمْ عليه قط. كنا جميعًا شعب الله. بالقرب من المذبح، في كنيستنا الصغيرة، كنت أمكث بالقرب من القس بيبر. كان يقلب صفحات الكتاب المقدس. كان يلوح بالقربان والكأس. وكنت أهز الأجراس. كنت أقدم له الماء والنبيذ، وقماش المذبح الأبيض ليمسح شفتيه. كنت أعرف أن هناك جنة للمنضبطين ونارًا للمذنبين. بدا لى كل ذلك بسيطا. "جاء ليزورني ذات مرة...".

كان بيبر مطأطئ الرأس، كامد الصوت. كنت أظن أنه سيكلمني عن الله مرةً أخرى.

"لقد جاء، لكني أظن أنني لم أستطع سماعه. كان مختلفًا.. لدرجة.. أني لم أستطع.. لم أستطع سماعه". لكني فهمتُ فجأةً أن القس كان يحدثني عن "لاندرير".

"لم يكن يمكن أن ينتهي هذا الوضع إلا هكذا، يا بروديك. هذا الرجل كان مثل المرآة، انظر، لم يكن بحاجة لقول كلمة واحدة. كان يرسل لكل واحد صورته. أو ربما، كان المبعوث الأخير لله، قبلما ينغلق القفل وتُلقى

المفاتيح. أنا المزراب، فيما كان هو المرآة. والمرايا، يا بروديك لا يسعها إلا أن تتكسر".

وكأنه يدعم كلامه، أخذ بيبر الزجاجة التي كانت أمامه وضربها في الجدار. ثم أخذ أخرى، وأخرى، وثالثةً أيضا، وكلما تكسرت الزجاجات وتناثرت آلاف الشظايا الزجاجية، كان يضحك، يضحك كممسوس، بصراخ شديد.

"سبع سنوات من البؤس! سبع سنوات من البؤس! سبع سنوات من البؤس!"

ثم توقف فجأةً، وانقض على المنضدة براحة يده، وراح ينتحب كطفل.

ظللتُ للحظة بالقرب منه، دون أن أجرؤ على التحرك أو قول أي شيء. نخر مرتين، بصوت عالٍ، ثم ساد الصمت. مكث هكذا مسترخيًا على المنضدة، مخبئًا رأسه بين ذراعيه. أخذت الشموع- واحدةً تلو الأخرى- في الانطفاء. أصبح المطبخ تدريجيًا خافت الضوء. نخراتٌ هادئة تصاعدت من جسم بيبر. كانت أجراس الكنيسة تدق الساعة العاشرة. خرجتُ من الحجرة، مغلقًا الباب بهدوء شديد خلفي.

في الخارج، أدهشني الضوء. لقد توقف هطول الثلج، وصفت السماء تمامًا. لا تزال السحب الأخيرة تحاول التعلق بالقمم الجبلية، لكن الريح- التي كانت قد أتت الآن من الشرق- أخذت في تنظيف البيت، بتمزيقها إلى قصاصات بالغة الصغر. أخرجت النجوم حُليها الفضية. عندما كنت أرفع رأسي وأنظر إليها، أشعر بأني أغرق في بحر مظلم ومتلألئ في آن واحد. ومن ثم، كانت أعماق المداد مزينة بلآلئ مضيئة ولا نهائية. كانت تبدو قريبةً جدًا ,لدرجة أني قمت بحركة غريبة، فمددت يدي كما لو كنتُ أستطيع بأصابعي الإمساك بحفنة منها، لأدسها تحت سترتي، كي أقدمها لبوبشيت.

كان الدخان يتصاعد مباشرةً من المدافئ. وكان الهواء قد عاد مرةً ثانيةً جافًا للغاية، وأمسك التجمد بكُتل من الثلج أمام المنازل، مشكلاً على سطحها قشرة صُلبة ولامعة. شعرتُ في جيبي بالأوراق التي قرأتها قبل بضع ساعات أمام الآخرين، أوراق رقيقة، خفيفة جدًا، إلا أن لها وزنًا ثقيلاً، وتُحرق جلدي.

كنت أفكر - مرةً أخرى- فيما قاله لي بيبر بخصوص "لاندرير". وجدت صعوبةً بالغة في التفريق بين هذيان السُّكر وكلمات رجل اعتاد أن يتلاعب بالحكم الرمزية. تساءلت - على نحو خاص - لماذا أتى "لاندرير" لرؤية القس، فيما كنا نلاحظ جميعًا أنه كان يهرب بسرعة بالغة من الكنيسة، ولم يكن يذهب قط إلى القداس. ماذا كان يمكن أن يقول له؟

عندما مررت بالقرب من نُزل شلوس، رأيت أن النور لا يزال مُضاءً في القاعة الكبرى. وانتني رغبةٌ في الدخول، في هذه اللحظة، دون أن أعرف لماذا!

كان ديتر شلوس يتناقش - وهو واقف وراء ماكينته - مع كاسبر هوسورن. كان كلٌّ منهما منحنيًا نحو الآخر، يتحدثان، لدرجة أني ظننتُ أنهما سيتعانقان. ألقيتُ تحيتي التي جمدتهما بشكل واضح، ثم ذهبت لأجلس إلى المنضدة في الزاوية. بالتحديد بجوار المدفأة.

"ألا يزال لديك نبيذ ساخن؟"

أومأ شلوس بالإيجاب. التفت هوسورن ناحيتي، وأتى بحركة سريعة من رأسه كان يمكن اعتبارها "مساء الخير". انحنى من جديد نحو شلوس، وهمس إليه بشيءٍ ما، مما جعل صاحب النُّزل يبدو راضيًا، أخذ قبعته وشرب كأس البيرة جرعةً واحدةً، وذهب دون أن ينظر إليَّ.

هي المرة الثانية التي آتي فيها إلى النُّزل منذ "الإيرينيه". وكما في المرة السابقة، كان صعبًا تخيل أن مشهد القتل قد وقع في هذا المكان العادي

تمامًا. كان النُّزل يشبه أي نُزل في القرية، بعض المناضد، مقاعد، أرائك، قنينات على الأرفف، مرايا ذات أُطر مغطاة بقدر من السناج، لدرجة أنها لم تعد تعكس شيئًا منذ وقت طويل، قطعة موبيليا تحوي ألعاب الشطرنج ولعبة الدامة، ونشارة على الأرضية. في الأعلى، كانت هناك الغُرف. أربع بالضبط. ثلاثٌ منها لم تكن قد شُغلت منذ فترة طويلة. أما الرابعة، الكبرى، والأجمل أيضًا، كان يقطنها "لاندرير".

في اليوم التالي لـ"الإيرينيه"، بعد زيارتي لأورشفير، كنت قد مكثت ساعةً تقريبًا عند الأم بيتيس، أستجمع نفسي، وأهدئ عقلي وقلبي، فيما كانت أمامي تُقلب صفحات كتاب الأعشاب، وتعرض لي كل الزهور المصورة في الكتاب. ثم، عندما أصبح كل شيءٍ تدريجيًا جليًا في رأسي، تركتها شاكرًا، لأذهب مباشرةً إلى النُّزل. وجدت بابه مغلقًا، ومصاريعه مطبقة. كانت المرة الأولى التي أرى فيها نُزل شلوس هكذا. طرقتُ الباب، بدقات قوية متتالية، وانتظرت. لا شيء. طرقتُ من جديد، بقوة شديدة أيضًا، وهذه المرة انفتح المصراع قليلاً، وظهر شلوس خائفًا حذرًا.

- "ماذا تريد، يا بروديك؟

- أكلمك.. افتح!

- ربما ليست هذه اللحظة المناسبة.

- افتح، يا شلوس، فأنت تعرف جيدًا أنني لابد أن أعد "التقرير"".

خرجت الكلمة وحدها من فمي. كنت أستخدمها للمرة الأولى. أشعرني ذلك بغرابة شديدة، لكنها كانت ذات تأثير مباشر على شلوس. أغلق المصراع، وسمعته ينزل مسرعًا. بعد عدة ثوان، أدار الرتاج وفتح الباب.

"ادخل بسرعة!".

أعاد إغلاق الباب ورائي بالسرعة التي لم أستطع معها أن أمنع نفسي من سؤاله عما إذا كان يخاف من شبحٍ ما سيندس في الفندق.

"لا تمزح في ذلك، يا بروديك..."، ثم رسم علامة الصليب مرتين.

- "ماذا تريد؟

أن تدعني أصعد إلى الحجرة.

- أية حجرة؟

- لا تتظاهر بعدم الفَهم. الحجرة.

بدا شلوس مفكرًا ومترددًا.

"لماذا تريد رؤيتها؟

- أريد أن أراها الآن. أريد أن أكون دقيقًا. لا أريد أن أنسى شيئًا. لابد أن أحكي كل شيء".

مرر شلوس يده على جبينه الذي كان يلمع كما لو كان قد دعكه بدهن خنزير.

"ليس هناك شيء مهم لتراه، ولكن طالما أنك تُصر... اتبعني".

صعدنا إلى الطابق الأعلى. كان شلوس يشغل بجسمه الضخم السُّلَّم كله، مزلزلاً كل درجة من درجات السُّلَّم. كان يتنفس بقوة. وصل إلى بَسطة السُّلم، أخرج مفتاحًا من أحد جيوب صدريته، ومده لي.

"سأدعك تفعل ما تريد، يا بروديك".

كان عليَّ أن أحاول ثلاث مرات قبل أن أستطيع إدارة المفتاح في القفل. لم أكن قادرًا على التحكم في ارتعاشة يدي. كان شلوس منكمشًا، يحاول التقاط أنفاسه. أخيرًا صدر صوت انفصال. فتحت الباب. كان قلبي يبدو لي مثل قلب عصفور مطارَد. كنت خائفًا من رؤية هذه الحجرة، خائفًا كأني سأقابل ميتًا، ولكن ما رأيته أدهشني لدرجة أن قلقي تلاشى في الحال.

كانت الحجرة خاليةً تماماً. لم يعد يوجد بها أثاث، ولا أشياء، ولا ملابس، أو حقائب، باستثناء دولاب كبير مثبت بالحائط. فتحت ضلفتيه، كان أيضًا خاليًا. لم يكن ثمة أي شيء. كما لو أن "لاندرير" لم يسكن قط هنا. كما لو أنه لم يكن موجودًا قط.

"أين ذهبت حقائبه؟

عمَّ تتكلم، يا بروديك؟

لا تسخر مني، يا شلوس".

كانت الحجرة تفوح برائحة الخشب الرطب والصابون. كانت الأرضية مبللة بماء كثير ومدعوكة. في المكان الذي كان به السرير منذ وقت قريب، كان يمكن تمييز بقعة كبيرة أكثر دُكنة على الباركيه المصنوع من خشب الأرز.

"أنت الذي غسلت الأرضية؟

لابد أن شخصًا ما قام بذلك...

وهذه البقعة؟ ما هي؟

ماذا ترى، يا بروديك؟"

التفتُّ نحو شلوس.

- "ماذا ترى..."، كررها بهيئة متعَبة.

ـ ٢٠ ـ

استيقظتُ متأخرًا جدًا هذا الصباح. وفي رأسي مطارق تدق. أظن أنني شربتُ بالأمس كثيرًا فعلاً. أصبحت زجاجة العرقي تقريبًا فارغةً تمامًا. فمي جاف كالصوفان، ولم أعد أعرف بأية معجزة اهتديت إلى طريق سريري. أكتب متأخرًا، وأتذكر أنني لم أكن أحس بأصابعي التي أصبحت مخدرةً بفعل البرد. أتذكر أيضًا أن مفاتيح الآلة قد تعطلت أكثر فأكثر. على زجاج النافذة، كان سرخس الصقيع قد وضع أغصانه، وكنت مخمورًا لدرجة أني اعتقدت أن الغابة هي التي كانت تزحف لتحيط بالمخزن، لتخنقه، وتخنقني معه.

عندما استيقظت، لم تطرح فيدورين عليَّ أية أسئلة. أعدت لي مشروبًا تعرفت فيه على أريج السعتر والنعناع البني ونبات المُخلدة. قالت ببساطة: "اشرب هذا، فهو جيدٌ بالنسبة لما أنت فيه". فعلت ما قالته، مثلما كنت صغيرًا. ثم وضعت أمامي سلة كان ألفريد فورتسفيلر قد أحضرها في وقت سابق. كان فيها حساء بطاطس، خبز رمادي، نصف فخد خنزير مملحة، تفاح وكُراث. لكن لا نقود. لم تكن هذه المرة كالمعتاد، عندما تصل حوالة من شلوس توضح أن الإدارة لم تتسني تمامًا. في هذه الحالة، تكون

ثمة نقود ومعها ثلاث أو أربع وثائق رسمية، مختومة عدة مرات، موقع ومصدق عليها، مما يؤكد الدفع. لكن هنا، في هذه السلة، ليس سوى الغذاء. لم أستطع عدم الربط بين جلسة استماعي- الليلة السابقة، أمام العمدة والآخرين- وهذا الغذاء. هكذا، دفعوا لي. دفعوا لي القليل. بخصوص "التقرير". من أجل ما كتبته من قبل، ولا سيما، لا سيما من أجل ما لم أكن قد كتبته.

كانت فيدورين مشغولةً بتحميم بوبشيت في دلو. كانت بوبشيت تضرب بيديها وتصفق في الماء الدافئ. كانت تضحك بصوت عالٍ وهي تكرر: "سمكة صغيرة! سمكة صغيرة!". أخذتُها بين ذراعَيَّ، مبلولةً تمامًا، ضممتها واحتضنتُ جلدها العاري، الطري والدافئ، مما جعلها أيضًا تضحك أكثر. خلفنا وقبالة النافذة,بعينيها الزائغتين بعيدًا نحو بياض الوادي الشاسع، كانت إيمليا تدندنُ أغنيتها. أخذت بوبشيت تخبطني فأنزلتها إلى الأرض. أخذت قليلاً من الرغاوي في يدها وجرت خلف أمها، وألقت عليها الرغوة. التفتت إيمليا نحو الصغيرة، دون أن تتوقف عن الغناء. ركزت عينيها المنطفئتين على ابتسامة بوبشيت الجميلة، ثم نظرت مرةً أخرى إلى البياض.

أشعر بأني ضعيف وبلا فائدة. أحاول أن أكتب أشياء. لكن مَن سيقرأها؟ مَن؟ من الأفضل أن آخذ بوبشيت وإيمليا بين ذراعي، والعجوز فيدورين فوق ظهري، وصُرةً ممتلئة بالأشياء، ملابس، بعض الذكريات الجميلة، وأمضي بعيدًا عن هنا. نبدأ من جديد. نبدأ من جديد تمامًا. بذلك يبدو أن المرء يعيد التعرف على الإنسان مرةً أخرى، كما كان نوزيل يقول لنا في الماضي. "الإنسان حيوان يبدأ من جديد دائمًا". كان نوزيل يطلق أحكامه مع وقفات خطيب شعبي، مستندًا بيديه على مكتبه العريض، مخلفًا وراءه دائمًا صمتًا مطبقًا كان كلٌّ منا يملأه على طريقته.

"الإنسان حيوانٌ يبدأ من جديد دائمًا". ولكن ما الذي يبدأه من جديد بلا توقف؟ أخطاءه أم حججه الواهية، التي تستطيع أحيانًا رفعه بإصبعين إلى السماء؟ ذلك ما لم يكن ليقوله قط نوزيل. ربما لأنه كان يعرف أيضًا أن الحياة نفسها، الحياة التي لم نكن قد دخلناها تمامًا بعد، ستنتهي ذات يوم أو آخر، بأن تجعلنا نفهم. أو ربما لأنه- بكل بساطة- لم يكن يعرف شيئًا، لأنه هو نفسه لم يكن قد تملكه التردد قط، ولأنه - من فرط امتناعه عن الرضاعة منذ زمن سوى من ثدي الكتب - نسي العالم الحقيقي، ونسي هؤلاء الذين يعيشون فيه.

مساء أمس، ودون أن أدعوه، جلس شلوس في مواجهتي، بعد أن أحضر لي نبيذي الساخن. كنت أشعر حقًا أنه كان يريد أن يقول لي شيئًا ما، لكني لم يكن لديَّ ما أقوله له. كنت لا أزال مشغولاً جدًا بكل ما حكاه لي القس بيبر. ثم إن ما كنت أريده ببساطة هو أن أحتسي كأسًا من النبيذ الساخن، أن أشعر بالنار تؤجج جسمي. هذا كل ما في الأمر. لم أكن أبحث عن شيء آخر. كان رأسي يعج بأسئلة بلا أجوبة، وبمئات القطع الصغيرة من آلة كبيرة، كان ما يزال عليَّ أن أكتشفها، لأقوم بتجميعها معًا.

"أعرف أنك لا تحبني كثيرًا، يا بروديك"، فجأةً همس شلوس فيما كنت قد نسيتُ وجوده أمامي؛ "ومع ذلك، فأنا لست الأسوأ، كما تعرف".

كان صاحب النُّزل يبدو لي أضخم وأكثر تعرقًا من المعتاد. كان يثني أصابعه ويعض شفتيه اللتين كانتا دهنيتين ومتشققتين.

"إنني أفعل ما يقولونه لي، ذلك كل ما في الأمر. لا أريد حكايات، هذا مما لا يمنعني من التفكير... فأنا لست إلا رجلاً بسيطًا، ليس لديَّ ذكاؤك، وأيًا ما قد تفكر فيه، فليست لديَّ رذيلةٌ أيضًا. فأنا لست الأسوأ. بالفعل، قدمتُ الشراب لل"فراترجيكم" عندما احتلوا القرية. ولكن ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ إن مهنتي أن أقدم الشراب. ومع ذلك، فما كنت لأترك نفسي ليقتلوني، لأني رفضتُ أن أقدم لهم كأس البيرة؟ لقد أسفت

كـثـيـرًا لمـا حـدث لك يـا بـروديك، أقـسم لك، ولم يـكن لي في ذلك يـد، صدقني.. أما ما فعلوه بزوجتك.. يا إلهي.."

أوشكت أن أبصق في وجه شلوس عندما ذكر إيمليا، إلا أن بضع كلمات التي قالها فيما بعد أوقفتنى فجأة.

"أنا أيضا كنت أحبها، زوجتي، كما تعرف. قد يبدو لك ذلك غريبًا، لأنها لم تكن جميلة جدًا لو تذكر، إلا أنها منذ أن لم تعد موجودة فإنني أشعر بأني نصف حي. لم يعد شيءٌ ذا أهمية بالنسبة لي. ولو أن جيرت كانت هنا، أثناء الحرب، فلربما لم أكن لأخدم قط الـ "فراترجيكم". كنت أشعر بالقوة في وجودها.. لربما كنت قد بصقتُ في وجوههم. ربما كنت أمسكتُ بالسكين الكبيرة التي أستخدمها في تقطيع البصل، وفتحت كروشهم. ثم، لو كانت لا تزال هنا، ربما... لربما ظل "مورملنر" على قيد الحياة، لربما كنت قد قاتلت بدلاً مما فعله، تحت سقف بيتي..."

كنت أشعر ببطني يقرقع. شعرت قليلاً بالغثيان. لم يكن النبيذ الساخن يقوم بعمله. لم يدفئني، كان يعض أحشائي، كما لو أن في بطني كان هناك فجأةً حيوان صغير يحاول غرس أسنانه في كل مكان تقريبًا. نظرت إلى شلوس كأني لم أكن قد رأيته قط من قبل. كان كما لو أن رقعةً من ضباب قد تمزقت، شيئًا فشيئًا، لتسمح لنا بأن نرى من خلفها لوحة طبيعية غير منتظَرة، فيها تنتظم التضاريس في تناغم غريب. في نفس الوقت، كنت أتساءل عما إن لم يكن شلوس يحاول خديعتي. إنه لسهل دائمًا أن تندم على ما حدث بعد فوات الأوان. هذا لا يكبد شيئًا، بل يسمح بغسل اليد والذاكرة معًا بماء وفير، ويجعلهما نقيتين وبيضاوين. ولكن - رغم ذلك - فما قاله لي بيبر بخصوص الاعتراف والمزراب، لهو ذو دلالة! كان عليهم جميعًا أن يمروا على الكنيسة، ولم يكن على شلوس أن يكون الأخير. ثم إنني أتذكر جيدًا هيئته ووجهه مساء "الإيرينيه"، ولم يكن يبدو على هيئته الانكماش. لم يكن يبدو أنه استنكر الجريمة التي ارتُكبت بين جدرانها، أيًا

كان ما يقوله لي الآن. لم يكن يبدو عليه هيئة رجل تلبسه الهلع والرعب مما جرى.

لم أكن أعرف كثيرًا فيمَ يفكر. لا أعرف غالبًا ما يفكر فيه. إنه بلا شك انتصارٌ عظيم للمعسكر على السجناء: الأوائل ماتوا، والآخرون مثلي- الذين يستطيعون الهروب- دائمًا ما يحتفظون بجزء من القذارة في أعماقهم. لم يعد باستطاعتهم قط أن ينظروا إلى الآخرين دون أن يتساءلوا داخلهم عما إن كان في أعماق نظرات مَن يقابلونهم ثمة رغبة في المطاردة، والتعذيب أو القتل. لقد أصبحنا فرائس للأبد، مخلوقات - مهما فعلت- سترى دائمًا النهار الذي يشرق باعتباره محنة طويلة لابد من اجتيازها، والمساء الذي يحل بشعور غريب من السكينة. ففينا خميرة الإحباط واللاطمأنينة. أعتقد أننا أصبحنا، وحتى الموت، ذاكرة الإنسانية المدمَّرة. نحن جروحٌ لا تندمل أبدًا.

"قد لا تعرف أنه كان لدينا من قبل طفل، تابع شلوس. ربما لم تكتب لك فيدورين في هذه الفترة. إنها الفترة التي كنتَ بعيدًا فيها عنا، فترة دراستك. طفل لم يعش سوى أربعة أيام وأربع ليالٍ. ولد، قالت عنه القابلة العجوز باولا بكنارت - فلترقد في سلام - إنه شلوس الصغير تمامًا. أخرجته من رحم جيرت في السابع من أبريل. كانت العصافير تغرد في الخارج، وبراعم شجر الأرز أصبحت ضخمة كثمرة الخوخ. عندما وضعوه بين يديَّ لأول مرة اعتقدت أنني لن أستطيع الإمساك به. كنت خائفًا من أن أضغط عليه، أن أخنقه بيديَّ الضخمتين، كما خفت من أن أتسبب في وقوعه على الأرض، ومن أن ينكسر كبلّورة. كانت جيرت تسخر مني، وهو، الصغير، كان يصرخ بقوة، ويضرب بيديه وقدميه ,لكنه ما إن عثر على ثدي جيرت، حتى أخذ يمص لبنها ويرضع بلا توقف، كأنه كان ينتوي أن يفرغه تمامًا. جعلت هانس دودا يصنع له مهدًا من جذع شجرة جوز، شجرة جوز جميلة، كان يحتفظ بها ليصنع دولابًا، لكني وضعتُ قطع الذهب على منضدة عمله، ثم اتفقنا".

كانت أظفار شلوس كبيرة وقذرة. أولاً بأول، كان يحاول تنظيفها، وهو يحكي لى عن طفله دون أن ينظر إليها، لكنه لم يستطع نزع السواد المحيط بها.

"كان يشغل ذلك المهد كله. كان يركله من الداخل بقدميه الصغيرتين، استجمع في ذلك كل قوته، مما خلق ضوضاء جميلة، تشبه ضربات بلطة بعيدة في الغابة. كانت جيرت تريد أن تسميه ستيفان وأنا كنت أفضل ريشارت. في الحقيقة، أُخذنا بغتة: فنحن الاثنين كنا مقتنعين بأن الطفل لا يمكن أن يكون إلا بنتًا. هذه الطفلة التي لم تأت قط، أطلقنا عليها من قبل اسم: ليزبيث، لأن ليز اسم أمي، و بثسي اسم أم جيرت. ولكن عندما أتى الرجل الصغير إلى النور، ورفعته القابلة نحو السماء، لم يكن لدينا اسم له. وأثناء حياته القصيرة، ذات الأيام الأربعة، لم نكن نكف عن التشاجر ونحن نضحك، جيرت وأنا. كنت أقول: "ريشارت"، وهي ترد "ستيفان". أصبح ذلك لعبة، لعبة انتهت بعناق ومحبة. حتى إنه عندما توفي الطفل لم يكن له اسم. مات بلا اسم. منذ ذلك الوقت، لم أسامح نفسي، كما لو أن ذلك - إلى حدٍّ ما- هو ما قتله".

سكت شلوس وطأطأ رأسه. لم يعد يتحرك فيه شيء. كان كأنه توقف عن التنفس. كانت في فمي رائحة القرفة والقرنفل، وفي بطني لا تزال العضة الكبيرة.

"في لياليَّ، أحيانًا ما أحلم به، يمد يديه نحوي، يديه الصغيرتين تمامًا، ثم يذهب، يبتعد، كأن قوة تختطفه، وأنا، ليس لديَّ اسم لأناديه به، ليس لديَّ اسم أقوله لأحاول استبقاءه".

رفع شلوس - مرةً أخرى - رأسه وقال هذه الكلمات، واضعًا عينيه الكبيرتين في عيني. كان ذلك يأخذ مساحةً كبيرة، ويزيد عن الحد. خنقتني أيضًا هذه النظرة. لا شك أنه كان ينتظر أن أتكلم، أن أقول كلمة،

لكن أية كلمة؟ كنت أعرف جيدًا أن الأشباح يمكن أن تكون لها حياة فعلية، وأنها أحيانًا أكثر حضورًا من الأحياء.

"ذات صباح,وبينما أصحو من النوم، لم أسمع شيئًا. لم تكن جيرت في السرير. كانت تقف بجانب المهد. كان تنظر إلى الطفل بلا حراك. ناديتها. لم ترد. بل لم تُدر حتى رأسها نحوي. ذهبت نحوها وأنا أدندن بالأسماء: ستيفان، ريشارت.. وقفت جيرت متوثبة، وقفزت فوقي كحيوان أصابه الجنون، تحاول أن تضربني، تمزق فمي، تخريش وجنتَي. رأيت وجه الطفل في المهد. كانت عيناه مغمضتين، وأخذ جلده لون الإردواز".

لا أدري كَم من الوقت مكثت مع شلوس. ولم أعد أتذكر أيضًا ما إذا كان قد واصل حديثه عن طفله، أم ظل في مواجهتي صامتًا. خبت النار في المدفأة. لم يُلقمها ثانيةً. انطفأ اللهب، ثم بعده القليل من الجمر. الجو بارد. وقفتُ لحظةً ما، ورافقني شلوس حتى الباب. ضغط على يدي طويلاً، ثم شكرني. مرتين. على ماذا شكرني؟

في طريق العودة كان رأسي يدوي، وشعرت بأن صدغيَّ يصطكان ببعضها كالصاجات. فوجئت بأني أقول بصوت عالٍ اسم بوبشيت عدة مرات: "بوبشيت، بوبشيت، بوبشيت..". كحصًى رنان ألقي في الهواء، وسيعيدني بأقصى سرعة إلى منزلي. لم أستطع منع نفسي من التفكير في طفل شلوس الميِّت، وفي كل ما أخبرني به، وفي بضع الساعات الماضية، في عالمنا. يا لها من حياة غريبة لهذا الرجل؟ حين نلقي بأنفسنا فيها ذات مرة، كثيرًا ما نتساءل عما يحدث فيها. ولذلك، فربما كان ذلك السبب في أن البعض، الأكثر مكرًا من الآخرين، يكتفون بأن يدفعوا الباب قليلاً فحسب، ملقين نظرةً ويلمحون ما خلفه، ثم تتملكهم الرغبة في إغلاقه بأسرع ما يمكن.

ربما يكون هؤلاء هم مَن على حق!

ـ ٢١ ـ

أعـود إلى الـيـوم الأول. أو بـالأحـرى إلى المـسـاء الأول. مـسـاء وصـول "لاندرير" إلى قريتنا. تكلمت عن مقابلته مع الابن الأكبر من أبناء دورفر، لكني لم أتحدث عن وصوله إلى النُّزل، بعد بضع لحظات بعد ذلك. لقد قمت بالحكي من خلال ثلاث روايات، ومن خلال ثلاثة شهود مختلفين: شلوس نفسه، مينيج ڤيرفراو الخباز، الذي كان قد أتى إلى النُّزل ليحتسي كأس نبيذ، ودوريس كلاترمير، الفتاة المتوردة ذات الشعر المصفَر مثل الكلأ التي كانت تمر بالشارع في ذلك الحين. شهود، كان ثمة غيرهم آخرون، في النُّزل وخارجه، لكن الثلاثة الذين سألتهم أخبروني بالأحداث بالضبط بنفس الطريقة- وبتفاصيل متقاربة- ولم أعتقد أن من المستحسن أن أمضي إلى ما هو أبعد.

كان "لاندرير" قد نزل عن مطيته عندما كان يتكلم مع ابن دروفر، واستمر في سيره هكذا في الشوارع، ممسكًا بمقود حصانه، يتبعهم الحمار ببضع خطوات خلفهم. وإذ وصل أمام النُّزل، ثم ربط المقود في حلْقة، وبدلاً من أن يفعل مثلما يفعل الجميع، أي يدفع الباب ويدخل،طرق ثلاث مرات وانتظر. كان هذا المسلك غير معتاد لدرجة أنه انتظر طويلاً.

"ظننتُ أنه ممثل هزلي، أو بالأحرى، أيضًا صبي!"، قال لي ذلك شلوس. "باختصار، لم يحدث شيء، فلم نفتح له الباب، وهو أيضًا لم يفتحه. كان البعض قد توقف، ومنهم الصغيرة دوريس، لمشاهدة الظاهرة، الحصان، الحمار، الحمولة والرجل الأبله الذي يرتدي، بشكل غريب، زيًّا مضحكًا وهو مغروس أمام الباب، بابتسامة على وجهه المستدير المزين بالمساحيق. بعد عدة دقائق، طرق الباب مرةً أخرى ثلاث طرقات، حادة وقوية. "هنا قلت لنفسي إن هناك شيئًا ما غير عادي، وذهبت لأرى".

عندها يفتح شلوس الباب، ويلتقي وجها لوجه"لاندرير". "أوشكتُ أن أبتلع لساني! من أين خرج هذا؟ من سيرك أم من حكاية؟". لكن "لاندرير" لم يعطه الفرصة ليتمالك نفسه. حسر رأسه، حرر رأسه المستدير الأصلع، وقام بتحية بسيطة، بشكل مرن ولطيف بقبعته الغريبة,وقال: "سلامًا لكم يا سيدي. أصدقائي - وهنا أشار نحو الحمار والحصان - وأنا، كنا في سَفر طويل، ومتعبين جدًّا. أتتكرم باستضافتنا؟ سوف ندفع لك بكل تأكيد".

كان شلوس واثقا أن "لاندرير" قال: "سلامًا لكم يا سيدي شلوس"، لكن الصغيرة دوريس وكذلك ڤيرفراو أكدا لي العكس. كان شلوس بلا شك مندهشًا من هذا الشبح الغريب، ومن طلبه الذي طلبه لدرجة أنه شرد للحظات. "لم أعرف بماذا أرد عليه على الفور! منذ كم من السنوات لم نستقبل زوارًا، عدا هؤلاء الذين نعرفهم! ثم إن هذه الكلمات كان ينطقها بـ"ديبير شافت"- باللغة المحلية - وليس بالعامية، ولم تكن أذناي قد تعودتا عليها".

قال لي مينيج ڤيرفراو إن شلوس قد ظل لبرهة بلا رد، وهو ينظر لـ"لاندرير" ويهرش رأسه. أما "لاندرير"، فقد ظل - على ما يبدو - جامدًا، مبتسمًا، كما لو أن كل ذلك عادي، ولم يكن للوقت الذي ينساب قطرة قطرة في أنبوب ضيق أدنى أهمية. "حتى حماره وحصانه لم يتحركا -

كانت دوريس كلاترمير هي التي تتكلم - كانت الدابتان تنظران إلى شلوس، على نحو كنا نظن معه أن في عيونهما ذكاء". ارتجفت قليلاً عندما أخبرتني بذلك، ثم رسمت علامة الصليب مرتين. لدينا، بالنسبة لمعظم الناس، فالله مخلوق بعيدٌ من الكتب والبخور، فيما الشيطان قريب بحيث أن الكثيرين يعتقدون أنهم لمحوه ذات يوم أو آخر.

انتهى شلوس إلى أن قال شيئًا ما بعد ذلك. "سأله عن عدد الليالي التي ينوي أن يقضيها". كنت قد ذهبت لأرى ڤيرفراو الذي كان يعجن. كان عاري الجذع، يغطي الدقيق صدره، وأهداب عينيه أيضًا. كان قد أمسك بقالب العجين الكبير بذراعيه جيدًا، رفعه وقلبه، ثم تركه يقع داخل المعجن، ثم يبدأ من جديد. كان يكلمني دون أن ينظر إليّ. وجدت مكانًا بين كيسين ومخزن الأحطاب. كان الفرن يصفر منذ لحظة تقريبًا، وقطعة الخبز الصغيرة كان يبدو أنها تنضج من خلال رائحة الخشب الذي كان يحترق. "بدا الآخر كأنه يفكر قليلاً، وكان دائم الابتسام، نظر إلى حصانه وحماره كأنه يسألهما رأيهما، ثم أجاب أخيرًا بصوته الغريب: "أعتقد أننا سنقيم لمدة طويلة". حينئذٍ ,ولأن شلوس لم يكن يعرف بلا شك بماذا يجيب، ولم يكن يريد أن يبدو بمظهر الأبله، حرك رأسه عدة مرات، ثم عرض عليه الدخول".

بعد ذلك بساعتين، كان "لاندرير" قد استقر في الحجرة، التي سرعان ما كان شلوس قد أزال عنها الغبار. كانت حقائبه وصناديقه قد حُملت إلى الحجرة، وحصانه وحماره كانا قد ناما على سرير مريح من القش، في حظيرة الأب سولنزر، وهو عجوز ودود ونحيل، تقع في الجهة المقابلة للنُّزل تمامًا. كان قد طلب أن يوضع بالقرب من الحيوانات دلو ماء نقي تمامًا ودلو من العلف. كان قد جاء ليتأكد من طيب مقامهما، كما غسل لهما خواصرهما بليفة من العشب، وهمس في أذنيهما ببعض الكلمات التي لم يسمعها أحد. ثم وضع ثلاث قطع من الذهب في يد الأب سولنزر، كانت

تمثل مقابل عدة شهور من إقامة المطيتين. وعندما خرج من الحظيرة، ودع دابتيه وتمنى لهما ليلة طيبة.

في غضون ذلك، كان النُّزل قد امتلأ، وكان الكثيرون قد أتوا ليروا بأم أعينهم هذا الظاهرة. بل إنني أنا نفسي، مَن لا تهمني غرائب الطبيعة، عليَّ أن أعترف أني قد ذهبت بالفعل لأراه أيضًا. كان الخبر قد شاع في الشوارع والمنازل بسرعة البرق، ووجُد في النُّزل ما يقرب من الثلاثين، فيما كان الليل البارد في الخارج قد حل على المنازل. ولهذا، في ذلك المساء، كان انتظارنا بلا طائل، لأن "لاندرير" لم ينزل من حجرته، ما إن صعد إليها. كانت الأحاديث تمضي على نحو طيب. وأيضًا الكؤوس، فلم يكن لدى شلوس سوى ذراعيه الاثنتين لإرضاء الشاربين. ولابد أنه قال في نفسه إن وصول السائح كان ذا فائدة في النهاية. فذلك ما جعل تجارته تروج كما في يوم عيد شعبي أو في جنازة. لم يتوقف مينج ڤيرفراو عن وصف وصول "لاندرير"، زيه المضحك، حصانه وحماره؛ وتدريجيًا، بما أن الجميع كانوا يدفعون له ثمن كأس لفك عقدة لسانه، فقد بدأ يزخرف حكايته، فيما كان يضغط – في نفس الوقت – على كل كلمة.

إلا أنه، من حين إلى آخر,كانت تُسمع خطوات في الطابق الأعلى، وتصمت كل القاعة، ويحبس الجميع أنفاسهم. كانت النظرات تستقر على السقف كأنها ستخترقه. كان يتم تخيل الزائر. يتم منحه هيئة وجسمًا. وثمة سعي إلى الدخول في تلافيف رأسه، حتى دون رؤيته.

في لحظةٍ ما، صعد شلوس ليسأله ما إذا كان كل شيء على ما يرام. حاولنا سماعَ حوارهما، لكننا لم نسمع شيئا: وحتى مَن دسُّوا آذانهم في السُّلَّم خاب أملهم. أحطنا بشلوس عندما نزل:

"إذن؟

– إذن ماذا؟

- حسنًا، ماذا قال لك؟

- قال إنه يريد" لُمجة".

-" لُمجة"؟ ما هذه؟

- عشاء خفيف، هذا ما قاله لي.

- ماذا ستعد له؟

- ما طلبه مني!"

كان كل منا يثيره الفضول ليرى ما يمكن أن تكون "اللُمجة". تبع معظمنا شلوس إلى المطبخ وشاهده يُعد صينية كبيرة، وضع عليها ثلاث قطع كبيرة من لحم الخنزير، وبعض النقانق، والخيار المخلل، ووعاء قشدة، ورطلاً من الخبز الأسمر، وبعض الكُرنب الحريف وجبن الماعز، وكذلك قنينة نبيذ وكوبًا من البيرة. عندما مر بين الزبائن الموجودين، كان يمسك بالصينية بورع، وكل واحد ينتحي جانبًا صامتًا كأنه أمام موكب لرفات قديس. كان صوت فيرفراو الوحيد الذي يخل بالصمت: كان لا يزال يصف وصول "لاندرير" أمام النُّزل. لم يعد يسمعه أحد، ولكن، نظرًا لحالته، لم يعد يستطيع إدراك ذلك. وبعد قليل، لم يلحظ أنه كان يخلط ما بين عجينه وسريره: نام في المكان الأول بعد أن أعد العجين في الثاني. وكان اليوم التالي بالنسبة له يومًا موصدًا، وبالنسبة لنا جميعًا يومًا بلا خبز.

عندما عدت إلى المنزل، كانت فيدورين في انتظاري:

"ماذا حدث، يا بروديك؟"

حكيتُ لها ما علمته. أنصتت إليَّ بانتباه، ثم هزت رأسها.

"ليس جيداً كل هذا، ليس بجيد.."

إنها ببساطة بضع كلمات، إلا أنها ضايقتني، وسألتها بجفاء لماذا كانت تقول ذلك.

"عندما يصل القطيع إلى الهدوء، فلا ينبغي أن نمنحه أسباب الهياج مرةً أخرى"، أجابت.

رفعتُ كتفي. كان لديَّ حس دعابة خفيف. كنت، وهو ما أدركه اليوم فحسب، ربما الوحيد في القرية الذي كان يُسر بوصول شخص غريب إلى قريتنا. كان ينتابني شعور بأن ذلك يعني ميلادًا جديدًا، عودة للحياة. كان ذلك بالنسبة لي كأننا رفعنا لوحًا حديديًا، كان يغلق منذ سنوات كهفًا، وكان هواء هذا الكهف يستقبل فجأةً الهواء وأشِعة الشمس الكبيرة. لكنني لم أكن أستطيع تخيل أن الشموس تصبح - في بعض الأحيان - مزعجة، وأن أشعتها التي تنير العالم وتجعله متألقا، رغمًا عنها، تفضح أيضًا ما نحاول الهرب منه.

كانت العجوز فيدورين تعتبرني كجيب تستطيع أن تضع فيه يدها آلاف المرات. تسمرت أمامي، نظرت في عيني مباشرةً، ثم مرت بيديها على خدي، وكانت يداها ترتعشان تمامًا وهي تداعبني.

"أنا عجوز جدًا، يا صغيري بروديك، عجوز جدًا.. عما قريب، لن أعود موجودة هنا. انتبه لنفسك، لقد عدتَ مرةً من حيث لا يعود أحد. ما مِن فرصة ثانية أبدًا. وأنت تتحمل مسئولية أرواح الآن، فكر فيهما، الاثنتين".

أنا لست كبيرًا جدًا، لكني - في هذه اللحظة الدقيقة - قدرت كم كانت فيدورين صغيرة. كانت تشبه طفلاً، طفلاً بوجه عجوز؛ مخلوقة منحنية، ذابلة، هزيلة، هشة، مجعدة الجلد، تغطيها التغضنات، مخلوقة كانت تستطيع نفخة هواء قوية- إلى حدٍّ ما - كنسها كذَرة تراب. كانت عيناها تحت غشاوتهما البيضاء، تلتمعان، وشفتاها تتحركان قليلاً. جعلتها في مواجهتي، احتضنتها في ذراعيَّ طويلاً؛ فكرت في الطيور، الطيور الصغيرة جدًا والتائهة، طيور الجواثم الضعيفة، المريضة أو البائسة التي لا تستطيع أن تتبع مثيلاتها في مواسم الهجرة الكبرى، وتنتظر باستسلام، في نهاية الخريف، على حافة الأسقف، على أغصان الأشجار المنخفضة،

منزوعة الريش، مذعورة، البرد لتموت. قبلتُ فيدورين عدة مرات، على شعرها في البداية، ثم على جبينها، ثم خديها، كأني كنت أتمثلها طفلة، التقيت رائحتها، رائحة شمع العسل، والتنور، والجوخ الجديد؛ تلك الرائحة التي منذ بداية حياتي، أو تقريبًا، كانت تكفي لجعلي أبتسم ابتسامة هادئة على شفتي، حتى أثناء نعاسي. وهكذا أمسكت بها طويلاً أمامي، بينما عقلي، وبسرعة البرق، كان يروح ويجيء خلال لحظات حياتي، لاصقًا بعضها بلحظات أخرى هاربة، خالقًا منها موزاييك غريبًا لم يكن له أدنى أثر إلا في أن يجعل شعوري يزداد بالزمن الهارب، وباللحظات التي لن تُستعاد أبدًا مرةً أخرى.

كانت فيدورين هنا، في مواجهتي تمامًا، كنت أستطيع محادثتها، أشم رائحتها، أشعر بقلبها يخفق. هكذا كما لو أن قلبي كان يخفق بداخلها. فكرتُ مرةً أخرى في المعسكر. كانت فكرة الموت وحدها هي ما يشغل عقولنا. كنا نعيش دائمًا بهذا الوعي بموتنا، وذلك بلا شك ما كان يدفع بالبعض إلى الجنون. فالإنسان، رغم معرفته بأنه سيموت ذات يوم، فإنه لا يستطيع أن يعيش دائمًا في عالم لا يحيله إلا إلى الوعي بموته، عالم مُشبع بالموت، ولا يفكر إلا في ذلك.

"ich bin nicht" ذلك ما كانت تقوله اللافتة المربوطة حول عنق المشنوق. نعرف ذلك جيدًا، أننا لم نكن أي شيء. كنا نعرف ذلك تمامًا. لا شيء. لا شيء مُسلَّم إلى الموت. عبدُه. لعبتُه. ينتظر مستسلمًا. على نحو غريب. كنت حقًا مخلوقا للعدم، ساكنًا للعدم ومسكونًا به، وهو ما لم يكن يخيفني. لم أكن أخاف موتي الشخصي، أو حتى لو كنت أخافه، فقد كان ذلك من خلال شكل من أشكال التأمل الحيواني، الزائل. وعلى العكس، فقد كانت فكرة الموت غير محتملة لي عندما أربطها بـ إيمليا،أو فيدورين. إنه حقًا الخوف من موت الآخرين، الكائنات التي نحبها، لا موتنا، الذي يلتهمنا، ويستطيع تدميرنا. فهو ما يجب أن أصارعه، ملوحًا أمام نوره الأسود بوجوه وأشخاص.

ـ ٢٢ ـ

في البداية، استقبلت قريتنا "لاندرير" استقبال ملك. فضلاً عن ذلك، فقد كان ثمة شيء من السحر في كل ذلك. الناس في قريتنا ليست طبيعتهم منفتحة. ولا شك أن ما يفسر ذلك - إلى حدٍّ ما - اللوحة الطبيعية للوديان، والجبال، والغابات، والوديان الصغيرة المنخفضة، ومناخنا بأمطاره، وضبابه، وجليده، وعواصفه الثلجية، وحرارته المرتفعة. ثم الحرب ,التي - بكل تأكيد- لم تُصلح شيئًا. بل لقد أغلقت الأبواب والأرواح إلى حدٍّ ما أيضاً، أغلقتها بقفل بعناية، وأخفت ما كانت تحتويه جيدًا في معزل عن الضوء.

ولكن خلال لحظات، وبعد أن مرت المفاجأة المذهلة لمجيئه إلى قريتنا، استطاع "لاندرير"- رغمًا عنه - أن يحيط نفسه بسحر خاص، ليتملقه أكثر الناس عداوة، لأن كل الناس كانوا يريدون رؤيته، أطفالاً، ونساءً، وعجائز، وقد ارتضى هذه اللعبة دون انزعاج، مبتسمًا لهؤلاء وأولئك، رافعًا قبعته أمام السيدات ومُحنيًا الرأس أمام الرجال، دون أن ينطق أدنى كلمة مع ذلك، لدرجة أن البعض لو لم يكونوا قد سمعوه يتحدث في الليلة الأولى، لكان من الممكن أن يعتبروه أخرس.

لم يكن يستطيع السير في الشوارع دون أن تتبعه مجموعة صغيرة ضاحكة من الصبية المتبطلين، الذين كان يعطيهم هدايا تافهة كانت تبدو لهم كنوزًا: أشرطة، كرات زجاجية، خيوطًا مذهبة، أوراقًا ملونة. كان يُخرج كل ذلك من جيوبه، كما لو كانت ممتلئة بها باستمرار، ونعتقد أن حقائبه ممتلئة بها.

عندما كان يذهب إلى حظيرة الأب سولزنر ليزور مطيتيه، كان الأطفال يراقبونه من الباب، دون أن يجرؤوا على الدخول، ولم يكن - فضلاً عن ذلك - يدعوهم إلى ذلك. كان يقوم بتحية حصانه وحماره، يناديهما دائمًا باسميهما، ينظر إليهما، يداعبهما ويلقمهما بين شفاههما الرمادية قطعًا من السكر كان يخرجها من كيس من القطيفة ذات اللون الأحمر والرمادي. كان الصبية يشاهدون المنظر بأفواه فاغرة وعيون شغوف، متسائلين عما كانت اللغة التي كان يستخدمها ليرصع الكلمات التي كان يهمس بها في أذن الدواب.

وللحقيقة، فقد كان يتحدث إلى حصانه وحماره بأكثر مما كان يتحدث إلى الآخرين. كان شلوس قد تلقى تعليمات بأن يطرق بابه في السادسة من كل صباح، دون أن يدخل، وأن يضع على العتبة صينية توضع عليها نفس الأشياء بشكل ثابت: فطيرة محلاة مستديرة- دفع "لاندرير" ثمنها مقدما لفيرفراو-، بيضة نيئة،وعاء ماء ساخن وكذلك قِدر كبير.

"إلا إنه مع ذلك لا يشرب الماء الساخن أبدًا!"، كان قد قال ذلك ذات مساء رودولف شولنج الذي كان يواظب - منذ عمر الثانية عشرة - على احتساء الـ"شنيك". إنه الشاي الذي كان يحتسيه "لاندرير"، شاي ثقيل كان يترك على حافة الفناجين آثارًا كبيرة سمراء. وقد تذوقته ذات مرة، هذا الشاي، عندما كان قد دعاني إلى حجرته للدردشة قليلاً وليعرض عليَّ بعض الكتب. كان يترك في الفم طعم الجلد والدخان، والخبز المملح أيضًا. لم أكن قد احتسيتُ في حياتي مثله قط.

عند الغداء، نزل إلى القاعة الكبيرة. في ذلك الوقت، كان هناك دائمًا بعض الفضوليين الذين أتوا لمشاهدته، ولا سيما ليشاهدوا طرائقه، طرائقه الرقيقة، طريقة مميزة في الإمساك بالشوكة والسكين، ودسها في صدر الدجاجة أو في كتلة البطاطس.

في البداية تمامًا، حاول شلوّس جاهدًا أن يغوص في ذاكرته ليجد وصفات طعام جديدة تليق بالزائر، لكنه سرعان ما ترك ذلك، بناءً على طلب "لاندرير" نفسه. وعلى الرغم من جسمه القصير الممتلئ، وسحنته الحمراء بلون التفاح، لم يكن يأكل تقريبًا شيئًا. في نهاية الوجبة، لم يكن طبقه ليفرغ قط. كان يظل فيه نصف الأشياء. وعلى العكس، كان دائمًا ما يشرب كوبين كبيرين من الماء، كما لو أن عطشاً شديدًا كان يلتهمه بشكل دائم، مما جعله يقول لماركوس جراتس، وهو شخص نحيل جاف كساق كلب، إنه لحسن الحظ لم يكن يتبول في نهر ستوبي لأن ذلك كان سيجعل النهر يفيض بكل تأكيد.

وفي المساء، لم يكن يتناول إلا الحساء، وأيضًا شيئًا ما خفيفًا، مرقًا لا حساءً، ثم يصعد إلى حجرته، بعد أن يحيي بإشارة من رأسه الموجودين في النُّزل. كان الضوء يبدو من نافذته في وقت متأخر. وقال البعض أيضًا إنهم كانو ا يرونه طوال الليل. وعلى أية حال، فقد كنا نتساءل عمَّا كان يفعل.

أثناء فترة ما بعد الظهر، في الأيام الأولى من إقامته، كان يذرع شوارعنا بمنهجية، كأنه يقوم بعمل تقسيم تربيعي أو بيان جَرد. لم يفهم أحدٌ من ذلك شيئًا بالفعل، فلقد كان يلزم لذلك أن نتتبعه بشكل دائم، وكان الصبية وحدهم مَن كانوا يقومون بذلك.

وفيما كان يرتدي ملابس يبدو معها كأنه يحتل مكانًا في أسطورة قديمة، مليئة بالغبار والكلمات المهجورة، كان يمشي وقدماه تنحرفان قليلاً إلى الخارج، ويده اليسرى على عصا جميلة ذات رمانة من العاج، ويده

اليمنى تمسك بقوة بالمفكرة الصغيرة السوداء التي كانت تروح وتجيء تحت أصابعه، كحيوان أليف غريب.

أحيانًا، كان يخرج ليشم الهواء على إحدى دابتيه، الحصان أو الحمار، وليس الاثنتين أبدًا في نفس الوقت، ويقودها بالمقود، وهو يداعبها في خصرها، متجهًا نحو شواطئ نهر ستوبي، وأحيانًا قليلة في أعالي نهر بابتيستربروك، لترعى هناك العشب الطازج والكثيف. وهو نفسه، كان يحط ردفيه الكبيرين مباشرةً على الأرض، ويستقر بلا حراك، وهو ينظر إلى تيار الماء والدوامات الصافية، كما لو كان سيستخرج منها معجزة. وكان الأطفال يظلون مختفين، في أعلى نقطة من المنحدر تقريبًا. كان الكل يحترم صمته، ولم يكن أحدٌ يلقي حينئذٍ بحجر في الماء.

بعد أسبوعين من وصول "لاندرير" إلى قريتنا، وقع الحدث الأول. أعتقد أن العمدة كان صاحب الفكرة، حتى لو لم أستطع تأكيد ذلك. لم أطرح عليه السؤال قط لأنه لم يكن لذلك أدنى أهمية. فما كان مهمًا، في المقابل، ما حدث في ذلك المساء. مساء ١٠ يونيو.

في هذه اللحظة، كان كل واحد قد أدرك أن "لاندرير" لم يكن إلا عابرًا بقريتنا، إلا أنه اعتادها وتهيأ، بلا شك، للإقامة فترة طويلة بيننا. طوال يوم ١٠ يونيو، دار الخبر أن القرية، وعلى رأسها العمدة، سوف تستقبل كما يجب الزائر الجديد. سيكون هناك خطاب، وموسيقى، وأيضًا "شوبسنفاس"، وهي كلمة تعني- في اللهجة المحلية - نوعًا من المناضد الكبيرة المحملة بالكؤوس، والزجاجات، والأطعمة التي تُعد حينئذٍ في بعض الأحداث الشعبية.

منذ الفجر، كان الـ "زونجفروست" منهمكًا في إقامة منصة صغيرة، لكنها تدفع المرء في الحقيقة إلى التفكير أكثر في منصة الإعدام، بالقرب من الأسواق. سمعنا ضربات المطرقة وصرير المنشار حتى قبل أن تلتهم الشمس سواد السماء، مما أخرج أكثر من متسكع من سريره. في الساعة

الثامنة، كان الجميع يعرفون بالخبر. في العاشرة، كان هناك الكثيرون في الشوارع مثلما في يوم السوق. فيما بعد الظهر، وفيما كان "الزونجفروست" ينتهى من نقش جملة الترحيب على شريط عريض من الورق الممدود فوق المنصة، بأحرف ضخمة مرتعشة " Wi sund vrob wen neu kamme" جملة غريبة خرجت من رأس ديودم، كان ثمة اثنان من الباعة الجائلين المحنكين، لا ندري كيف كانا يعرضان على هؤلاء المحيطين بهما أوسمة مباركة، ومساحيق ضد الفئران، وسكاكين، وحبالاً، وروزنامات، وبذورًا، وصورًا، وقبعات من اللباد. كنت أعرفهما لأني كثيرًا ما أقابلهما على طريق القمم أو الغابة. كانا أبًا وابنًا، قذرين كالقرع، والشعر الأسود كالحبر. ولم نكن حتى نعرف اسميهما. كنا ندعوهما "دي رونجار" أي "العدائين"، لأنهما كانا قادرين على قطع مسافات طويلة في أقل وقت ممكن. حياني الأب:

"مَن قال لك إن هناك احتفالاً؟

- الرياح.

- الرياح؟

- لمن يستطيع سماعها، تقول الكثير من الأشياء".

نظر إليَّ نظرة ماكرة وهو يلف سيجارة.

"هل عدت إلى شلوس.

- ليس مباشرةً، فالطريق دائمًا محظورة.

- وكيف علمت بذلك إذن؟ الرياح؟

- لا، ليست الرياح.. الليل. فعندما نعرف الليل جيدًا، فهو معطف الساحرة، ويكفي أن نرتديه لنذهب حيثما نشاء معها!"

ذهب بضحكة كبيرة، بدت معها أسنانه الأربع الأخيرة مغروسة في فكه كبقايا أشجار في تل مهجور. أبعد قليلاً، كان ديودم مشغولاً بمراقبة "الزونجفروست" الذي انتهى من نقش الحروف. أشار إليَّ بإشارة بسيطة

من يده، ولكني فيما بعد- ونحن بجانب بعضنا البعض، والاحتفال على وشك أن يبدأ - طرحتُ عليه السؤال الذي كان يشغلني إلى حدٍّ ما:

"هل أنت صاحب الفكرة؟

- أية فكرة؟

- الجملة.

- أورشفير هو الذي قال لي.

- ماذا قال لك؟

- أن أجد شيئًا ما، كلمات...

- إن جملتك غريبة. لماذا لم تكتبها بـ"الديبيرشافت"؟

- لم يشأ أورشفير ذلك.

- لماذا؟

- لا أدري.

وقتها، أنا أيضًا لم أكن أدري. فيما بعد، كان لديَّ وقتٌ للتفكير. كان "لاندرير" لغزًا. كنا نجهل مَن يكون. كنا نجهل مِن أين أتى، ولماذا هو هنا. وكنا نجهل أيضًا ما إذا كان يفهمنا حين نتحدث باللهجة المحلية. الجملة المنقوشة، ربما تكون طريقة للإجابة عن هذا السؤال الأخير. طريقة ساذجة للغاية فضلاً عن ذلك، وبلا هدف، لأن "لاندرير"- عندما وصل هذا المساء بالقرب من المنصة، ونظر إلى الكتابة- توقف برهةً ثم جرى بعينيه على الكلمات، ثم واصل سيره نحو الأسواق. فهل فهم الجملة؟ لا ندري شيئًا من ذلك. ولم يقل هو شيئًا.

هي جملة غريبة تلك التي عثر عليها ديودم، حتى إن لم يُركبها عن عمد. إنها تعني، أو بالأحرى، من الممكن أن تقول، معاني مختلفة؛ لأن اللهجة تشبه نسيجًا مرنًا: من الممكن أن نشمل بها كل المعاني.

"Wi sund vroh neu kamme" يمكن أن تعني "نحن نسعد عندما يأتينا زائر جديد". لكنها يمكن أن تعنى أيضًا "نحن نسعد عندما يأتينا مرةً ثانية"، وبذلك، فهي لا تعني نفس المعنى. والأكثر غرابة أن كلمة "vroh" لها معنيان حسب السياق الذي تُستخدم فيه، معنى "راضٍ"، و"سعيد"، لكن أيضًا "منتبه"، و"متيقظ"؛ وهكذا، فلو فضلنا هذا المعنى الثاني، فسنجد هذه الجملة غريبة ومقلقة، وهو ما لم يلحظه أي شخص آنئذٍ، إلا أنها ظلت فيما بعد تدوي في رأسي، كإنذار يحتوى داخله قدرًا ما من التهديدات، كقبضة نرفعها، أو كنصل سكين نحركه قليلاً فيلتمع في ضوء الشمس.

ـ ٢٣ ـ

أثناء فترة ما بعد ظهر ذلك اليوم، اصطحبت إيمليا وبوبشيت معي. صعدنا حتى كوخ لوتس. هو مأوى قديم لراع، لكنه لم يعد يُستخدم منذ عقدين. تغطت المراعي التي تحيط به - شيئًا فشيئًا - بنبات الأسل ونبات السعوط الأبيض مُسنن الأوراق. تراجعت الأعشاب أمام زحف الطحالب. ظهرت بركٌ صغيرة، في البداية مستنقعات صغيرة بسيطة، ثم حولت المكان إلى شبحٍ من نوعٍ ما، شبح مروج لم يتجسد بعد، تمامًا، في شكل مستنقع. وقد كتبت - من قبل - ثلاثة تقارير عن هذا التحول، محاولاً فهمه، وتفسيره، وكل عام أعود إلى هنا في نفس الفترة لقياس الاتساع وطبيعة التغيُر. كان الكوخ على بعد ساعتين سيرًا من القرية، ونحن نتجه نحو الغرب. لم يعد للدرب المؤدي إليه نفس المشقة السابقة، حيث كانت مئات من النعال تمنحه كل عام عمقًا وشكلاً. فالدروب كالبشر، تموت أيضًا. شيئًا فشيئًا، تنسد، تتسع، تتجزأ، تأكلها الأعشاب، ثم تختفي. وبعد ذلك، لا يلزم إلا سنوات قليلة حتى لا نعود نميز منها أبدًا إلا عمودها الفقري، وتنتهي معظم الكائنات إلى نسيانها.

كانت بوبشيت - التي تسلقت على كتفي- توجه حديثها إلى السحب. كانت تحدثها كما لو أنها كانت تستطيع فهمها. كانت تطلب منها أن تفسح

المجال، أن ترجع ببطونها الضخمة، أن تترك الشمس بمفردها في السماء الكبيرة. وكان الهواء القادم من الجبال يمنح خديها توردًا نضرًا تمامًا.

كنت أمُسك بيد إيمليا. كانت تمشي بهيئة معتدلة. كانت نظرتها تستقر على الأرض أحيانًا، وأحيانًا ما تذهب بعيدًا جدًا، نحو أضلاع الأفق التي تجوفها نتوءات جبال برنتسهورني. لكنني - في الحالتين - كنت أرى جيدًا أن عينيها لا تستقران على المشهد الطبيعي، من قريب أو بعيد. كانت عيناها تبدوان كفراشتين، معجزتين تتحركان هنا وهناك بلا سبب عميق، كأنهما مجذوبتان بالرياح، بالأثير الشفاف، لكنها لا تفكران في شيء مما كانتا تفعلانه، ولا ما كانتا تريانه. كانت تتقدم في صمت. ولابد أن إيقاع نفَسها القصير كان يمنعها من الدندنة بأغنيتها الخالدة. كانت تحافظ على شفتيها منفرجتين قليلاً. وكنت أمسك بيدها. كنت أشعر بحرارتها لكنها لم تكن تلحظ شيئًا، وربما لم تكن تعرف أيضًا كم يحبها ذلك الذي يقودها من يدها هكذا.

حين وصلنا قُرب من الكوخ، أجلستُ إيمليا على المقعد الحجري المقابل للباب. وضعتُ بوبشيت بجانبها وأنا أقول لها أن تكون عاقلة تمامًا وأنا أقوم بإنجاز بياناتي، التي لن تستغرق مني فترة طويلة، لنأكل هنا البرسفروتركوف، وحلوى التفاح والجوز التي لفَّتها لنا العجوز فيدورين في قطعة قماش بيضاء كبيرة.

بدأت في قياساتي. وجدت المعالم التي كنت أعتمد عليها كل عام؛ أحجار كبيرة كانت، من قبل، تعين حدود الأسيجة والفواصل المشتركة. لكني- على العكس - عانيتُ مشقة كبيرة في العثور على الحوض الصلصالي الذي كان يحدد تقريبًا مركز المرعى تمامًا. بتشكيله من كتلة صخرية واحدة، كان يدفعني إلى التفكير، في المرة الأولى التي رأيته فيها، وكنت طفلاً، في شكل زورق مهجور وسط الأرض، سفينة صُنعت من أجل الآلهة، وتربك الآن البشر، الذين لم يكونوا بارعين بما يكفي لاستخدامها، ولا لديهم ما يكفي من القوة لنقلها.

توصلت في النهاية إلى العثور على الحوض، وسط مستنقع كبير، ازدادت مساحة سطحه ثلاثة أضعاف في عام. كانت الكتلة الحجرية قد اختفت تمامًا تحت السطح. لم تعد تدفعنا إلى التفكير، خلف المنشور الشفاف للموج، في زورق، بل في مقبرة، تابوت بدائي وثقيل، لا يشغله أحد، أو ربما، وقد جعلتني هذه الفكرة أقشعر، كان ينتظر هذا أو هذه للرقاد فيه إلى الأبد.

التفت بنظري، فجأةً ،وبحثت في البعيد عن خيالَي بوبشيت وإيمليا. لكنني لم أكن أستطيع إلا رؤية الشقوق المتهالكة على جدران الكوخ. كانا غير مرئيين، مختفيين، من الناحية الأخرى. تركتُ أدوات القياس على حافة المستنقع، وجريتُ كالمجنون نحو الكوخ، صارخًا باسميهما، يتملكني خوف لا عقلاني، عنيف، وعميق. لم يكن الكوخ بعيدًا جدًا، إلا أنني انتابني شعورٌ بأني لن أستطيع الوصول إليه أبدًا. كانت الأرض تنزلق تحت خطواتي. كنت أغوص بقدمي في حُفر بليلة، وأوحال، وبدا لي أن الطين كان يريد أن يمتصني عبر أصوات كانت تشبه أنات محتضرة. عندما وصلتُ أخيرًا إلى الكوخ، لم أكن قادرًا على التنفس، كنت منهكًا. كانت يداي، وبنطلوني، وحذائي ذو النعل الحديد، قد غطاهما الطين الأسود الذي يفوح برائحة النتن، والأحشاء الأرضية، والعشب المبتل. لم أعد أستطيع حتى الصراخ باسميْ مَن جريتُ هكذا لأجلهما. ثم، رأيت. رأيت يدًا صغيرة تمر من زاوية الجدار وتأخذ زهرة نبات السوط الأبيض، تكسر ساقها، وتمسكها، ثم ذهبت اليد الصغيرة نحو زهرة أخرى. تبدد خوفي بنفس سرعة انقضاضه عليّ. ظهر وجه بوبشيت. نظرت إليّ. قرأت في عينيها الصغيرتين اندهاشها. "أنت متسخٌ يا بابا، كلك متسخٌ يا بابا!"، ضحكَت. وأنا أيضًا ضحكْت. ضحكت بقوة بالغة، بقوة بالغة جدًا جدًا، حتى إن كل الناس وكل شيء سمعوا ضحكتي، كل مَن كانوا يريدون لي- في هذا العالم - أن يدفعوني إلى صمت الأموات، وكل ما كان- في نفس العالم- يتواطأ على التهامي.

كانت بوبشيت تمسك بفخر الباقة التي قطفتها لأمها، زهرة نبات السعوط الأبيض، زهرة الربيع، زهرة نبات أذن الفأر. كانت كل هذه الزهور لا تزال تنبض بالحياة، كأنها لم تكن قادرةً على إدراك أنها عبرت حقًا أبواب الموت.

كانت إيمليا بعيدة عن الكوخ. كانت قد سارت نحو حافة المرعى وتوقفت على نتوء جبلي يدخل في البحر، يتكسر - فيما وراءه - منحدر ويتمزق إلى صخور مهشمة. كان وجهها قد استدار نحو المشهد الطبيعي الكبير للسهول الغريبة التي كانت تغفو بشكل مبهم تحت أشلاء الضباب. كانت تفرد ذراعيها بعيداً عن جسمها، كما لو كانت تستعد للطيران، وظلها الخفيف كان يتقطع عن بُعد في شحوب مُزرَق بجمال لا إنساني. جرت بوبشيت نحوها وتكومت عند ركبتيها، محاولة أن تلفها بذراعيها الصغيرتين.

لم تتحرك إيمليا. فكت الرياح شعرها الذي كان يتطاير في الهواء كألسنة لهب سمراء وباردة. كنت أقتربُ منها بخطى بطيئة. وكانت الرياح تحمل لي عطرها وكذلك مقتطفات من أغنيتها التي كانت قد عادت تدندن بها. استطاعت أن تمسك بوبشيت وهي تقفز بإحدى ذراعيها. أخذت يد أمها ووضعت فيها باقة الزهور. كانت الزهور تتطاير واحدة واحدة من بين أصابعها المفتوحة، دون أن تفعل شيئًا لإمساكها. اندفعت بوبشيت يساراً ويمينًا لتمسك بها، فيما كنت أتقدم ببطء شديد نحو إيمليا، التي كان جسمها يتقطع في السماء ويبدو كمشنوق.

أميري الجميل الرقيق(*)

هناك بعيداً جداً

أميري الجميل الرقيق

(*) كتب المؤلف الأغنية ـ سطرًا سطرًا ـ بالألمانية والفرنسية. وقد تمت ترجمة النص الفرنسي، بطبيعة الحال. (المترجم).

كيف تكون الليالي بلا شفتيك

أميري الجميل الرقيق

كيف تشرق الأيام

أميري الجميل الرقيق

فلتحلم كما أحلم

أميري الجميل الرقيق

أنا وأنت من جديد ذات صباح

كانت إيمليا ترقص بين ذراعَي. تحت أشجار يناير الجرداء، كنا هكذا عشرات من الثنائيات، منتشين بالشباب، في الضوء الذهبي والضبابي لمصابيح المنتزه، منسابين على موسيقى الأوركسترا الصغير المحتمي تحت الكشك، وعازفيه- المتدثرين بالفراء- يشبهون حيوانات غريبة. كانت هي اللحظة السابقة بالتحديد لأول قُبلة. لحظات الدُّوار التي تقود إليها. كانت في زمن آخر. كانت قبل الفوضى. كان ثمة هذه الأغنية، أغنية القبلة الأولى، أغنية اللغة القديمة، التي عبرت القرون كمسافر عبر الحدود. أغنية حب مجبولة من كلمات فجة، أغنية أسطورة، أغنية مساء وحياة، " Schon ofza prinzer, Gehtes so muchte lan" أصبحت لازمةً مرعبة سجنت فيها إيمليا نفسها كما في سجن، وكانت تعيش بلا وجود حقًّا.

ضممتها إليّ. قبلتُ شعرها، ورقبتها من الخلف. همستُ في أذنها بأني كنت أحبها وبأني سأحبها إلى الأبد، وأنني كنت موجودًا، من أجلها، وبجوارها تمامًا. أخذتُ وجهها بين يدَي، أدرته نحوي، وحينئذٍ رأيتُ في عينيها ما يشبه ابتسامة غياب كبير، فيما كانت الدموع تنساب على وجنتيها.

ـ ٢٤ ـ

خلال العودة إلى القرية، وجدتُ اضطراب هذا اليوم الخاص، ١٠ يونيو. فالرجال والنساء الذين كانوا قد بدأوا في التجمع، في الاتصال ببعضهم البعض، يتحولون إلى حشد.

منذ فترة طويلة، وأنا أهرب من الحشود. أتجنبها. أعرف أن كل شيء – أو تقريبًا – قد نجم عنها. أعني الشرور، الحرب وكل "الكازيرسكفير" التي انفتحت في عقول الكثيرين. وقد قابلتهم، هؤلاء البشر في المعمعمة، حين يعرفون أنهم ليسوا بمفردهم، حين يعرفون أنهم قادرون على أن يغرقوا، يذوبوا في كتلة تضمهم وتتجاوزهم، كتلة صنعتها آلاف الوجوه على شاكلتهم. ودائمًا يمكنهم أن يحدثوا أنفسهم بأن الخطأ يقع على مَن جرَّهم وحرضهم، مَن جعلهم يرقصون كعظاءة حول عصا، وأن الحشود غير واعية بحركاتها، بمستقبلها، بمسيرتها. ذلك خطأ. فالحقيقة، أن الحشد نفسه وحش. يتولَّد، جسم هائل يتألف من آلاف الأجسام الأخرى، الواعية. أعرف أيضًا أنه ما مِن حشود سعيدة. ما مِن حشود مسالمة. وأيضًا فيما وراء الضحكات، والابتسامات، وأنغام الموسيقى، واللازمات المتكررة، ثمة دم يسخن، دم يثور، ينقلب على نفسه ويصبح مجنونًا بحكم كونه أيضًا مندفعًا ومتقلبًا في إعصاره الخاص.

منذ وقت طويل، كان ثمة علامات بالفعل. عندما كنت في العاصمة، حيث كانوا قد أرسلوني للدراسة. كان ليمات صاحب الفكرة. تحدث بها لعمدة تلك الفترة، سيبليوس كراسباش، ثم للأب بيبر. قال ثلاثتهم إن القرية كانت بحاجة على الأقل إلى واحد من شبابها يطور - أكثر من الآخرين قليلاً - تعليمه، يذهب ليرى إلى حدٍّ ما العالم في الخارج قبل أن يعود إلى هنا، ليصبح معلمًا بالمدرسة، أو موظفًا بالصحة، أو ربما خليفةً للأستاذ كنوبف، الذي كان قد بدأ يضعف عن ذي قبل، ومن ثم كانت أفعاله وأراؤه تُدهش أحيانًا أكثر من واحد من عملائه. واختاروني.

في هذه الحالة، يمكننا أن نقول إن القرية هي التي أرسلتني إلى العاصمة. فإذا كانت هي فكرة الثلاثة الذين تحدثت عنهم، فإن كل الناس تقريبًا هم مَن أرسلوني إلى العاصمة وساندوني. وعند كل نهاية شهر، كان "الزونجفروست" يمر من منزل إلى منزل ليجمع التبرعات، وهو يضرب الجرس ويكرر دائمًا نفس العبارة: "من أجل دراسة بروديك! من أجل دراسة بروديك!". وكان كل واحد يدفع حسب قدرته وحسب رغباته. ربما كان هذا بضع قطع نقدية، ولكن أيضًا بالطو صوف، طاقية، منديل، إناء مربى، كيس صغير من العدس، بعض المؤونة لفيدورين، لأني وأنا هناك، لم أكن لأستطيع أن أعمل لأساعدها. كذلك كنت أتسلم حوالات صغيرة وصُررًا غريبة ,أنهكت مؤجرتي، فرا هيترنتس، بحملها إلى الطابق السادس، وتمدها لي بشيء من الارتياب، وهي تمضغ بحدة تبغها الأسود الذي كان يجعل شفتيها داكنتين ونفَسها كنفَس من الهاوية.

في البداية، قصفت العاصمة رأسي. لم أسمع قط في حياتي هذه الضوضاء. كانت الشوارع تبدو لي سيولا هائجة، وما كانت تجرفه من أناس، وسيارات، يختلط بصخب يصيبني بالدوار، وكثيرًا ما كان يجعلني أحمي نفسي في الدهاليز لأتجنب نهش هذا المد غير المنقطع. كنت أسكن في حجرة لم يكن ممكنًا لنافذتها الصدئة أن تنفتح إلا بمقاومة. ولم يكن

ثمة مكان إلا لمرتبة من القش، كنت أفردها نهارًا وأضع عليها لوحًا لأستخدمه كمكتب. والمدينة، عدا في بعض الأيام الساطعة في عز الصيف أو في برد الشتاء القارس، كانت باستمرار محبوسة تحت ضباب من أدخنة الكربون التي كانت تخرج من المدافئ متمهلة، وتلتف على بعضها البعض، لكي تنعس بعد ذلك لعدة أيام وأيام في السماء، فتقصي الشمس بعيدًا فيما وراءنا. بدت لي هذه اللحظات الأولى من الحياة لا تحتمل. لم أكن أتوقف عن التفكير في قريتنا، في الوادي الصمغي الذي كان يبدو فيه كأنه متكوِّر في حِجر. أتذكر أيضًا أن البكاء كان ينتابني في السرير.

كانت الجامعة مبنًى كبيرًا، من الطراز الباروكي، كان - منذ ما يقرب من ثلاثة قرون- قصرا لأمير مجري، قبل أن يُسلب ويُنهب في المرحلة الثورية، ثم بيع إلى تاجر كبير للحبوب حَوله إلى مخزن. في ١٨٣١، عندما تفشى طاعون الكوليرا الكبير في كل القطر ككلب انطلق في إثر طريدة واهنة، تم الاستيلاء عليه واستُخدم كمستشفى عام. عُولج فيه القليلون. ومات فيه الكثيرون. لم يحدث ذلك إلا فيما بعد بكثير، في نهاية القرن، وبناء على قرار امبراطوري، تحول المكان إلى جامعة. نُظِفَت القاعات الكبرى، ووُضعت فيها مقاعد وأرائك. أصبحت المشرحة مكتبة، وقاعة التشريح أصبحت صالونًا يستطيع فيه الأساتذة وبعض الطلبة المنحدرين من عائلات ذات مكانة تدخين غليونهم، والحديث وقراءة الجرائد، على مقاعد كبيرة من الجلد ذي اللون الأصهب.

كان معظم الطلبة ينحدرون من أصول بورجوازية. فكانت خدودهم متوردة، وأياديهم ناعمة، وأظفارهم نظيفة. منذ طفولتهم، كانوا يأكلون إلى حد الشبع، ويرتدون أجمل الملابس. لم نكن إلا معدودين مَن لا يملكون النقود. ميزونا بسرعة، بخدودنا المدعوكة من الهواء الطلق، بملابسنا، بعاداتنا غير المتكافئة، بخوفنا الواضح من عدم وجودنا في مكاننا، بكوننا نخطئ دائما الاتجاه. كنا قد أتينا من بعيد. لم نكن من المدينة ولا حتى من

ريفها. ننام في غرف سيئة التدفئة، تحت الأسقف. لم نكن نرجع قط، أو نادراً جداً، إلى قريتنا. وهؤلاء الذين كانت لهم عائلة، ويملكون المال، لم يكونوا ينظرون إلينا إلا قليلاً. ومع ذلك، فأعتقد أنهم لم يكونوا يحتقروننا. ببساطة، لم يكونوا قادرين على تخيل مَن نكون، مِن أين أتينا، وأية بقاع بائسة ومهيبة كبرنا فيها، وماهية وجودنا اليومي في المدينة الكبيرة. كثيراً ما كانوا يمرون بجوارنا دون حتى أن يرونا.

بعد عدة أسابيع، توقفت عن رعبي من المدينة. كنت أتجاهل وجهها المتوحش والعدائي، ولم يستوقفني إلا قبحها. وهذا القبح كان من السهل عليَّ تمامًا أن أنساه لعدة ساعات، بقدر شغفي بالانغماس في الدراسة والكتب. في الحقيقة ,لم أكن أغادر المكتبة إلا نادرًا، إلا عند ذهابي إلى القاعات حيث كان المدرسون يوزعون محاضراتهم. وقد وجدت رفيقًا لي في شخص أولي رات، الذي كان في نفس عمري، وفقيرًا مثلي، وأيضًا - على نحوٍ ما - أرسلته قريته، على أمل أن يعود بتعليم يمكن أن يكون مفيداً للكثيرين. كان رات قد أتى من تخوم القطر من منطقة تلال جالينك، وكان يتحدث لغة خشنة، ومليئة بتعبيرات لا أعرفها، تجعل منه بدائيًا ووحشيًا، في نظر العديد من زملاء الدراسة. وعندما لا نكون في الجامعة أو في غرفنا، كنا نسير طويلاً في الشوارع، ونحن نستعرض أحلامنا وحيواتنا المستقبلية.

كان أولي مولعًا بالمقاهي، دون أن يكون لديه ما يكفي من النقود ليرتادها. كان كثيرًا ما يشدني لأتأملها، وهذه الرؤية البسيطة لهذه الأماكن، حيث كان يوقد الغاز الأزرق وشموع العسل، وحيث كانت تتصاعد ضحكات النساء نحو السقف المبطن بدخان السيجار والغليون، وحيث كان الرجال يرتدون ملابس أنيقة، من الفراء طوال شهور الشتاء، وأوشحة حريرية للربيع، وحيث كان الأولاد متحزمين في صدرياتهم البيضاء فيبدون كجنود في جيش مسالم، كانت تكفي ليمتلئ بسعادة طفولية.

"إننا نضيع وقتنا في الكتب، يا بروديك، فها هي الحياة الحقيقية، هنا!"

على العكس مني، كان أولي في المدينة كالسمكة في الماء. كان يعرف كل شوارعها وكل حيلها. كان يحب فيها التراب، والضوضاء، وسواد الدخان، والعنف، واتساعها. كل شيء فيها كان يسره.

"لا أظن أنني سأعود إلى القرية..."، كان يقول لي ذلك كثيراً. وكنت أقول له إنه موجودٌ هنا بفضل قريته، وإن قريته تعتمد عليه، وكان يمسح ذلك بكلمة أو بظهر يده.

"حثالة من سُكارى، وأجلاف، هذا كل ما في قريتي. ماذا تظن، أنهم تصرفوا بوازع من فعل الخير بإرسالهم لي هنا؟ إنها المصلحة التي تدفعهم، لا شيء آخر! إنهم يريدون أن أعود ممتلئًا بالمعرفة، كحيوان قاموا بعلفه، وبعد ذلك، سيجعلونني أدفع الثمن حياتي كلها. لا تنس أن الجهل هو ما ينتصر دائماً، يا بروديك، لا المعرفة".

حتى لو كان يحلم بالمقاهي أكثر من الجامعة، إلا أن أولي رات كان بعيدًا عن الحمق. أحيانًا ما كان يقول عبارات تستحق أن تكون في الكتب، لكنه كان يقولها بسيماء عدم الاكتراث، كما كان يسخر مباشرةً بعد ذلك منها ومن نفسه، ثم تأخذه نوبة ضحك كبيرة، ضحك يمزج الصياح والتنغيم معاً، مما كان يجعل المارة يلتفتون بالضرورة.

ـ ٢٥ ـ

هذه القصة عن المعرفة والجهل، وعن العزلة والصحبة، هي التي جعلتني أغادر المدينة، قبل الانتهاء من دراستي. فجأةً، لتحريك هذا الجسم الكبير ذي المجسات، حدث صخب، شائعات كانت تتولد من لا شيء، من محادثتين أو ثلاث، من مقالة من بضعة سطور، غير موقعة، في جريدة يومية، والكلام المعسول لأحد الحواة في سوق، وأغنية لا ندري من أين أتت يقوم بترديد لازمتها الوحشية في لمح البصر، كل مُغنيٍّ الشارع.

كنا نشاهد تجمعات تتزايد. كان بعض الرجال يتوقفون قُرب أحد المصابيح، يتحدثون فيما بينهم، ليقلدهم في الحال آخرون، وآخرون أيضاً. هكذا، خلال بضع دقائق، كان هناك أربعون جسمًا، متراصين، مقوسة أكتافهم إلى حدٍّ ما، يتحركون بخفة من حين إلى آخر، أو مذعنين لكلمة قصيرة مما كان يلقيه المتحدث، الذي لم يكن يُعرف قط أيهم. ثم، وكأن عاصفة أزاحت كل هذه الظلال، تلاشت في لمح البصر، عبر الجهات الأربع، واستعاد الرصيف العاري مرةً أخرى انتظاره الرتيب.

من الحدود الشرقية، كانت تجيء أخبار فريدة ومتناقضة. كان يقال إن فرقًا كاملة كانت تتحرك- في الجانب الآخر- ليلاً، بأقصى سرية، وإن

تحركات قد شوهدت لبعض الفرق على نحو واسع غير معهود. كان يقال أيضا إن الماكينات العاملة كانت مسموعة، وهي تحفر حُفرًا، سراديب، خنادق، وأعمالاً سرية. في النهاية، قيل إن عدة فرق من الجيش ذات سطوة وقوة شيطانية كانت تأتي لتكون في وضع الاستعداد، وأنها كانت جاهزة للعمل، وإن العاصمة أصبحت مملوءة بجواسيس مستعدين لإحراقها عندما تحين اللحظة. كان الجوع يوقع العذاب بالبطون أيضًا، ويسيطر على العقول. وقد أتى الصيفان الماضيان - بقيظ حارق - على الجزء الأكبر من محاصيل السهول المحيطة بالمدينة. كنا نرى كل يوم تدفق مجموعات الفلاحين المفلسين، الهزيلين، الذين كانت عيونهم الزائغة تستقر على كل شيء كأنها ستسرقه. وأطفال يتعلقون بتنورات أمهاتهم. كائنات صغيرة باهتة، بسحَن صفراء، يقفون بالكاد على سيقانهم، وكثيرًا ما كانوا ينامون واقفين، مستندين بظهورهم إلى الحائط، أو إلى رُكب أمهاتهم، اللاتي - حين لا يقوين على الاحتمال- كُن ينمن مباشرةً على الأرض.

في نفس اللحظة التي كان يحدثنا فيها البروفيسور نوزل عن شعرائنا الكبار، في العصور المظلمة، لقرون وقرون، وفيما لم تكن العاصمة سوى ضيعة كبيرة، وغاباتنا كانت تملأها الدببة، وقطعان الذئاب، والثيران البرية، وثيران البيسون، كان قوم رُحل يأتون من سهول بعيدة يُشيعون الموت والحمم، وقد رصعوا- عبر أبيات شعرية بلا حصر- ملاحم غنائية ومؤسِسة. كان نوزل يفك رموز اللغة اليونانية القديمة، واللاتينية، والسيمبرية(*) والعربية، والآرامية، والمجرية القديمة، والكازاخية والروسية، إلا أنه كان عاجزًا عن النظر عبر نافذته، وعن أن يرفع أنفه عن كتابه، فيما كان يمشي ليعود إلى شقته في شارع جيكنفيس. عالم في الكتب,أعمى في العالم.

ذات يوم، حدثت المظاهرة الأولى. حوالى مائة من الرجال، أكثر قليلاً، فلاحين مفلسين وعمالاً متبطلين في معظمهم، منطلقين من سوق

(*) لغة إحدى القبائل الجرمانية التي كانت تقيم بالناحية اليمني من جبال الألب. (المترجم).

البيرجيبلاتس - حيث اعتاد أن يتجمع مَن يريدون العمل- والذين توجهوا، حين لم يجدوا شيئًا، بخطى حثيثة وهم يهتفون باتجاه البرلمان. هناك، اصطدموا أمام الحواجز بجنود الحراسة، الذين كانوا يفرقونهم بلا عنف. رأيناهم يمرون، أولي وأنا، فيما كنا ذاهبين إلى الجامعة. من الممكن أن نتخيل موكبًا أقل صخباً، لا أكثر، كما في بعض الأحيان، حين كان الطلبة يعرفون كيف يقودونهم للاحتفال بشهادتهم، ولكن هنا، كنا نرى حقًا أن الوجوه المتوترة والشاحبة، والعيون اللامعة بغلٍ صامت ليست وجوه طلبة.

"سيعبرهم ذلك قبل أن يدركني!" أطلقها رات، ساخرًا، قبل أن يمسكني من ذراعي ويجذبني نحو مقهى جديد كان قد اكتشفه الليلة السابقة، وكان يريد أن يريني إياه. ابتعدنا، وكنتُ ألتفت من حين إلى آخر، لأرى كل هذه الجموع وقد اختفت في الشوارع، كذيل ثعبان كبير، كان خيالي يُضخِم أكثر كثيرًا فمه غير المرئي.

في اليوم التالي والأيام الستة التالية، تكررت نفس الظاهرة، بشكل مختلف كل مرة؛ فالناس كان عددهم يزداد أكثر فأكثر، والهدير يشتد شيئًا فشيئًا. اختلطت بالعمال والفلاحين نساء، ربما زوجاتهم، وأيضًا بعض القادمين من أماكن مجهولة، حيث لم نكن قد رأيناهم قط، لكنهم جعلونا نتذكر رعاة القطعان، إلا أنهم لم يكن معهم هروات ولا رماح ليقودوا الحيوانات، بل هتافات وكلمات. حينئذٍ، كان يسيل يوميًا القليل من الدم، عندما كان الجنود - أمام البرلمان - يضربون ببطون سيوفهم رؤوس البعض. كانت حركات الجماهير هذه هي عناوين الصحف، بينما ظلت السلطة، وبشكل يثير الاستغراب، صامتة. مساء الجمعة، أصيب جندي بشكل خطير من جراء إلقاء بلاطة على رأسه. وبعد عدة ساعات، عُلق تحذير في كل المدينة بأن كل تجمع محظور حتى إشعار جديد، وإن كل مظاهرة ستُمنع بأقصى حزم.

وهذا ما وضع النار على البارود؛ ففي اليوم التالي، في الفجر، تم العثور- بالقرب من كنيسة أليسرتنج - على جسد فيجرت راباش المتورم، وهو عامل طباعة عاطل، قيل إنه أساس المسيرات الأولى، لأنه كان معروفًا بآرائه الثورية، وكان حقيقيًا أن الكثيرين قد رأوا وجهه الكبير شبه المستدير والمغطى باللحية، على رأس المجموعة، وسمعوا صوته الذي يشبه صوت "الباريتون"(*) يصرخ مطالبًا بالخبز والعمل. وأقرت الشرطة على نحو سريع أنه قُتل إثر ضربة هراوة، وإنه قد شوهد- آخر مرة- يخرج من إحدى الخمارات العديدة المشبوهة في حي المذابح، حيث يُقدم نبيذ أسود وكحوليات مهربة، نصف ثمل، وبالكاد يمشي. ولأنه كان مجردًا من أوراقه الرسمية، وساعته، وبلا فلس حتى في جيبه، فلا شك أن راباش كان ضحيةً لمجموعة من رفقاء السُكر، أو لمتشرد قاطع طريق. ولكن بهذا التوضيح الذي قدمه البوليس، قامت المدينة- التي كان الاضطراب قد بدأ يتملكها- بحشد الزمجرات والتهديدات في أحشائها. وفي بضع ساعات، تم تحويل راباش إلى شهيد، ضحية سلطة شائخة، لا تستطيع سد قوت أبنائها، ولا أن تحميهم من التهديد الأجنبي، الذي يتمترس بالحدود، بلا عقاب. في موت راباش، تم رؤية اليد الأجنبية، اليد الخائنة لشعبها. كان القليلون هم مَن يهتمون حينئذٍ بالحقيقة. ولم يكن معظم الناس مستعدين لسماعها. لقد وضعوا في رؤوسهم - خلال الأيام القليلة السابقة- كثيراً من البارود، وجدلوا فتيلاً قويًا، ويمسكون الآن بشرارتهم.

كان يوم الإثنين الذي انفجر فيه كل شيء، بعد يوم أحد خلت فيه المدينة. كان يمكننا أن نعتقد أنها صحراء، مهجورة، مصابة بطاعون غريب ومفاجئ. فالليلة السابقة، كنا نتنزه، إيمليا وأنا، متظاهرين بعدم رؤية أن كل ما كان يدور من حولنا يشير إلى حدث فريد كان يعلن عن نفسه.

ها هي خمسة أسابيع ونحن نعرف بعضنا. كنت أدخل في عالم آخر. فجأةً، كنت ألاحظ أن الأرض وحياتي يستطيعان أن يضربا على إيقاع آخر

(*) صوت أوبرالي، جهير. (المترجم).

غير إيقاعي، أن الصوت الناعم والمنتظم الذي ينساب من صدر المحبوبة، لهو أجمل صوت تستطيع سماعه. كنا نتنزه دائمًا في نفس الأماكن، في نفس الشوارع. على نحوٍ ما، وبلا تخطيط، حددنا مزار لحظات حبنا الأولى. كنا نمر على مسرح ستوبسبيل، ثم عبر طريق أوندر- دو- بوجل، لنذهب باتجاه متنزه السي، فكشك الموسيقى، وميدان التزلج. طلبت مني إيمليا أن أحدثها عن دراستي، والكتب التي أقرأها، والبلدة التي أتيت منها. "أود أن أعرف الكثير"، قالت لي.

كانت قد وصلت إلى المدينة قبل عام تقريبًا، بكنزها الوحيد، يديها اللتين كانتا تعرفان القيام بتطريزات مرهفة، وغُرز معقدة، ودانتيلا رقيقة، كخيوط من نقط الجليد. "ليس ورائي سوى الليل، لا شيء سوى الليل"، وهذه الكلمات التي قالتها لي، فيما كنت أسألها عن عائلتها وعن المكان الذي جاءت منه، أعادتني إلى ماضيَّ، طفولة الموت البعيدة لي، المنازل المتهدمة، الجدران المنهارة، الخرائب الداخنة، بقدر ما تذكرت منها إلى حدٍّ ما، وبقدر ما حكت لي فيدورين. حينئذٍ، بدأت أحب إيمليا أيضًا كأخت، ككائن قادم من نفس الأعماق التي أتيتُ منها، كائن مثلي، لم يكن لديه اختيار إلا أن ينظر أمامه.

صباح الإثنين، كنا نستمع إلى نوزل في قاعة الأوسمة. لم أعرف قط لماذا سُميت هكذا هذه القاعة ذات السقف المنخفض، بلا أية زخرفة، ذات الحوائط الكالحة، التي كانت تعكس صورنا على نحو يشوهها قليلاً. كانت المحاضرة تدور حول البناء الإيقاعي للجزء الأول من "كانتز زوس"، القصيدة القومية العظيمة التي انتقلت من الشفة إلى الأذن منذ ما يقرب من ألف عام. كان نوزل يتحدث دون أن ينظر إلينا. في الحقيقة، أظن أنه كان يتحدث- بشكل خاص- إلى نفسه، وكان معظم الوقت يتحدث هذه المحادثة الغريبة، بصوت منفرد، بلا اهتمام بوجودنا، وأيضًا برأينا. وفيما يتحدث مُسهبًا بعاطفية عن المقطع الخماسي والمقطع السداسي، كان يمسد شعره وشاربه، يملأ غليونه، يكشط بشكل منتظم بقايا الطعام التي

تتناثر في ثنيات معطفه، وينظف أظفاره بسكين حادة. كنا تقريبًا أقل من عشرة فقط نعيره انتباهنا، بينما كان معظم الآخرين نائمين أو يتمعنون في شقوق السقف. وفي اللحظة التي نهض فيها نوزل ليكتب على السبورة بيتين من الشعر، لا يزالان في ذاكرتي، لأن اللغة القديمة للقصيدة كانت تشبه لهجتنا من عدة أوجه،

سوف يَصلون همسًا

ثم يختفون عبر الضباب والأرض

انفتح باب القاعة بعنف، اصطك بالحائط، وشاعت ضوضاء هائلة. التفتنا جميعًا في وثبة واحدة، ورأينا رؤوسًا بعيون جاحظة، وأذرع تشير، وأفواه تصرخ في اتجاهنا: "الجميع إلى الخارج! الجميع إلى الخارج! الثأر لـ"راباش"! الخونة سيدفعون الثمن!" عبر النافذة، لم نستطع أن نميز بالكاد أكثر من أربعة أو خمسة أشخاص، طلاب بلا شك، كانت ملامحهم مألوفة لنا بشكل غائم، لكننا كنا نخمن أن وراءهم هدير حشد هائل يدفعهم، يثبتهم في الصف الأول. ثم اختفوا فجأةً أيضًا كما ظهروا، تاركين الباب مفتوحًا، كفجوة صخرة في عين ماء، وعبر هذه الفجوة، جذبتهم قوة جبرية ومادية، وامتصوا تقريبًا كل هؤلاء الذين كانوا حولي قبل بضع لحظات. كان ثمة صخب شديد من الكراسي والأرائك المقلوبة، من الصيحات، من السباب، من الصرخات، وفجأةً لم يعد يحدث شيء. رحلت الموجة بعيدًا، حاملة الوحشية لتُشيعها وتنشرها في المدينة.

في قاعة الأوسمة، لم يتبق إلا أربعة طلبة: فريتس شويفيل، بدين بذراعين قصيرتين جدًا، ولم يكن يستطيع أن يصعد ثلاث درجات سُلم دون أن يصل إلى حافة الاختناق؛ ويوليوس كاكنج، الذي لم يكن يتحدث مع أحد أيًا مَن كان، ودائمًا ما كان يتنفس من خلال منديل مبلل بالعطر؛ وبارتيلو ميتزا الذي كان أصم كوعاء، وأنا. ثم نوزل بالتأكيد، الذي كان يشهد كل ذلك وإصبع الطباشير مرفوع، فرفع كتفيه باستخفاف، ثم عاد لكرسيه، كأن شيئًا لم يكن.

- ٢٦ -

هذا اليوم الغريب، أمضيته كله بين جدران الجامعة. كنت أشعر بالحماية داخلها. لم أكن أريد الخروج منها. كنت أسمع بالخارج أصواتًا مرعبة، ثم حل صمت مطبق، كان يمتد، ولا ينتهي أبدًا، مما ولد اضطرابات بقوة القصف. لم أبرح المكتبة طوال فترة ما بعد الظهر. وكنت أعرف أن إيمليا في معزل، ببيتها، في المسكن المفروش الذي كانت تتقاسمه مع مُطرزة أخرى، فتاة حمراء الوجه، لها شعر كصوف الخراف، تُدعى جودرون أوستيرك. في الليلة السابقة، كنت قد وعدتهما بعدم الخروج طيلة اليوم.

أذكر جيدًا الكتاب الذي كنت أحاول أن أقرأه، في هذه الساعات العصيبة، في المكتبة. كان كتابًا لطبيب، دكتور كلاوس رينولد ماريا ميسنر، عن تفشي الطاعون عبر العصور. كان الكتاب يتضمن جداول، وأرقامًا، ورسومات بيانية، وكذلك صورًا توضيحية مؤثرة كانت تتعارض مع البرود العلمي للبحث، لأنها كانت تعرضه بنوع من الرومانسية الحزينة والقيِّمة. في إحداها، وقد أزعجتني بشكل خاص، كان ثمة شارع بائس وضيق بإحدى المدن. كانت أرض الطريق مبلطة ببلاط غير مستو، وكل أبواب

البيوت مفتوحة على مصاريعها. ويُرى هروب عشرات الفئران منها، ضخمة، سوداء، وذات وبر كئيب، ووجه مقطب، فيما ثلاثة رجال يرتدون ملابس واسعة يضربونهما بأرجلهم، ورؤوسهم تختفي تحت غطاء لا يُبدي إلا عيونهم، وكانوا يجمعون الجثث المتصلبة على عربة يد. بعيداً، كانت موجات من الدخان ترسم أضلاعًا في الأفق، فيما في المستوى القريب، طفل في أسمال- كأنه يريد الهرب من الصورة- يضع وجهه بين يديه، ويجلس على الأرض مباشرة. على نحو غريب، لم يكن أيٌّ من الرجال الثلاثة يعيره الانتباه، وهو المنتمي بالفعل لمستقبل ميت، مدان. فقط كان ثمة فأر يتأمله. منتصبًا على قدميه الخلفيتين، كان يبدو أنه يسائل بمكر وسخرية الوجه الخفي للطفل. ظللتُ طويلاً أمام الصورة، أتساءل عن الهدف الحقيقي لِمَن رسم هذه الصورة، وكذلك للطبيب الذي يعرضها في عمله.

نحو الساعة الرابعة، انحدر الضوء فجأة. كانت السماء محملةً بغيوم ثلجية، بدأت في الهطول على المدينة. فتحت إحدى نوافذ المكتبة. في الحال، سقطت ندَف ثلج كبيرة على وجنتيَّ وذابت عليهما. كنت أرى أطيافًا تروح وتجيء في الشوارع، بخطوة عادية. كانت المدينة قد بدأت تستعيد وجهها المعتاد. التقطت معطفي، وغادرت الجامعة. لم أكن أعرف أيضًا- في هذه اللحظة - أنني لن أستطيع العودة إليها أبدًا.

حتى أصل إلى حجرتي، كان عليَّ المرور بميدان سالزفاتش، وطريق سيبليوس - فو - ريشت، واجتياز حي كولش القديم، الجزء الأقدم من المدينة، ويتألف من شبكة من الحارات الضيقة تنفتح عليها واجهات عرض لما لا يحصى من الدكاكين، وفي النهاية أسير بمحاذاة متنزه فيلهم والبنايات البائسة لحمامات المياه المعدنية الحارة. كنت أسير بسرعة، دون أن أرفع رأسي كثيرًا. قابلتُ كثيرًا من الأطياف التي كانت تفعل نفس الشيء، ثم بعض الأشخاص الذين كانوا يتحدثون بصوتٍ عالٍ، وبدوا تقريبًا سكارَى، وكانوا يضحكون فيما بينهم.

في ميدان سالزفاتش وفي طريق سيبليوس - فو - ريشت، كان الثلج قد تشبث بالأرض وبالمارة، قليلي العدد، الذين كانوا يتركون عليها علامات سوداء بمسيرهم الشبيه بمسير الحشرات. بالنظر لهذه الأماكن، كان يمكن أن نظن أن شيئًا لم يحدث، وأن المدينة قد عرفت يوم اثنين عاديًا، وأن نوم الشوارع المبكر إنما يرجع فحسب إلى المناخ السيئ والبرد، وأيضًا إلى هذا الليل الذي حل في وقت مبكر إلى حدٍ ما.

لكن كان يلزم الدخول في متاهة حي كولش لندرك أنه لم يحدث أي شيء من ذلك. إنها الضوضاء التي نبهتني. ضوضاء الزجاج، الزجاج المكسور الذي كنت أسير عليه. ورصيف الحارة التي كنت قد دلفت إليها يلمع به، وبعيدًا أيضًا، بأقصى ما يستطيع أن يمتد النظر، كنت ألاحظ تلألؤ كل هذه الشظايا التي كانت تغطيها الندف في كل مكان. لم أستطع منع نفسي من تخيل أنه قد تم نثر أحجار كريمة بغزارة هنا. كان ذلك يمنح الحارة بُعدًا متألقًا، عجائبيًا، سحريًا، ويقرنها بديكور حكاية يبقى لها أن تجد الحبكة والأميرة. لكن هذه الرؤية الأولية سرعان ما تبخرت عندما كان النظر يعلق بالواجهات الفاغرة كأفواه حيوانات نافقة، والأشياء مسلوبة من داخل المحلات، والبراميل المبقورة تتناثر منها رنجة مملحة، ولحوم مجففة، وخيار مخلل، ونبيذ، وقِرَم الجزار المتسخة، والبضائع المبعثرة. كان صوت الخطوات على السجادة الزجاجية يمتزج بصوت الأنين والبكاء. لم يكن يُعرف مَن كان يتألم هكذا، لأنني لم أكن أرى - في أي مكان- أي كائن حي. على العكس، كانت هناك ثلاث جثث، برؤوس منتفخة وذات لون أزرق إثر الضربات التي كانت قد تلقتها، ممددةً أمام دكان صغير لترزي. وعلى الباب الذي لم يعد يُمسك بحلقه إلا مفصلة واحدة، كلمات "شموتس فرمدر - أجنبي قذر"، ولكن كلمة "فرمدر" غامضة، ويمكن أن تعني "خائن"، في الاستخدام العامي لـ"قذارة"، "دنس"- كانت مكتوبة بشكل رديء بدهان أحمر. كان العديد من الحروف مكتوبة بعدة ألوان. وكان

يمكن أن نظن أنها كانت تنزف. وكانت لفافات من القماش ملقاة بلا ترتيب، وقد حاولوا إشعار النار فيها. كانت بعض شظايا الزجاج لا تزال عالقةً في قوائم الواجهة، وترسم- بشكل غريب- نجمة ذات أطراف رقيقة وهشة.

هذا النقش "شموتس فرمدر" كان موجودًا بأماكن كثيرة، يصحبه نقش آخر "راش فور راباش - الثأر لراباش". كانت عيناي تعاودان النظر إلى الجثث الثلاث. شعرتُ بدُوار، وأعادت رؤية هؤلاء الموتى إلى ذاكرتي ذكريات مشوشة، وموتى آخرين، وجثثًا أخرى ممددة كدُمًى لم يعد بملامحها أي شيء إنساني. كنت أستعيد الصبي الصغير التائه بين الأنقاض، المتروك وسط الحصى والركام، والنيران المشتعلة تقريبًا في كل مكان، والذي لم يعد يعرف تمامًا ما إذا كان ألعوبة كابوس لن يختفي أم ألعوبة حقبة كانت قد قررت أن تتسلى به، كما يفعل القط مع الفأر. وفيما كانت تنبثق هذه الأشلاء القديمة من حياتي، كنت أستعيد- مرةً أخرى أيضًا- رؤية كل تفاصيل النقش موضع النظر في كتاب دكتور ميسنر، الأدخنة، الفئران بلا حصر، الطفل، ناس السواد، كومة الجثث، كان ذلك تقريبًا كأنه موجود أمام عينيّ، هذا المشهد المريع للحارة، ذكريات طفولتي المبكرة، تفاصيل اللوحة، كانت تتراكم فوق بعضها البعض فجأةً لتتوحد أهوالها. ترنحت، وأوشكت أن أقع على الأرض، لكني سمعت مَن كان يناديني، صوتًا كان يناديني، صوتًا واهنًا، مكسورًا، صوتًا كان يشبه آلاف الشظايا الزجاجية.

كان عجوزًا منطويًا على نفسه تقريبًا، أبعد قليلاً، في ركن أحد الأبواب. كان شديد النحول ولحيته الطويلة البيضاء تمط وجهه فتزيد من نحوله أيضًا. كان يرتجف ويمد ذراعه نحوي. ذهبت بسرعة إليه، وفيما كان يكرر- بشكل مستمر - نفس الكلمات، "مجانين، مجانين، مجانين، أصبحوا مجانين.."، باللغة القديمة التي كانت لغة فيدورين، كنت أحاول أن أوقفه على ساقيه.

"أين تسكن؟ هل أنت من هذا الشارع؟"

تعلقت عيناه بعينيّ لعدة ثوان، لكنه كان يبدو أنه لم يفهم أسئلتي وكرر لازمته. كانت ملابسه ممزقة في مواضع عدة، ويده اليسرى، التي يغطيها الدم، كان يبدو أنها ميتة. أمسكته من جذعه حتى أرفعه، إلا أني ما إن أسندته بصعوبة إلى الجدار، حتى انفجرت أصوات من خلفنا.

"لا يزالون يتحركون! إنهم يحتقروننا! إنهم واقفون، وراباشنا مات!"

اقترب ثلاثة أشخاص. كان مع كل منهم عصا طويلة، وحول الذراع اليسرى نوع من شارة سوداء، كان يمكن أن نقرأ عليها الحرفين الأولين بالخط المشبك ".R.W" كانوا يتحدثون بصوت عال، ويضحكون. وجه أحدهم، بقدر ما كنت أستطيع أن أرى - لأن واقي الوجه لخوذاتهم كان يُغرق ملامحهم في الظلام - كان يبدو لي مألوفًا، لكني كنت أشعر بالخوف يغزوني وأفكاري تتشوش. كان يمكن أن نظنهم سكارى، لكن الكحول لم يكن يفوح منهم. فالغضب والكراهية كفيلان بقلب العقول. إنهما أعنف من كل أنواع العَرقي. للأسف، استطعت التأكد من ذلك فيما بعد، في مناسبات عدة، في المعسكر.

كان العجوز لا يزال مسمرًا في ترتيله. من جهة أخرى، أعتقد أنه لم يكن يلحظ حتى وجودهم. وضع أحد الثلاثة عصاه على صدره:

"كرر ورائي: أنا فرمدر خراء! هيا، كرر!"

لكن العجوز لم يكن يسمعه، ولم يكن يراه.

"أعتقد أنه لا يفهمك، إنه جريح..."

كانت الكلمات قد خرجت من فمي من تلقاء نفسها، وقد ندمتُ عليها. أتت العصا نحو صدري.

"أأنتَ مَن تكلم؟ أنتَ من تجرأ على أن يتكلم؟ مَن تكون بفمك الفاسد؟ أنتَ أيضًا تفوح بالفرمدر!" ثم أعطاني ضربة في ضلوعي، قطعت نفَسي. في هذه اللحظة، قاطعه صديقه الذي كان يذكرني بشخص ما:

"لا، أنا أعرفه، يُدعى بروديك".

اقترب تماماً بوجهه من وجهي، وفي هذه اللحظة عرفته. كان طالبًا في السنة الثالثة، وكان يتردد كثيرًا على المكتبة، مثلي. لم أكن أعرف اسمه. تذكرت تمامًا أني رأيته مرات عدة يبحث في مؤلفات علم الفلك، ويقضي كثيرًا من الوقت في تأمل عدة خرائط للسماء.

"بروديك، بروديك..."، كرر الذي كان يبدو الزعيم، "اسم جدير بـ"فرمدر"! انظروا لأنفه بفتحتها! أنوفهم، إنها هي التي تفضحهم! وعيونهم الجاحظة، عيونهم الجاحظة التي تبرز من الرأس، لترى كل شيء، لتأخذ كل شيء!"

كان يواصل غرس عصاه في ضلوعي، كما نفعل في حيوان حرون.

"فليكس، اتركه! فالأحرى أن ننشغل بالعجوز، فهو بالتأكيد أحد هؤلاء الأوغاد، دكانه هناك، أعرفه! لص حقيقي يغتني بالإقراض!"

ثالث العصبة، الذي لم يكن قد تكلم بعد، قاطع:

"إنه لي! إنه دوري! فقد ضربه كل منكما مرتين!"

اقترب هو أيضًا فجأةً، حيث كان قد ظل في العتمة حتى ذلك الحين، هو طفل على حد رؤيتي، طفل ربما في الثالثة عشرة، لا أكثر، ذو بشرة رقيقة ونضرة، وبأسنان كانت تلمع في الظلام وكان يبتسم كمعتوه.

"انظروا، فهذا الصغير أولريش يريد نصيبه من الحفل! لكنك رقيق إلى حدٍ ما، يا أخي، ولايزال اللبن يقطر من أذنيك!"

كان يبدو أن العجوز نائم. كانت عيناه مغمضتين. ما عاد يتكلم. دفع الطفل أخاه بقوة، أبعدني بسن العصا، وتجمد أمام الكومة الضعيفة المنطوية على نفسها على الأرض. ساد صمت مطبق. أصبح الليل حالكًا كالطين. هبت نفثة هواء إلى الحارة وطيرت قليلاً من الثلج. لم يكن أحد

يتحرك. كنت أحدث نفسي بأني في حلم، أو أني على خشبة مسرحَ ستوسبيل الصغير الذي كان كثيرًا ما يقدم العروض الغرائبية، بلا رأس ولا ذَنَب، وأحيانًا الوحشية، التي كانت تنتهي دائمًا بشكل هزلي، لكن الطفل تحرك فجأةً من جديد. رفع عصاه فوق رأسه بأقصى ما يمكنه، وانهال بها نابحًا على العجوز الذي لم يصرخ، لكنه فتح عينيه بجحوظ، وراح يرتجف كأنما أُلقى في نهر جليدي. أعطاه الطفل ضربةً ثانية على جبهته، ثم ثالثةً على كتفه، ثم رابعة، ثم خامسة... ما عاد يتوقف وهو يضحك. كان أصدقاؤه يشجعونه وهم يضربون على أيديهم، ويقولون بتنغيم "أي! أي! أي! أي!" ليمنحوه الإيقاع. انفجر رأس العجوز بصوت حاد كبندقة تنكسر بين حصاتين. كان الطفل يضرب كمجنون، بقوة أكثر فأكثر، وهو يصرخ دائمًا، ولكن شيئًا فشيئًا، وفيما لم يكن قد توقف عن الضرب، وهو ينظر لما تبقى من ضحيته وهو يضحك، وما يزال صديقاه يصفقان له، تغير وجهه الملطخ بالدم. بدا الرعب مما اقترفه يخترق شرايينه، يصعد في كل عضو من أعضائه، عضلاته، وأعصابه، ويغزو عقله، ويغسله من كل قاذوراته. تباطأت ضرباته، ثم توقفت. تأمل مرعوبًا عصاه المغطاة بالدم وبشظايا عظام، ويديه، كما لو كانتا لا تنتميان إليه. ثم عادت عيناه نحو العجوز مرةً أخرى، حيث لم يعد وجهه يشبه أي شيء، وجفناه المغمضان، المنتفخان بشكل فظيع، أصبح كل منهما الآن في ضخامة تفاحة.

فجأةً ترك الطفل عصاه تقع عند قدميه، كما لو كانت تحرق راحتيه. أصابه تشنج عنيف وتقيأ سائلاً أصفر، مرتين، ثم رحل جريًا، امتصه الظلام في بطنه، فيما كان صديقاه يتلويان من الضحك، وأخوه الزعيم، يقول له:

"عمل رائع يا صغيري أولريش! أخذ العجوز حسابه! ها أنت من الآن أصبحت رجلاً!"

دفع بقدمه جسد العجوز الذي تقلب في الثلج، وابتعد بسكينة وهو يمُسك بذراع صديقه، وهما يصفران بأغنية عاطفية عصرية صغيرة.

لم أتحرك. إنها المرة الأولى التي كنت أشهد فيها موت إنسان. كنت أحس بالخواء. الخواء من كل فكرة. كان فمي ممتلئًا بمادة الصفراء المرة. لم أستطع أن أنزع عيني عن جسد العجوز. عن الدم المختلط بالثلج. فما إن تصل الندف إلى الأرض حتى تبتلع احمرارها، وترسم تويجات مجوفة لزهرة مجهولة. من جديد، كان صوت الخطَى يُرجفني. اقترب شخصٌ ما مرةً أخرى مني. اعتقدت أنهم عادوا ليقتلوني، أنا أيضًا.

"مجانين المعسكر، يا بروديك!"

كان صوت الطالب، الذي كان يقضي ساعات بعيون زائغة في النجوم والمجرات المعروضة في كتب كبيرة بصفحات شاسعة. رفعتُ رأسي نحوه. كان ينظر إليَّ بلا ضغينة، ولكن بشيء من الاحتقار. كان يتحدث بهدوء.

"مجانين المعسكر! لن أكون هنا دائمًا لأنقذك".

ثم بصق على الأرض، استدار وذهب.

ـ ٢٧ ـ

في اليوم التالي، كان ثمة شائعة تروج بأنه تم لملمة سبع وستين جثة من الشوارع. وكان يُقال إن الشرطة لم تمنع أية جريمة عندما كانت قادرة على ذلك. كانت هناك مظاهرة جديدة متوقعة بعد الظهر أيضًا. فالمدينة كانت على حافة الاشتعال.

استيقظتُ نحو الفجر، بعد ليلة بلا نعاس، خلالها كنت أرى بشكل دائم وجه الطفل القاتل، ووجه ضحيته العجوز، وأسمع نُباح الأول، وترتيل الآخر، والاصطدام الصامت للضربات والاصطكاك المكتوم للعظام التي كانت تتشظَّى. كان قراري قد حُسم. صنعتُ صُرةً من أمتعتي القليلة، وأعدتُ مفاتيح حجرتي إلى المؤجِّرة، فرا هيترنتس، التي أخذتها دون أن تقول شيئًا، ولم ترد على كلمات الوداع القليلة إلا بابتسامة مقززة وقبيحة. كانت تحمِّر قطعة من لحم الخنزير والبصل في مقلاة. كان كوخها مملوءًا بالدخان الكثيف الذي كان يخزِ العين. علقت المفتاح في مسمار،وتصرفت كما لو أني لم أكن موجودًا.

كنت أسير مسرعًا في الشوارع. كان هناك القليل من الناس. في كل مكان كانت تُرى أيضًا قذارات الليلة السابقة. رجال، بوجوه خائفة، كانوا

يتناقشون فيما بينهم، ويتراجعون بكل حماس لدى سماعهم أقل صوت. كانت أبواب بعض البنايات مدهونة بالنقش "شومتس فرمدر schmutz fremder وعلى الأرض كنت أجد الزجاج الساقط على الأرض يَصِر تحت خطاي، ويحدث لي قشعريرة.

كنتُ قد أعددت خطاب وداع لـ أولي رات، إن لم أجده في غرفته. كنت مخطئًا. كان موجودًا بالفعل، لكنه كان مخمورًا لدرجة أنه كان قد نام على سريره دون حتى خلع ملابسه. كان يمُسك أيضًا بزجاجة في يده، نصف ممتلئة، وينشر كالطاعون التبغ، والعرق، والكحول الرديء المصنوع من العنب. كان الكُم الأيمن من سترته ممزقًا ومخططًا ببقع عريضة. من الدم. اعتقدتُ أن صديقي مجروح، ولكني- بعد تعرية ذراعه- أدركت أنه بلا جروح. فجأةً شعرت ببرد شديد. لم أكن أريد التفكير في أي شيء. أجبرتُ نفسي على عدم التفكير في أي شيء. كان أولي ينام مفتوح الفم. كان يشخر. بصوت عال. خرجت من حجرته بعد أن وضعت خطاب الوداع في جيب قميصه.

لم أر أولي رات مرةً أخرى قط.

لماذا كتبتُ هذه الجملة، التي لم تكن الحقيقة كاملة؟ لقد رأيت أولي رات مرةً أخرى،أو بالأحرى اعتقدتُ أنني رأيته مرةً أخرى، ذات مرة. كان ذلك في المعسكر. في الجانب الآخر. أود أن أقول إنه كان موجودًا في جانب هؤلاء الذين كانوا يحرسوننا، لا في جانبنا، نحن الذين لم نكن نمثل إلا المعاناة والخضوع.

كان صباح الجليد. كنت "الكلب بروديك". وكان سيدي، شيدجر، يجعلني أقوم بنزهة. كان لديَّ طوق، ومربوط في الطوق المقود. كان عليَّ أن أمشي على أربع. كان يجب أن أنخر كما ينخر الكلب، آكل كما يأكل الكلب، أبول كما يبول الكلب. كان شيدجر يمشي بجانبي بهيئته البسيطة لموظف مكتبي. في ذلك اليوم، ذهب إلى المخيم الصحي. قبل أن يدخل، ربط

المقود جيداً في حلقة من الحديد مثبتة في الجدار. تكورتُ في التراب، وأنا أضع رأسي على يديَّ، محاولاً نسيان البرد القارس.

في هذه اللحظة،اعتقدتُ أني رأيت أولي رات. أنني رأيت أولي رات. أنني سمعت ضحكته، ضحكته المتميزة جداً المؤلفة من جلجلة حادة وأصوات مبهجة. كان يدير لي ظهره. وكان معه حارسان آخران، على بُعد عدة أمتار مني. كان ثلاثتهم يحاولون تدفئة أنفسهم بفرك أيديهم، وأولي، أو شبح أولي، كان يتحدث:

"نعم، أحدثكم عنه، حقاً زاوية صغيرة من الجنة، إلا أنها بالفعل على الأرض، على بُعد فرسخ من هذا الشيزيربلاتس! به مدفأة جيدة تموء وتصفر، وبيرة طازجة متوجة بالرغوة البيضاء، التي تحملها خادمة قصيرة وسمينة كفخذ الخنزير، وودود من أجل فلس! يستطيع المرء أن يدخن فيها غليونه عدة ساعات، يحلم فيها، وينسى كل هذه الأشياء القذرة التي تفسد علينا حياتنا!"

أنهى جملته بضحكة عالية،كررها الآخرون،ثم أتى بإشارة تدل على التفاته، وأنا، غصتُ بوجهي بين يدَي. لم أفعل ذلك لأني كنت خائفًا من أن يتعرف عليّ، لا. فأنا الذي لم يكن يريد رؤيته. لم أكن أود أن أقابل عينيه. ما كنت أريده بشكل خاص، هو أن أحتفظ في أعماق نفسي وعقلي بوهم أن هذا الرجل الضخم والسمين، السعيد بكونه جلاداً، الذي كان قريبًا مني تمامًا، لكنه الآن في عالم غير عالمي، في عالم الأحياء، ربما لم يكن أولي رات، أولي الذي يخصني، والذي كنت قد أمضيت معه من قبل الكثير من الوقت، ومعه اقتسمت شيئًا من الخبز، وأطباق بطاطس، وأوقاتًا سعيدة، وأحلامًا، ونزهات لا نهائية متأبطي الأذرع. كنت أفضل الشك على الحقيقة، حتى لو كان الشك الأكثر رهافة وهشاشة. نعم، كنت أفضل ذلك، لأني أعتقد أن الحقيقة كان يمكن أن تقتلني.

إنها غرابة الحياة. أعني مجريات الحياة، تلك التي تحملنا إلى أبعد مما نستطيع أن نتابعها، والتي تضعنا- بعد طواف غريب- إما على الحافة اليمنى أو على الحافة اليسرى. لا أعرف كيف استطاع الطالب أولي رات أن يصبح واحداً من حرس المعسكر، أي أحد القِطع السلسة والمنصاعة تماماً من آلة الموت العظيمة التي كانوا يلقموننا فيها. لا أدري عبر أي من المحن أو أي من الانزلاقات وصل إلى هنا. كيف لـ أولي رات- الذي كنت أعرفه، والذي لم يكن يستطيع إيذاء قطة- أن يصبح خادماً لنظام يسحق البشر، يختزلهم لدرجة تصبح بجانبها الدويبة مشتهاة؟

كان المزية الوحيدة للمعسكر شساعته. لم أر مرةً أخرى هذا الذي ربما كان أولي رات، ولم أسمع ضحكته. ربما كان مشهد الصباح الجليدي أحد الكوابيس العديدة التي كانت تأتي لزيارتي. ومع ذلك، كان ذلك يبدو هناك كالحقيقة. لدرجة أنه يوم أن تهت في المعسكر المفتوح على الجهات الأربع، طُفت بكل الممرات حيث تتكدس جثث عديدة، لسجناء ولكن أيضاً لبعض الحراس. قلبتها واحدةً واحدةً معتقداً أنني قد أعثر على جثة أولي، لكنه لم يكن هناك. لم أجد إلا بقايا "الزيلنسينس"، التي تأملتها كثيراً كما نتأمل الهاوية، أو ذكرى عذابات لا نهائية.

في اليوم التالي لما سُمي فيما بعد "البوريش ناشت"، بعد أن وضعت خطابي في جيب أولي، اندفعتُ إلى منزل إيمليا. كانت منشغلة بالتطريز، في هدوء، أمام نافذة حجرتها. وكانت صديقتها جودرون أوستريك تفعل نفس الشيء. نظرت الاثنتان إليَّ باندهاش. فها هما لم تخرجا منذ يومين، هكذا كنت قد طلبتُ منهما بأن تعملا بلا تراخ حتى تُنهيا في الميعاد طلبية مهمة- كانت مفرشاً كبيراً مخصصاً لجهاز عروس. على الكتان الأبيض،كانت إيمليا وصديقتها تزرعان المئات من زهور الزنبق الصغيرة المختلطة بعدة نجوم كبيرة، وعندما رأيت هذه النجوم، شعرت بجسمي يتخدر. كانتا قد سمعتا جيداً صخب الحشد، والصيحات، والصرخات،

لكن حيهما كان بعيداً عن حي كوليش الذي وقعت فيه معظم حوادث السلب والقتل. ولم تعرفا عن ذلك شيئًا.

أخذتُ إيمليا بين ذراعَي. ضممتها نحوي. أقول لها إنني راحل، إنني راحل بلا عودة أبدًا، أقول لها بشكل خاص، إنني كنت قد عدت لأبحث عنها، وإنني كنت أود أن أصحبها معي، إلى وطني، إلى قريتي، حيث هناك، كانت الجبال، التي هي بمثابة عالم آخر، وفيها سنكون في مأمن من كل شيء، وإنه عبر هذا الديكور من المرتفعات، والمراعي والغابات - التي ستمثل لنا أكثر المعاقل أمنًا - أود أن تصبح زوجتي.

شعرت بها ترتجف أمامي. كان ذلك كأني كنت أتلقى ارتجاف عصفور، وبلغ هذا الارتجاف أعمق أعماق جسمي، ليجعله أيضًا أكثر حيوية. أدارت وجهها الجميل نحوي، ابتسمت لي، واحتضنتني طويلاً.

بعد ذلك بساعة، غادرنا المدينة. كنا نمشي بسرعة،ممسكين بأيدي بعضنا البعض. لم نكن الوحيدين. رجال، نساء، عائلات بأكملها، أطفال وعجائز كانوا يهربون أيضاً، وهم يحملون حقائب، متخمة حتى فمها، لم تكن مغلقة وتسمح برؤية محتواها من الملابس والمواعين المكدسة، ويدفعون عربات محملة بصناديق، وحاملين طرودًا غير مربوطة بشكل جيد. كانوا جميعًا يتسمون بهيئة متجهمة وبخوف جعل نظرتهم غامضة. لم يكن أحد منهم يتكلم. الكل كان يسير مسرعًا كما لو أن التعجل سيدفع بعيدًا ما كنا نحمله على ظهورنا الآن.

في الحقيقة، مَن كان يطاردنا؟ أناسٌ آخرون أم سير الأحداث؟ أنا لا أزال في فتوة العمر. لا أزال شابًا، ومع ذلك، عندما أفكر في حياتي أجدها كزجاجة كنا نود أن نُدخل فيها أكثر من سعتها. أهذه حالة كل الحياة البشرية،أم أنني وُلدت في عصر يزيح كل الحدود، ويضرب الكائنات - كما في ألعاب الورق- بلعبة القدر الكبرى؟

أنا، لم أكن أطلب شيئًا عظيمًا. كنتُ أود عدم مغادرة القرية. الجبال، الغابات،أنهارنا، كل ذلك كان يكفيني. كنت أود أن أُقيم بعيدًا عن جلبة العالم، ولكن من حولي تقاتل أناس كثيرون. بالفعل، ماتت بلدان ولم تعد إلا أسماء في كتب التاريخ. بعضها التهم بعضها، بقرت بطونها، اغتصبتها، وسخَتها. ولم ينتصر دائماً مَن هو على حق على مَن هو قذر.

لماذا ينبغي عليَّ، كآلاف البشر، أن أحمل صليبًا لم أختره، أعاني صَلبًا لم يُصنع لأكتافي ولم يكن يعنيني؟ مَن قرر إذن التفتيش في وجودي المظلم، النبش في سكينتي النحيلة، اسمي الرمادي غير المعروف، ليُلقي بي ككرة مجنونة وصغيرة في لعبة البولينج الهائلة؟ الله؟ ولكن حينئذ، لو أنه موجود، موجود بالفعل، فإنه مُتخف. يضع يديه على رأسه ويحنيهاً. ربما، كما أخبرنا من قبل بيبر، لم يكن الكثيرون من البشر غير جديرين به، لكني اليوم، أعرف أيضًا بأنه غير جدير بمعظمنا، ولو أن المخلوق قد استطاع أن يوجِد الرعب فلأن خالقه – وبشكل فريد- قد نفخ فيه الوصفة.

ـ ٢٨ ـ

أعدت قراءة حكايتي تقريبًا منذ البداية. لا أتحدث عن "تقرير" رسمي، بل أتحدث عن كل هذا الاعتراف. إنه يفتقر إلى الترتيب. أسير في كل الاتجاهات. لكن ليس لديَّ ما يبرر لي ذلك. فالكلمات ترِد إلى ذهني كبرادة الحديد إلى المغناطيس، وأسكبها على الصفحة، دون أن أنشغل كثيراً بأي شيء. لو أن حكايتي تشبه جسداً وحشياً، فذلك لأنها صورة حياتي التي لم أستطع كبحها، والتي تسير حسب التيار.

١٠ يونيو، يوم الشوبسنفاس على شرف "لاندرير"، والقرية كلها وأيضًا الكثيرون قد احتشدوا قُرب أسواق الخضار، وانتظروا أمام المنصة الصغيرة التي أقامها "الزونجفروست". منذ فترة طويلة، كما قلت، لم أكن قد شاهدت مثل هذا الحشد في مكان بهذا الصغر. لم تكن إلا وجوهًا فرحة، ضاحكة، وديعة، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في تلك الحشود التي كنت قد عرفتها في الأيام التي استولى فيها الجنون على العاصمة، بالضبط قبل يوم البوريش ناشت، حيث كنت أرى هذه الوجوه الهادئة كأقنعة تُخفي وجوهًا دموية، بعيون معتوهة وأفواه مفتوحة باستمرار.

كان أوكورديون فيكتور هيدكريش يعزف كل الأنغام التي كنا نعرفها، وفي فضاء نهاية ما بعد الظهر هذه، الحارة والرقيقة، كان ثمة روائح أطعمة مقلية، ونقانق مشوية، وفطائر البينية(١) والحلوى بالعسل، فارم سبيك، التي تختلط مع الروائح بالغة الرقة للأعشاب التي كانت تأخذ في الجفاف في المروج المحيطة بالقرية. كانت بوبشيت تستنشق كل ذلك ببهجة، وتصفق بيديها مع كل اللازمات التي كانت تصدر من منفاخ هيدكريش. كانت إيمليا قد ظلت في المنزل، مع فيدورين. لم تكن الشمس متعجلة الاختفاء وراء قمم مرتفعات هورني. وكان يمكن الاعتقاد بأنها تأخذ وقتها، ليطول النهار، رغبةً في الوجود هي الأخرى في الاحتفال.

ولكن فجأةً، خمنا أن الاحتفال كان سيبدأ. كان الحشد يسير عبر موجة جعلته يتحرك ببطء، كأوراق شجر دردار تحركها نسمة هواء. أسكت فيكتور هيدكريش،الذي ربما كنا قد أشرنا إليه، الآلة. سمعنا أيضاً بعض الأصوات، بعض الضحكات، وبعض الصرخات، لكنها قلَّت حتى تبخرت في الصمت الرهيب. حينئذٍ، اشتممتُ خلفي رائحة قن الدجاج. التفت. كان جوبلر يقف على بعد خطوتين. رفع قبعته العجيبة المجدولة من القش ليحييني.

"سنصل إلى العرض، قريبًا؟

- أي عرض؟"، سألته.

رسم جوبلر حركة بيده ليشير إلى كل ما كان يحيط بنا. ضحك بسخرية. لم أُجب بشيء. جذبتني بوبشيت من شعري "- خُصل سوداء بابا! خصل سوداء!" إلى يميني، وعن بُعد عشرة أمتار تقريبًا، حدثت فجأةً حركة، صوت لحذاء يحتك في الأرض، ولجسم يبتعد. رأينا الهيكل الكبير لـ أورشفير يشق الحشد، ومن خلفه، رأينا قبعةً تتحرك في إثره، قبعة كنا

(*) فطيرة من عجينة توضع بها التوابل واللحوم والخضر، وشحم الخنزير. (المترجم).

قد تعرفنا عليها منذ أسبوعين، قبعة مثل بطيخة سوداء ولامعة، خارج العصور والأزمان، والأماكن، والبشر لأنها كانت تبدو كأنها تطير بمفردها، في الهواء، كأنما لا رأس تحتها. وصل العمدة إلى المنصة، صعد إليها، دون أن يتردد ثانيةً واحدة؛ ثم عندما وصل لأعلى، دعا بحركة متكلفة ذلك الذي لم نكن نراه إلا كقبعة لينضم إليه.

بكثير من الحذر، صعد "لاندرير" بجانب أورشفير، محدثًا قرقعة في الخشب الغض. لم تكن المنصة تشغل من أرض سوق الخضار،إلا بضعة أمتار، في الحقيقة أقل من ثلاثة أمتار، ولم يشتمل السُّلم الذي سمره "الزونجفروست" إلا على ست درجات، لكننا ونحن نرى "لاندرير" يصعد، كان يمكننا أن نظن أنه كان يصعد إلى حافة أعلى قمم هورني، بقدر ما كان يصعد ببطء ومشقة. وعندما وصل أخيرًا إلى جانب العمدة، أخذ الحشد يتمتم مندهشًا، لأنه من الواجب أن نقول إنها - بالنسبة للكثيرين الموجودين هناك - كانت المرة الأولى التي يرون فيها مَن تحدثوا عنه كثيرًا في لحم وعظم وملابس. لم يكن سطح المنصة كبيرًا ولا عميقًا. لقد حسبه "الزونجفروست" بالتخمين، حيث أخذ المقاسات على قدر جسمه الذي كان عريضاً كوصلة البناء. لكن أورشفير كان يشبه عملاقًا، طويلاً وضخمًا، فيما كان "لاندرير" قصيراً ممتلئاً كرغيف.

كان العمدة يرتدي لباس الأعياد، ذلك الذي كان يرتديه ثلاث مرات في العام للمناسبات المهمة، عيد القرية، والعيد الشعبي لـ سان ماتيو، ويوم الجنازات. لم يكن يختلف عما كان يرتديه يوميًا إلا في سترة مزركشة بالجدائل وخضراء، وهي تغلق بصف من عشرة أزرار برندبورية(*) في قريتنا، من أجل أن تصمد، فمن الأفضل أن تذوب، ألا تدع شيئًا يبرز منك، بل تكون بسيطًا وخشنًا مثل كتلة الجرانيت الناتئة من سطح أرض المراعي

(*) زخارف العُري علي طريقة برندبور في ألمانيا، وهي عشرة أزرار علي جانبي السترة، حيث تكون الخمسة أزرار قبالة خمسة أزرار. (المترجم).

المملوءة بجذوع النباتات. فَهم ذلك أورشفير منذ زمن بعيد. ولم يستسلم للبذخ.

كان "لاندرير"- وبشكل واضح - شيئًا آخر. كان قد سقط من القمر، أو من مكان أبعد من ذلك أيضًا. كان يجهل أعرافنا وتعقُّد عقولنا. ربما مع قليل من الأوشحة، من العطر، ودهان الشعر، كنا سنجده أقل إزعاجًا. وربما مع رداء من الصوف الفخم، من القطيفة، ومعطف خارجي من الصوف البالي، كان يمكن أن ينتهي الأمر إلى توحده مع منازلنا. وحينئذ، وتدريجياً، لن تتقبله القرية، فذلك ما كان يلزمه - على الأقل - خمسة أجيال؛ ولكن تقبله كما تقبل بعض القطط والكلاب التي خرجت من مكان ما، من بطن الغابة بلا شك، حيث يبهجون شوارعنا بمسيراتهم الصامتة وصيحاتهم المتزنة.

إلا أن "لاندرير"- وبشكل خاص في ذلك اليوم - كان على العكس تمامًا: كانت صدريته البيضاء تُبرِز بين ثينيتين من الستان الأسود، سلسلة للساعة، للمفاتيح، ولما لا أدري، والتي كانت تشكل على كرشه خردوات مذهبة، مع حاشية قميص باهرة ومتجانسة الأزرار، وردنجوت كحلي، وحزام مضفور، وجراب جلدي مزين على الحزام، وبنطلون بشرائط مضفورة، ولفافة ساق رمادية اللون، وحذاء براق، دون أن ننسى خضاب الخدود، وخدوده الممتلئة كتفاحات يانعة، والشارب اللامع، والسوالف المشذبة، والشفاه الحمراء.

كان هو والعمدة - الملتصقان ببعضهما البعض على المنصة الصغيرة - يشكلان ثنائيًا غريبًا، كان أفضل مكان لهما هو خيمة سيرك، وليس ميدان القرية. كان "لاندرير" يبتسم. خلع قبعته عن رأسه وأمسكها في يديه. كان يبتسم من لا شيء، دون أن ينظر لأحد. وكان الهامسون من حولي يرددون:

"توفلاسجوت! ماذا يمثل بذلك بالنسبة لمواطن؟

- هل هو إنسان أم إنسان بلا قوام؟

- قرد كبير، نعم!

- ربما هذا نمط المكان الذي أتى منه!

- إنه دومكومف، نعم، مختل!

- أفواهكم، العمدة سيتكلم!

- فليتكلم، لن يمنعنا هذا من الإعجاب بالظاهرة!"

بمشقة بالغة، سحب أورشفير من أحد جيوبه ورقتين مطويتين ثماني طيات. كان قد أخذ في إزالة تجعيدها وقتًا طويلاً ليتيح لنفسه وقفة، يستعد بها، لأننا كنا نشعر بالفعل أنه كان منفعلاً إلى حدٍ ما، وحتى يقول كل شيء وهو على راحته تمامًا. الخطاب الذي ألقاه كان يساوي وزنه ذهبًا. سوف أستعيده كاملاً. لا لأني حفظته حرفيًا، بل لأني، وبكل بساطة،كنت قد طلبته من أورشفير منذ عدة أيام، وأعرف أنه يوثق كل ما يتعلق بوظيفته.

"ماذا تريد أن تفعل به؟

- من أجل "التقرير".

- لماذا تعود بعيدًا جدًّا؟ لم نطالبك بهذا القدر".

قدم لي الملاحظة بسيماء حذرة، كما لو أنه كان يرتاب في فخٍّ ما.

"ما كنت أحدث به نفسي، هو أنه يستحسن أن أظهر كيف أن قريتنا قد احتفت به بشكل رائع".

دفع أورشفير بدفتر الحسابات الذي كان أمامه، وأمسك بالإبريق والكأسين التى ناولتها له "الكنوج"، صب لنا البيرة، ودفع إليَّ بكأس. كنت أرى جيدًا أن طلبي كان يضايقه، وأنه كان مترددًا، إلا أنه قال في النهاية:

"لو أنك تظن أن ذلك سيكون مفيداً لنا، فافعله إذن".

أمسك بقطعة من الورق، ثم كتب عليها ببطء بعض الكلمات، ثم قدمها لي.

"ستذهب إلى دار العمدة وستعطيها لـ هوسورن، وسيعرض عليك الخطاب".

- هل أنت مَن كتب هذا الخطاب؟"

وضع أورشفير كأس البيرة ونظر إليَّ، وقد بدا عليه الغيظ والحِنو في آن. ثم خاطب "الكنوج"، بصوت عذب لم أكن أعرفه.

"أتسمحين بأن تتركينا، ليز؟" .

رسمت المكفوفة الصغيرة انحناءة برأسها وانسحبت. انتظر أورشفير حتى أغلقت الباب قبل أن يجيب:

"بروديك، أترى هذه الطفلة وعينيها الميتتين. لقد وُلدت بعينين ميتتين. مِن كل ما تستطيع أن تتأمله من حولك، خزانة الملابس هذه، هذه الساعة، قطعة الأثاث هذه التي صنعها أبو جدي بيديه، وهذه الناحية من غابة تانارنجن التي نراها عبر النافذة، هي لا ترى شيئاً. لا شك أنها تعرف أن كل ذلك موجود، لأنها تشعر به، تتنفسه، تلمسه، لكنها لا تستطيع رؤيته. وحتى لو طلبت رؤيته فلن يتسنى لها ذلك. ولذلك فلن تطالب به. لن تضيع وقتها في هذا الطلب لأنها تعرف أن لا أحد يستطيع إرضاءها".

توقف واحتسى جرعة كبيرة من كأسه.

"يجب أن تجتهد في محاكاتها إلى حدٍ ما، يا بروديك. يجب أن تقنع بالسؤال عما تستطيع أن تحصل عليه، وبما هو مفيد؛ أما الباقي، فلن يفيد في شيء. إلا أنه سيضللك، سيضع في رأسك ما لا أدري من فكرة، ويجعلها تنضج، هذه الفكرة، وتغلي في عقلك، وكل ذلك بلا طائل! سأقول لك شيئاً. في المساء الذي قبلتَ فيه أن تعد "التقرير"، قلتَ إنك ستقول "أنا"، لكن هذه الـ"أنا" كان ينبغي أن تنطق بالـ "نحن" جميعًا. تتذكر، أليس

كذلك؟ ولذلك، فلتقل عن هذا الخطاب، إننا جميعًا فكرنا فيه وكتبناه. ربما أنا مَن قرأه، لكننا جميعًا ابتكرناه. فلتكتفِ بذلك. كأس أخرى، يا بروديك؟"

في دار العمدة، عندما ناولت الورقة لـ كاسبر هوسورن، أبدى استياءه. كان ينوي أن يقول شيئًا ما، ثم عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة. أدار لي ظهره وفتح درجين كبيرين. رفع سجلات عديدة، ثم وصل إلي أن أمسك حافظة من الكرتون سوداء، مرصوص فيها عشرات الأوراق بمقاسات مختلفة. تفحصها سريعًا، ثم انتهى إلي وضع يده علي أوراق الخطاب، التي مدها لي بلا كلمة. أخذت الأوراق وتأهبت لوضعها في جيبي عندما أوقفني بحزم:

"إن كلمة العمدة تقول إن لك الحق في قراءة الأوراق ونسخها، وليس أخذها!"

بحركة من رأسه، أشار لي هوسورن إلى طرف منضدة وكرسي. ثم ضغط نظارته علي أنفه وابتعد عني، واستعاد كتاباته على مقرأته. جلستُ وبدأت في نسخ الخطاب، منتبهًا تمامًا لنقل كل الكلمات. كان هوسورن يرفع رأسه من حين لآخر ويراقبني. كان زجاج نظارته سميكًا لدرجة أن عينيه- من خلاله - كانتا بحجمهما الكبير تشبهان بيض القمري، ومع أن قسمات وجهه كانت لطيفة وبديعة للغاية، مما يجعل النساء يُعجبن به، إلا أنه كان يذكرنا كذلك بحشرة هائلة، بنوع من الذباب الكبير كان له أن يسرق جسم إنسان مقطوع الرأس ليغرس فيه رأسه بعنف.

"عزيزاتي وأعزائي من قريتنا ومن كل القرى المجاورة، وحضرتك، سيدي العزيز، إنها لسعادة بالغة أن نستقبلكم بين ظهرانينا".

قبل أن أذهب بعيدًا، وقبل أن أستعيد كل ما قرأه أورشفير في ذلك اليوم، علي المنصة، خلال نهاية يوم رائع كان على بُعد ألف فرسخ عن البرد

ومشاعر رعب مساء "الإيرينيه"، لابد أن أتحدث عن حالة البلبلة التي اجتاحت العمدة عندما كان قد بدأ بالكاد حديثه، بعد أن قال "سيدي العزيز"، علق جملته، نظر لـ "لاندرير"، وانتظره أن يكمل، بقول اسمه، هذا الاسم الذي لم يكن يعرفه أحد. لكن "لاندرير" ظل صامتًا، مبتسمًا، دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة، على الرغم من أن العمدة كرر عدة مرات "سيدي.. سيدي..؟" بنبرة استفهامية لطيفة، مما اضطره أن يواصل دون نَيل أي شيء.

"حضرتك الأول، وحتى هذه اللحظة الوحيد، الذي يأتي لزيارتنا في هذه الأماكن، ومنذ شهور طويلة وأليمة، منذ أن تركت الحرب أثرها الوحشي. في الماضي، ولعدة قرون طويلة، كان يعبر منطقتنا رحالة جاءوا من سهول واسعة من الجنوب، يجتازون طريق الجبال من الجهات الشمالية والمدن الموانئ. كانوا يجدون دائمًا هنا استراحة مضيافة ولطيفة، والتواريخ القديمة تتحدث عن قريتنا وهي تشير إليها بالاسم القديم " wolhwollend trast الاستراحة المضيافة". نحن لا نعرف ما إذا كان هذا هدفك. أيًا ما كان، فيشرفني أن تقيم بين جماعتنا المتواضعة. فحضرتك مثل ربيع للإنسانية، يأتي بعد شتاء بالغ الطول، ونأمل أن يأتي من بعدك مَن يزورنا، وهكذا سنصبح شيئًا فشيئًا، مرتبطين من جديد بالجماعة الإنسانية. فلو سمحت سيدي العزيز...- وهنا أيضًا توقف أورشفير، ونظر لـ"لاندرير"، تاركًا له الوقت ليقول اسمه، لكن هذا الاسم لم يأت، وأورشفير، بعد أن تنحنح أكثر من مرة، عاد لورقته، لا تحكم علينا بشكل سيئ أو سريعًا. لقد مررنا بمحن عديدة، وعُزلتنا بلا شك جعلت منا كائنات على هامش الحضارة. والآن، فنحن - لمن يعرفنا حقًا - نساوي أفضل مما نبدو عليه. لقد عرفنا المعاناة والموت، وعلينا أن نتعلم من جديد الحياة. علينا أيضًا أن نتعلم، ليس فقط نسيان الماضي، ولكن هزيمته، بإقصائه للأبد بعيدًا عنا، وأن نعمل على ألاَّ نجعله يطغى على حاضرنا،

وأيضا إلي حدٍ ما علي مستقبلنا. باسم السيدات والسادة، وباسم قريتنا الجميلة التي أتشرف بإدارتها، أرحب بك، سيدي العزيز- وهذه المرة، لم يُلمح العمدة لأي توقف- والآن أترك لحضرتك الحديث".

نظر أورشفير إلى الجمع، وطوى أوراقه، وصافح "لاندرير" فيما كان التصفيق يصَّاعد إلى السماء الزرقاء والوردية، حيث كانت طيور السنونو تبدو نشوانة، وتتبارى في السرعة عبر سباقات غير متناغمة. أخذ التصفيق يخبو تدريجياً، ثم عاد الصمت ليستقر، ثقيلاً. كان "لاندرير" يبتسم، لكننا لم نكن نعرف لمن يتوجه بابتسامته، للفلاحين المكدسين في الصف الأول، الذين لم يفهموا شيئًا كثيرًا من الخطاب، والذين لم يكونوا ينتظرون إلا لحظة شُرب النبيذ والبيرة، لـ أورشفير الذي كنا نشعر باضطرابه المتزايد، كلما امتد الصمت، للسماء، للسنونو ربما. أبدًا، لم يكن قد نطق بكلمة واحدة عندما هبت فجأةً عاصفة شديدة، عاصفة هادئة جدًا وحارة جداً مع ذلك، جعلت الحيوانات تهيج في حظائرها، وأزعجتها إلى حد أنها أخذت ترفس - بلا سبب - الأبواب والجدران. اندفعت نحو راية الترحيب الصغيرة، ومزقتها من المنتصف، ثم تلاعبت بها، ثم انطوت في مزقها، وبرمتها، وأخيرا انتزعت منها الجزء الكبير الذي طار بأقصى سرعة باتجاه الطيور، والسحب، والغروب. رحلت الرياح كما أتت، كلص. وانهار ما كان باقيًا من الراية. لم يعد موجوداً إلا كلمتان " wi sund نحن نكون"، وباقي الجملة اختفي في الهواء، تبخر، نُسي، دُمر. أشم مرةً أخرى رائحة الدجاج بجانبي. إنه جوبلر الذي كان قد اقترب، قريبًا جدًا من أذني:

"نحن نكون! بروديك، ولكن ماذا نكون..؟ أسأل نفسي بالفعل.."

لم أجبه بشيء. كانت بوبشيت تغني من فوق كتفي. كانت تصفق بشدة أثناء التصفيقات. وحادث الراية العارض كان قد ألهى الحشد لعدة ثوان، لكنه هدأ من جديد، وكان ينتظر. كان أورشفير أيضًا ينتظر، وعندما نعرفه

قليلاً، كنا سندرك أنه لم يعد يستطيع الانتظار. ربما فهمه "لاندرير" بالتأكيد، لأنه تحرك قليلاً، مرر يديه على خديه، وهو يسحبهما، ثم وضعهما أمامه، ضمهما، كما لو كان يدعو، حرك رأسه يسارًا ويمينًا دون أن يفقد ابتسامته، ثم قال "شكرًا". ببساطة "شكرًا ". ثم انحنى بتكلف، ثلاث مرات، كما لو كان في مقدمة المسرح، في نهاية عرض. شاهدناه. البعض انفرجت أفواههم عن آخرها لدرجة أنه كان يمكننا أن نلقمها بسهولة برغيف كبير. والبعض تدافعوا بمرافقهم متسائلين بعيونهم. وآخرون رفعوا أكتافهم، وهم يحكون شعرهم. ثم حدث أن بدأ أحدهم بالتصفيق. إنها إحدى الطرق للخروج من المأزق. قلدناه. صارت بوبشيت من جديد سعيدة. "الحفل بابا، الحفل!"

بالنسبة لـ"لاندرير"، ارتدى قبعته، ونزل من فوق المنصة أيضًا ببطء كما صعد، ثم اختفى وسط الحشد، تحت نظر العمدة، الذي ظل أبله، جامدًا، ذراعاه تحاذيان جسمه، فيما القطعة الباقية على قيد الحياة من الراية كانت تعاكس وبر قبعته، وعند قدميه كان هؤلاء وأولئك يفرون، بخطى حثيثة نحو مسرح الحفل، والأكواب، والكؤوس، وأباريق النبيذ، والنقانق، وفطائر الحلوى.

ـ ٢٩ ـ

دخل شخصٌ ما إلى المخزن! دخل شخصٌ ما إلى المخزن! أنا متأكد أنه جوبلر! أُقسم على صحة ما أقول! لا أحد سواه! بالتأكيد، فهناك آثار، آثار خطوات في الثلج، آثار طينية ضخمة، تسير باتجاه منزله! إنه حتى لم يتخف! إنهم يشعرون بالقوة لدرجة أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء إخفاء دليل تجسسهم عليَّ، جميعًا، وأنني تحت نظرهم، في كل لحظة.

كان يكفي أن أتغيب لمدة ساعة تقريبًا، لكي أذهب فأشتري صوفًا لفيدورين، ثلاث لفات من الغزل من الدكان الصغير لـ فريدا بيرتسر، الذي يبيع بعضاً من كل شيء، وشاحًا مزينًا، إبرًا، خيوطًا، أقاويل، أزرارًا، قماشًا بالمتر، حتى يكون لديه وقتٌ للدخول إلى المخزن، والتفتيش في كل شيء! ليقلب كل شيء رأسًا على عقب! كل شيء قُلب، فُتح، نُقل من مكانه! لم يُكلف نفسه حتى عناء أن يُعيد الأشياء التي قلَبها إلى وضعها! وفَتح دُرج المكتب عُنوة، مكتب ديودم، كَسر الدرج، وتركه على الأرض! عمَّ كان يبحث؟ عما أكتب بكل تأكيد. يسمع الآلة كثيرًا. ويشك في أني أكتب شيئًا آخر غير"التقرير"! لكنه لم يجد شيئاً! لن يستطيع أن يجد شيئًا! فمخبئي آمنٌ جدًا.

عندما اكتشفتُ كل ذلك في الحال، كنت غاضبًا. لم أفُكر. رأيت الآثار، فاندفعت نحو منزل جوبلر وطرقت الباب، طرقات قوية براحة يدي. كان الليل قد حل من قبل، وكانت القرية نائمة، لكن كان ثمة ضوء في منزل جوبلر، وكنت متأكدًا أنه لم يكن نائمًا. امرأته هي التي أتت لتفتح الباب. كانت ترتدي قميص نوم، وعندما رأت أنه أنا، ابتسمت. عبر الضوء المعاكس، خمنتُ شكل ردفيها الكبيرين وثدييها الهائلين. كانت منكوشة الشعر.

"مساء الخير، يا بروديك، قالت ذلك وهي تمرر لسانها على شفتيها عدة مرات.

- أريد أن أرى زوجك!

- هل أنت على ما يُرام؟ أأنت مريض؟

كنت أصيح باسمه بكل ما أوتيت من صوت. لم أتوقف عن الصياح عليه.حدثت حركة في الطابق الأعلى، وبسرعة، ظهر جوبلر، بشمعة في يده وقلنسوة النوم علي رأسه.

"ولكن ماذا حدث يا بروديك؟

- أنتَ من يقول لي! لماذا فتشت مخزني ؟لماذا كسرت درج المنضدة؟

- أؤكد لك أني..

- لا تظنني معتوهاً! أعرف أنه أنت! أنت تراقبني بشكل دائم! هل الآخرون هم مَن قالوا لك أن تفعل ذلك؟ آثار الخطوات تصل إلى بيتك!

- الخطوات؟ ولكن أية خطوات؟ بروديك.. أتتفضل بأن تدخل لتشرب منقوع النباتات،أعتقد أنك...

- إذا ما عدتَ لذلك، يا جوبلر، فأقسم لك أني...

- أنك ماذا؟"

كان قد اقترب مني. أصبح وجهه قريبًا جدًا من وجهي. كان يحاول أن يراني من خلال الغشاوة البيضاء التي تأكل عينيْه كل يوم أكثر.

"فلتهدأ، إنه الليل، أنصحك بأن تذهب لتنام... أنصحك..."

فجأةً، أخافتني عينا جوبلر. لم يعد بها شيء إنساني. كان يمكننا أن نقول إنها عيون زجاجية، عيون متجمدة، كانت كالمرة التي رمقني بها حين كان عمري أحد عشر عامًا، حيث كانت مجموعة من رجال القرية قد ذهبوا للبحث عن جسد اثنين من عمال الغابات من ضيعة فروكسكم، حين جرفهم انهيار ثلجي تحت منحدرات شينكليكاوبف. كانوا قد أنزلوا الجثتين في ملاءات كبيرة مربوطة بعصيّ. لم يكونوا بعيدين عندما مروا بكوخنا، بينما كنت ذاهبًا لأنزح الماء. خرج ذراع أحد الرجلين وكسر إيقاع المسيرة، ورأيت أيضًا رأس الرجل الآخر من خلال انحراف الفتحة. رأيت نظرته، نظرته الجامدة والبيضاء، بياض كامد وواضح، كما لو أن الثلج الذي قتله كان قد سُكب في عينيه. أطلقتُ صرخة، وانكسر الإبريق، ثم عدت جاريًا نحو الكوخ لألقي بنفسي بين أحضان فيدورين.

"لا تقل لي أبداً ما يمكنني أن أفعله، يا جوبلر".

رحلت دون أن أسمح له بالرد.

أمضيت ساعةً وأنا أعيد كل شيء إلى مكانه في المخزن. لم يُسرق شيء، والسبب، أنه لا يوجد ما يُسرق. ما أكتبه هنا مخفي بشكل عظيم لا يستطيع أحد أن يعثر عليه أبدًا. أُمسك بالأوراق بين يدَي. لا تزال دافئة، وعندما أقربها من وجهي لأشتمها، أشم رائحة الورق، رائحة الحبر، وأيضًا رائحة الجلد. لا. لن يستطيع أحد أبدًا العثور على خبيئتي.

كان لديودم أيضاً خبيئة، وقد اكتشفتها، بالصدفة البحتة، وأنا أحاول ضبط درج المكتب. قلبتُ قطعة الأثاث، دحرجتها علي الأرض، وهنا وجدت مظروفًا كبيرًا، ملتصقًا تحت اللوح الخشبي، في موضع محدد في الدرج

استُخدم لإخفائه. وجدت الدرج خاليًا، ولكن في أعلاه - كان هناك المظروف، ملتصقًا بشكل لا يمكن الشك فيه.

ما يحتويه كان متباينًا إلي حدٍ ما، فقُمت بالفرز. بدايةً، كانت هناك قائمة طويلة مقسمة إلى عمودين، الأول عنوانه "روايات مكتوبة"، والآخر "روايات للكتابة". يحتوي الأول على خمسة عناوين: الفتاة على حافة الماء، القائد العاشق، الشتاء النضر، باقات ميرنا، والقلوب المتأثرة. لم أكن أعرف فقط هذه العناوين، لكني كنت أعرف أيضاً كل هذه الروايات، حيث كان ديودم يقرأها عليَّ في مسكنه الصغير المزدحم بكتب، وسجلات، وأوراق كانت تنقص في كل لحظة وهو يشعلها كشموع. كنت أصارع - كل مرة - النوم، ولكن ديودم كان مولعًا بقصصه وكلماته، لدرجة أنه لم يكن يدرك حتى أني نائم.

ضحكت أثناء قراءتي القائمة، لأن هذه العناوين ذكرتني بكل اللحظات التي قضيتها في صحبة ديودم،واستعدت وجهه الجميل بقسماته الواضحة، الذي كان ينتعش أثناء القراءة. وأنا أطوف بالقائمة الثانية، قائمة روايات للكتابة، لم أستطع أن أمنع نفسي من الانفجار بالضحك، وأنا أفكر فيما كنت أهرب منه. لقد صف ديودم ستين عنوانًا من الروايات! كان معظمها متشابهًا، كانت تحرك الخيال في ماء الورد. ولكن كان ثمة اثنتان تتمايزان عنها جميعاً،وكان ديودم قد أشَّر عليهما بخطوط بالقلم الرصاص: خيانة المنصفين والندم. من جهة أخرى، كانت هذه الأخيرة قد أعيد نسخها أربع مرات، بحروف تكبر أكثر فأكثر، كما لو أن قلم ديودم الرصاص كان قد تلعثم.

على ورقة أخرى، كان قد رسم شجرة نسب عائلته. كانت هناك أسماء أبويه، أجداده، أجداد أجداده، تواريخ وأماكن ميلادهم. كانت هناك أيضًا أسماء أعمامه وأخواله، العمات والخالات، أبناء العم والخال، أسماء الأجداد البعيدين. لكن كان ثمة أيضًا فراغات كبيرة، بعض الثقوب، بعض

السطور التي توقفت فجأةً على مساحة بيضاء أو علامة استفهام. هكذا، كانت بعض أغصان الشجرة ممتلئة ووافرة، تنهار تقريبًا تحت الأسماء، وأخرى كانت عارية، اختُزلت في سطر صغير كان ذابلاً بلا زخرفة. حينئذٍ فكرتُ في غابات الرموز الغريبة، وفي الحيوات الفائتة التي كانت تستطيع تشكيل كل أشجارنا لو قمنا بصفها جنبًا إلى جنب. كان لشجرة نسبي أن تختفي تحت الأغصان المختنقة بكثير من العائلات التي تحتفظ - منذ عدة قرون - بذكراها كأنفس أنواع الميراث. من ناحية أخري، فشجرة نسبي لن تكون شجرة، مجرد جذع نحيل تمامًا. وفوق اسمي، كان سيوجد بكل بساطة ساقان، سرعان ما قُطعا، عاريين، مجردين، أخرسين بكل عزم وتصميم. ولكن، ربما بعد كل ذلك، هل كنت سأستطيع أن أجد مكانًا لـ فيدورين، كما نستطيع أحيانًا تطعيم نبات هزيل بطعم أكثر صلابة، حتى نمنحه قوته وحيويته؟

كان ثمة أيضًا في المظروف خطابان، كانت قد تمت قراءتهما مرات ومرات، لأن الورقة كانت قد استحالت إلى ورقة خفيفة، والثنيات كانت تهدد بالقطع في مواضع عدة. كانا موقعين باسم ماجدلينا، وكانا موجهين لـ ديودم منذ وقت بعيد، تقريبًا قبل أن يأتي ليقيم في قريتنا. إنهما خطابا عشق، لكن الثاني كان يتحدث عن نهاية الحب. كانت تحدثه بكلمات بسيطة، بلا جمل طويلة، بلا تأثيرات أو صيغ مؤثرة مبكية. كانت تحدثه كحقيقة للوجود، كحدث لا نستطيع أن نحاربه ويُجبر البشر علي ثني رقبتهم وتقبل قدرهم.

لا أود أن أنقل هنا كل أو جزءًا من هذين الخطابين. إنهما لا يخصاني. وليسا جزءًا من تاريخي. أثناء قراءتهما، حدثتُ نفسي بأنه ربما بسببهما أتى ديودم لقريتنا، ووضع مسافة كبيرة بين وجوده القديم والحالي الذي أخذ في بنائه تدريجيًا في القرية. لا أعرف ما إذا كان قد استطاع تضميد هذا الجرح. لا أعرف أيضًا ما إذا كان قد أراد ذلك بالفعل. فأحيانًا، نحب ندوبنا الخاصة.

كانت بين يديَّ أجزاء من حياة ديودم، قطع صغيرة جوهرية، تكشف بتجميعها عن روح اختفت. وأثناء التفكير في حياته، حياتي، حياة إيمليا، فيدورين، وفي حياة "لاندرير" أيضًا، لم أكن بقادر بالفعل على قول شيء تقريباً، إلا أني كنت أتخيل فقط أن القرية حينئذٍ كانت تبدو لي في يوم جديد: رأيتها فجأةً كمكان أخير، يجمع بين هؤلاءً الذين تركوا وراءهم الليل والهوة، لا المكان الذي يمكن للمرء فيه أن يبدأ من جديد شيئًا ما، ولكن ببساطة المكان الذي يمكن فيه أن ينتهي كل شيء، حيث يتوجب أن ينتهي كل شيء.

ولكن كان هناك أيضًا شيء آخر في المظروف الأسمر.

كان هناك خطاب آخر.

خطابٌ كان موجهًا إليَّ، أمسكته بكل فضول، لأنه من الغريب أن تسمع ميتًا يتحدث إليك. كان خطاب ديودم يبدأ بهذه الكلمات "سامحني يا بروديك، سامحني، أرجوك..."، وينتهي بها.

قرأت هذا الخطاب الطويل.

نعم، قرأته.

لا أعرف ما إذا كنتُ سأستطيع أن أعطي فكرةً عما شعرت به أثناء قراءته. فضلاً عن أنني لم أكن متأكدًا من أني شعرت بشيءٍ ما. على أية حال، يمكنني تأكيد أنه لم تكن هناك أية معاناة: لم أعان أثناء قراءتي لخطاب ديودم، الذي كان اعترافًا طويلاً، لأنني كنت أفتقر إلى الأعضاء الأساسية لتكبُّد المعاناة. لم أعد أمتلكها. انتزعوها مني، واحدًا تلو الآخر، في المعسكر. ومنذ ذلك، للأسف،لم تتمُ فيَّ مرةً أخري.

ـ ٣٠ ـ

أنا متأكد من أن ديودم كان يعتقد أنني - بعد قراءتي ما كتبه لي- سوف أكرهه بكل تأكيد. كان ديودم يعتقد أنني لا أزال مندرجًا ضمن النظام الإنساني، لكنه كان مخطئاً.

مساء أمس، بعد أن رتبتُ المخزن، وبعد أن وجدت الخبيئة بالصدفة، وبعد أن تصفحتُ كل ما كان يحتويه المظروف الأسمر، انضممت إلى إيمليا في السرير. كان الوقت متأخرًا. كانت نائمة. تكورت بجانبها. تعلقت بدفئها وبشكل جسمها، ثم نمت بسرعة. لم أفكر فيما قرأتُه. كانت روحي خفيفة علي نحو غريب وجسمي ثقيلاً جدًا، من التعب ومن الروابط المقطوعة. هويتُ بسعادة في النوم، كما كنت أفعل كل مساء أثناء طفولتي. وحلمتُ، لا الأحلام التي كانت تعذبني كالمعتاد، البئر المظلمة للكازرسكفير التي أدور حولها، أدور بلا توقف،بل حلمت أحلامًا هادئة.

التقيت الطالب كلمر. كان حيًا بالفعل، وكان يرتدي قميصه الأبيض الجميل المصنوع من الكتان، والموشى بأهداب حلزونية. كان نظيفًا ويظهر احمرار بشرته ورقبته النحيلة للغاية. لم نكن في الطريق للمعسكر. لم نكن أيضاً في عربة القطار، حيث أمضينا عدة أيام، مكدسين مع آخرين.

كنا في مكان لم يكن يُذكرني بشيء معروف، ولم أكن أستطع أيضًا أن أقول ما إذا كان موجودًا بمنزل أو في الخارج. كان كلمر كما لم أعرفه قط. لم يكن يحمل أي أثر لضرب. كانت وجنتاه نضرتين ونديتين. كانت تفوح رائحة جميلة من ملابسه. يبتسم. يحدثني. حدثني طويلاً وكنت أنصت له بلا مقاطعة. ثم في لحظة، وقف وفهمت- دون أن يكون بحاجة لأن يقول لي - أن عليه أن يرحل. نظر إليَّ، ابتسم لي، أذكر بوضوح الكلمات الأخيرة التي تبادلناها حينذاك:

"بعد ما فُعل بنا في العربة، كان لابد أن أتوقف، يا كلمر، مثلك، ولا أعود للجري، أتوقف على الطريق.

- لقد فعلتَ ما اعتقدتَ أنه من الأفضل أن تفعله، يا بروديك.

- لا، أنت مَن كان محقًا. هذا ما كان يجب علينا، أنا كنت جبانًا.

- لا أعرف ما إذا كنتُ على حق. إن موت إنسان، يا بروديك، لا يكفر عنه أبدًا التضحية بإنسان آخر. كان سيصبح ذلك سهلاً جداً. ثم إنك ليس لك أن تحكم على نفسك. وليس عليَّ أنا أيضًا أن أفعل ذلك. ليس على البشر أن يحكموا بأنفسهم علي بعضهم البعض. لم يُخلقوا لذلك.

- كلمر، هل تعتقد أنه حان الوقت لأن ألحق بك الآن؟

- فلتبق بالجانب الآخر، يا بروديك. مكانك لا يزال هناك".

هذه كلماته الأخيرة على ما أذكر. ثم أردتُ أن أقربه مني، أردت أن أجعله أمامي وأحتضنه بين ذراعيَّ، لكني حينئذٍ لم أضم إلا الهواء.

لا أعتقد أن الأحلام تنبئ بما يحدث، كما يدَّعي البعض. ببساطة، أعتقد أنها تحدث في اللحظة المناسبة، وهي تقول لنا، في جوف الليل، ربما، ما لم نجرؤ على الاعتراف به في وضح النهار.

لن أستعيد خطاب ديودم كاملاً. فضلاً عن ذلك، لم يعد بحوزتي. فأنا أُقدر كَم وجب عليه أن يتكبد ليكتبه.

لم أذهب من تلقاء نفسي للمعسكر. فهم قبضوا عليَّ واقتادوني إلى هناك. كان "الفراترجيكم" قد دخلوا قريتنا تقريبًا منذ أسبوع. وكانت الحرب قد بدأت منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر. كنا مقطوعين عن العالم، ولم نكن نعرف شيئًا ذا بال. كانت الجبال تحمينا من الصخب، لكنها- في نفس الوقت - تعزلنا عن جزء من الحياة.

ذات صباح رأينا وصولهم، عمود طويل مسحوب ومترب كان يسير بسرعة على طريق الحدود. لم يحاول أحدٌ أن يبطئ تقدمهم، وهو- على أية حال - ما كان له أن يفيد في شيء، ثم إنني أظن أن كلا منا كان في رأسه موت ابني أورشفير، وبالتأكيد كان الجميع يريدون تجنب ذلك، تجنب حدوث أي موت.

من جهة أخري، فالأهم الذي يتيح الفهم، هو أن هؤلاء الذين أتوا إلينا في خوذات، ومدججين، وأقوياء بانتصاراتهم المجلجلة على كل الفرق التي قابلوها، كانوا قريبين جدًا من سكان منطقتنا التي لم تكن تمثل الجزء الأكبر من شعب أمتنا. الأمة، بالنسبة للناس هنا، لم تكن موجودة. كانت - إلى حدٍ ما - كامرأة كانت تتذكرهم، من حين لآخر، بكلمة ناعمة، بطلبٍ ما، لكنهم لم يرو قط لا العيون ولا الشفاه. فهؤلاء الجنود الذين أتوا منتصرين كانوا يتقاسمون عاداتنا، كانوا يتحدثون لغة قريبةً بدرجةٍ ما من لغتنا، وكان يكفيها قليل من المجهود لفهمها وإجادتها. التاريخ العريق لبلدنا يمتزج وتاريخ بلادهم. فنحن نشترك معهم في الأساطير، الأغاني، الشعراء، اللازمات الموسيقية، طريقة تسوية اللحوم، وتجهيز الحساء، نفس الحنين والنزوع المتشابه إلى السقوط في السُكر. والنتيجة، إن الحدود لم تكن إلا ضربات بقلم رصاص على الخرائط. إنها تقسم العوالم، لكنها لا تفصلها. أحياناً نستطيع نسيانها بنفس السرعة التي خُطت بها. كانت مجموعة الجنود التي دخلت القرية تتألف من نحو مائة رجل، تحت إمرة قائد كان يُدعى أدولف بولر. لم أتعرف عليه إلا قليلاً

جدًا. أتذكر أنه كان رجلاً صغير الجسم، نحيفًا جدًا، وكان مصابًا بتشنج عضلي في وجهه، كان يدفعه إلى القيام بحركة خاطفة من ذقنه إلى يساره كل عشرين ثانية تقريبًا. كان يمتطي حصانًا بوبر قذر ويغطيه الوحل، ولم يكن ينفصل قط عن سوطه، سوط قصير برأس مضفور. تمركز كل من أورشفير والقس بيبر عند مدخل القرية ليستقبلوا المنتصرين، ويتوسلوا إليهم ليراعوا السكان والمنازل، بينما - في كل مكان - كانت الأبواب والنوافذ مغلقة بقوة، والكل كان يحبس نفسه. دون أن ينزل الكابتن بولر عن مطيته، سمع لغمغمة أورشفير. بجانبه، كان هناك حامل راية يمسك برُمح معلقٍ عليه علم بلون أحمر وأسود. بدايةً من اليوم التالي، استُبدل العلم الموجود على قمة دار العمدة. كان يمكننا أن نقرأ عليه اسم الفرقة التي يتبعها الجنود- الوثبة المنيعة - وكذلك شعارها - بعدنا، لا أحد.

لم يجب بولر بشيء على أورشفير، أعطى بعض الضربات من ذقنه، وأبعد بهدوء العمدة بسوطه، ثم تقدم، يتبعه جنوده.

كان بإمكاننا الاعتقاد بأنه كان سيقضي بأن يقيم هؤلاء الرجال في الدفء، في أسرِّة خلف الجدران الضخمة للبيوت. لم يفعل شيئًا من ذلك. استقرت الفرقة في ميدان أسواق الخضار. فردوا خيامًا كبيرة، أقاموها في لمح البصر. ثم أخذ بعض الجنود في الطَّرق على كل الأبواب لجمع ومصادرة الأسلحة، بنادق صيد في غالبيتها. فعلوا ذلك دون أدنى فعل وحشي،وبأدب جم. على العكس من ذلك، عندما قال لهم ألواس كاتور، مرمم الصيني الذي كان دائم التخابث، إنه ليس لديه أي سلاح في منزله. سددوا إليه السلاح، وقلبوا- رأسًا على عقب - قفص الأرانب الذي كان يعيش فيه، وفي النهاية وجدوا بندقية قديمة رديئة. وضعوها تحت أنفه، ثم اقتادوه، هو والبندقية، أمام الكابتن بولر الذي كان يشرب العرقي أمام خيمته، بينما كان جندي الخدمة يقف وراءه بالقنينة، متأهبًا لخدمته. شرح الجنود المسألة. كان كاتور يعلق ساخرًا. عاينه بولر من قدميه لرأسه،

تجرع كأس شراب الخوخ مرةً واحدة، أصابه تشنجه العصبي، شرب ثانيةً، نادى، موجهًا نحوه سوطه، على ملازم بشرته بلون نبات عنب الذئب وشعره كالعشب الجاف، همس له ببعض الكلمات في أذنه. وافقه الآخر الرأي، ضرب بكعب قدمه، حياه ورحل،جاذباً معه الجنديين وسجينهما.

بعد عدة ساعات، مر ضارب الطبل في الشوارع وهو يصيح معلنًا: "على كل السكان أن يذهبوا في الساعة السابعة أمام الكنيسة، ليشهدوا حدثًا ذا أهمية كبيرة جدًا". كان حضور الجميع إجباريًا، وإلا سيقع تحت طائلة العقاب.

تقريبًا، قبل الساعة المعلنة، خرج كل واحد من بيته. في صمت. سرعان ما امتلأت الشوارع بهذا الموكب الذي لم يكن يتحدث بكلمة، ولم تجرؤ الوجوه على أن تُرفع، لتشاهد ما حولها، ولتقابل عيونًا أخرى. كنا نسير، إيمليا وأنا نمسك بأيدينا، بقوة. كنا خائفين. كل الناس كانت خائفة. كان الكابتن بولر ينتظرنا في الساحة، وسوطه في يده، يحوطه اثنان من ضباطه، مَن تحدثتُ عنه وآخر، سمين وشعر جسمه أسمر. عندما امتلأ ميدان الكنيسة الصغير، وأصبح كل واحد ثابتًا، ولم يعد هناك أي صوت، تحدث.

"أيها المواطنات والمواطنون، لم نأت إلى هنا لندمر وندنس. نحن لا ندمر أو ندنس ما ينتمي لنا، ما نملكه، إلا لو وصلنا إلى مرحلة الجنون. ونحن لم نصل إلى الجنون. إن قريتكم لمحظوظة تمامًا في أن تكون جزءًا من المملكة. أنتم في بيتكم، وبيتكم هذا بيتنا. نحن يجمعنا الآن مستقبل ألفي. إن جنسنا هو الجنس الأول، العريق والنقي، سيصبح جنسكم أيضًا، لو وافقتم على التخلص من العناصر الدنسة التي لا تزال بينكم. أيضًا يجب أن نعيش في تفاهم تام وصراحة كاملة. ليس جيدًا أن تحاولوا الكذب علينا. ليس جيداً أن تتلاعبوا بنا. حاول رجل أن يفعل ذلك اليوم. نتمنى ألاَّ يُحتذى حذوه".

كان بولر رقيق الصوت، يشبه تقريبًا صوتًا أنثويًا. الغريب أنه - عندما كان يتحدث - لم تكن تحدث له هذه الحركة اللاإرادية من ذقنه، التي تجعله يشبه إنسانًا آليًا عطلانًا. بمجرد انتهائه من خطابه، وببروتوكول كامل، كما لو أن كل شيء تكرر مرات عديدة، أُحضر إلى الميدان - أمامه - الواس كاتور، يصحبه الجنديان الموكل إليهما المهمة. خلفهم، على بُعد متر، جندي آخر كان يحمل شيئًا ما ثقيلاً، كنا نميزه بصعوبة. عندما وضعه على الأرض، كنا نراه مثل قطعة خشب، جزء ارتفاعه متر تقريباً اقتُطع من جذع شجرة تنوب. حينئذٍ، جرى كل شيء علي نحو سريع: أمسك الجنود بـ كاتور، جعلوه يجثو عليّ ركبتيه، وضعوا رأسه على جذع الشجرة، ثم تراجعوا. وصل جندي رابع، لم نكن قد رأيناه بعد. كان صدره وساقاه مربوطين بمريلة كبيرة من الجلد الداكن. في يديه، كان يُمسك ببلطة. وقف قريبًا جدًا من كاتور، رفع بلطته، وقبل أن يستطيع أي شخص أن يقول حتى "أوف"، نزل بقوة على رقبة المرمِّم. الرأس المفصول تمامًا جرت أسفل القرِمة. انبجس سيل من الدم من الجسد، الذي كان مثل إوزة قُطعت رقبتها، ثار بحركات متقطعة لثوان عديدة، قبل أن يسكن. جامدةً على الأرض، كان رأس كاتور تنظر لنا. كما لو كان يطرح علينا سؤالاً لم نكن نملك إجابته.

لقد سار كل شيء بأسرع ما يمكن. سمرنا جميعًا المشهد المرعب. إنه صوت الكابتن الذي انتزعنا من دهشتنا، ليغوص بنا في دهشة أخرى، أكبر أيضاً:

"هذا ما يحدث لكل من يريدون التلاعب. تذكروا ذلك، أيها المواطنات والمواطنون،تذكروه! ولتستطيعوا أن تتذكروه جيدًا، سيظل جسد ورأس "الفرمدر" هنا! ممنوعٌ أن تدفنوه، وإلا ستتعرضون لنفس المصير! نصيحةٌ أخرى، طهروا قريتكم! لا تنتظروا أن نفعل ذلك بأنفسنا. طهروها بقدر ما يسمح الوقت! والآن عودوا لبيوتكم، انصرفوا! أتمنى لكم مساءً سعيدًا!"

أتت ذقنه بضربة ناحية اليسار، كأنه يطرد ذبابة، ضرب سوطه بقوة حول بنطلونه، نصف لفة، وذهب يتبعه ضباطه. كانت إيمليا ترتجف أمامي وتنتحب. أخذتها في صدري قدر استطاعتي. لم تتوقف عن التكرار بصوت خفيض: "إنه كابوس، يا بروديك، إنه كابوس، أليس كذلك ؟". لم تبرح عيناها جسد كاتور المنزوع الرأس، الخائر على القرمة.

"تعالي"، أقول لها وأنا أضع يدي علي نظرها.

فيما بعد، بعد أن نمنا، طرق شخصٌ ما الباب. شعرت بإيمليا ترتجف. كنت أعرف جيدًا أنها لم تكن قد نامت. قبلتُها من رقبتها ثم نزلت. كانت فيدورين قد استقبلت الزائر. إنه ديودم. كانت تحبه كثيرًا. كانت تدعوه بلغتها القديمة "الكلوبيج"، العالم. جلسنا نحن الاثنين حول المائدة. أحضرت لنا فيدورين فنجانين، وسكبت فيهما منقوع النباتات الذي كانت قد أعدته من السعتر، النعناع، التُرُنجان، وبراعم التنوب.

"ماذا تنوي أن تفعل؟ سألني ديودم.

– ما هذا، ماذا أنوي أن أفعل؟

– أنا لا أعرف،كنتَ هناك مثلي، ورأيتَ ما فعلوه بـ كاتور!

– رأيته.

– وسمعت ما قاله الضابط.

– أنه منع لمس جسده؟ هذا يذكرني بحكاية يونانية كان يحكيها لنا نوزل في الجامعة، حكاية الأميرة التي...

– فلتدع الأميرة اليونانية نائمة، فليس عن ذلك كنت أود الحديث، قاطعني ديودم الذي لم يتوقف عن ثَني اليدين. عندما قال إنه يلزم "تطهير قريتنا"،ماذا فهمت؟

– أولئك الناس مجانين. لقد رأيتهم في المهمة وأنا في العاصمة. لماذا تعتقد أني عدت في ذلك الوقت إلى القرية؟

- ربما يكونون مجانين، لكن ذلك لا يمنع أنهم اليوم، أنهم السادة منذ أن طردوا قيصرهم، ودخلوا حدودنا.

- سوف يرحلون، يا ديودم. في النهاية سيرحلون. لماذا تظن أنهم سيبقون في قريتنا؟ لا يوجد شيءٌ هنا. إنها طرف العالم. كانوا يريدون أن يثبتوا لنا أنهم السادة الآن. فعلوها. أرادوا ترويعنا. ونجحوا. سيبقون لعدة أيام، ثم سيذهبون إلي مكان آخر، بعيد جداً.

- لكن الكابتن هددنا. قال إنه علينا "تطهير القرية".

- إذن، ماذا تقترح أن نفعل؟هل ننظف الشوارع بجردل ماء ومكنسة؟

- لا تمزح يا بروديك! هل تظن أنهم يمزحون؟ جملته لم تكن بريئة، لقد اختار كل الكلمات، ولم يقلها صدفة! إن ذلك ككلمة "فرمدر" التي أشار بها للبائس كاتور...

- إنها الكلمة التي يستخدمها ليتحدث عن كل هؤلاء الذين لا يروقونه، الفرمدر، "القذرين"، رأيتهم ينقشون هذه الكلمة أثناء البوريش ناشت.

- أنت تعرف جيداً أنها تعني أيضاً "أجنبي"!

- لم يكن كاتور أجنبياً! فعائلته قديمة قدم القرية!"

فك ديودم ياقة قميصه التي كانت تبدو أنها تخنقه. جفف بظهر يده جبهته المغطاة بالعرق، رمقني بنظرة خائفة، أدار عينيه نحو فنجانه، واحتسى جرعة كبيرة، ونظر إليَّ من جديد خلسة،أخفض عينيه أكثر، ثم قال، تقريباً هامساً:

"ولكن أنت يا بروديك... أنت؟"

ـ ٣١ ـ

أعرف كيف يتحول الخوف إلى إنسان.

لم أكن أعرفه، لكني تعلمته. في المعسكر. رأيت رجالًا يصرخون، يضربون الرأس في الجدار الحجري، يندفعون على أسلاك حديدية حادة كأمواس. رأيتُ منهم مَن يعملونها في السراويل، يفرغون أنفسهم تمامًا، يتقيأون، يخرجون من أنفسهم كل ما بها من سوائل، من رطوبة، ومن غازات. رأيت منهم مَن يُصلي ورأيت آخرين مَن ينكرون اسم الله، ويغطونه بالصديد والشتائم. رأيت أيضًا رجلاً يموت منه. يموت من الخوف، فيما ذات صباح كان قد أُشير إليه بلعبة الحراس الصغيرة ليصبح المشنوق القادم. وعندما توقف الحارس أمامه، وقال له وهو يبتسم : "دوا"، ظل الرجل ثابتًا. لم يُبد وجهه أية مشاعر، أي اضطراب، ولا أية فكرة. وحينما بدأ الحارس يفقد ابتسامته ويرفع عصاه، سقط الرجل، بضربة، ميتًا، حتى قبل أن يلمسه الآخر.

علمني المعسكر هذا التناقض: الإنسان عظيم، لكننا لا نكون في مستوى أنفسنا. هذه الاستحالة لا تتسق وطبيعتنا. في أثناء هذه الرحلة التي تبعث على الدوار، وأثناء النزول درجةً درجةً من درجات السلم الحديدية

الكريهة، التي تجعلني دائمًا أذهب في غور أعماق الكازيرسكفير، لم أكن أذهب فقط نحو نفي وجودي الخاص، ولكن أيضًا، في نفس الوقت، نحو الوعي الكامل لبواعث جلاديّ، وبواعث مَن أسلموني لهم. وفي هذه الحالة، إذن، نحو مسوَّدة غفران..

إنه بالفعل الخوف الذي كابده الآخرون، بأكثر كثيرًا من الكراهية أو من أية عاطفة أخرى لا أعرفها، هو ما حولني إلى ضحية. فالخوف الذي كان قد تملك البعض حتى الحلقوم، أسلمني إلى الجلادين؛ وهؤلاء الجلادون أنفسهم، هؤلاء الرجال الذين كانوا من قبل مثلي، حوّلهم الخوف أيضًا إلى وحوش، وهو ما جعل بذور الشر التي يحملونها تتوالد بداخلهم، كما نحملها جميعًا بداخلنا.

لا شك أنني لم أقدر جيدًا عواقب إعدام ألواس كاتور. تملكني منها الرعب، والوحشية المقيتة، لكنني لم أدرك قدرتها على شق طريقها إلى النفوس، ولا قدرة الكلمات التي قالها الكابتن بولر، التي تفحصَتها بدقة عشرات وعشرات العقول، والتي كانت سوف تُقلِّبها وتقودها لاتخاذ قرار أن أُصبح الضحية. ثم، وبكل تأكيد، كانت هناك جثة كاتور، رأسه على الأرض، على بعد عدة أمتار من جسده، والشمس فوق ذلك، وكل الحشرات سريعة الفناء التي تولد - في بداية هذا الخريف - صباحًا، وتموت مساءً، لكنها أثناء حياتها القصيرة تقضي عدة ساعات في الطنين حول الجثة، مدعوةً لوليمة، تحوم، تحرجل، تئز، تُجن من كل كتلة اللحم هذه، التي كانت قد أفسدتها الحرارة.

كانت هذه الرائحة المنفرة تملأ القرية كلها. اعتقدنا أن الريح متواطئة مع بولر. كانت تأتي إلى ميدان الكنيسة، تتشبع - في شكل زوبعة - بالرائحة النتنة للجثة، ثم تذهب في كل شارع، في شكل دوامات، لترقص رقصة "الجيك"، تتسلل تحت الأبواب، عبر النوافذ المغلقة، بين ثغرات الطوب، لتحمل إلينا بصمة الرائحة العفنة للميت كاتور.

في تلك الفترة، كان الجنود يتصرفون بغاية الأدب، كما لو أن شيئًا لم يحدث. لا أية سرقة، ولا سلب، ولا اغتصاب، ولا أية متطلبات. يدفعون ثمن ما يأخذون من المحلات. كانوا يرفعون قبعاتهم عندما يقابلون نساءً أو فتيات. كانوا يشقون الخشب للأرامل العجائز. كانوا يطلقون بعض المزحات للأطفال، الذين كانوا يجرون منهم مذعورين. كانوا يُحيون العمدة، والقس بيبر. كان يلازم الكابتن بولر بشكل دائم تشنج وجهه وضابطاه، حيث كانوا يقومون بجولة كل صباح وكل مساء في الشوارع، تحمله ساقاه القصيرتان والنحيلتان. كان يسير مسرعًا، كما لو أن أحدًا كان ينتظره في مكانٍ ما، دون أن يُعير الانتباه لهؤلاء أو أولئك الذين كان يقابلهم في الطريق. في بعض الأحيان، كان يسوط الهواء، أو يبعد عدة نحلات بسوطه.

كان كل السكان كالمخبولين. قليلاً ما كانوا يتحادثون. كانوا يخرجون للضرورة. مُطأطئي الرؤوس. كانوا يقتاتون من الذهول.

لم أكن قد رأيت ديودم منذ مساء تنفيذ حكم الإعدام. وكل ما سأكتبه من الآن فصاعدًا، علمتُه من الخطاب الطويل الذي تركه لي.

ذات مساء، المساء الثالث لوجود"الفراترجيكم" في قريتنا، استدعى بولر أورشفير وديودم. أورشفير، هذا مفهوم، بما أنه العمدة، ولكن ديودم، شيء مدهش جدًا. تقدم بولر بسؤال، علي أية حال، لم يجرؤ أن يطرحه على ديودم، وهو يقول له إنه يجب أن يكون أقل حماقة من الآخرين لأنه المعلم، وأنه سيفهم ذلك مباشرةً إذن.

استقبل الاثنين في خيمته. كان داخل الخيمة سرير معسكر، ومكتب، وكرسي، وصندوق لحمل الأمتعة، وحافظة ثياب من القماش على شكل كيس، وبداخلها كنا نخمن وجود بعض الملابس. على المكتب، ورقة مختومة باسم الفيلق، وحبر، وعدة أقلام، وورق تجفيف، وصورة فوتوغرافية لها

إطار كنا نرى فيها امرأةً بدينةً يلتصق بها ستة أطفال، كان أصغرهم في عمر السنتين، والأكبر حوالي خمسة عشر عامًا.

كان بولر جالسًا، مشغولاً في كتابة خطاب. كان مديرًا لهم الظَّهر. أخذ وقته تمامًا في إنهائه، وقراءته مرةً أخرى، وضعه في مظروف، وألصق هذا المظروف، ثم وضعه على المكتب، وأخيرًا، التفت لهما حيث كانا - بشكل مفهوم تمامًا - ما يزالان واقفين جامدين. نظر إليهما بولر في صمت، طويلاً، محاولاً بلا شك معرفة ماذا كان موضوعهم. كان ديودم يشعر أن قلبه يدق حتى التهشم، فيما كانت راحتا كفيه مبللتين. تساءل داخله عما يفعله هنا، وإلى متى كان لهذا العذاب أن يستمر معه. كان تشنج وجه بولر يجعل ذقنه تتأرجح، على فترات منتظمة. كان يمسك بسوطه- الذي كان قريبًا جدًا منه، على السرير - ويداعبه بتأن بالغ، وبرقة شديدة، كما لو أنه حيوان أليف.

"إذن؟"، أخيرًا قال.

فتح أورشفير فمه عن آخره، ولم يعرف بماذا يرد، ونظر لـ ديودم الذي لم يكن يستطيع حتى ابتلاع ريقه..

"إذن؟"، كررها بولر، دون أن يشير إلى نفاد صبر حقيقي.

مستجمعًا شجاعته، استطاع أورشفير أن يسأله، بصوت مختنق: "إذن ماذا، كابتن...؟"، مما لعب دورًا في انتزاع ابتسامة من بولر:

"هذا التطهير، سيدي العمدة! عن ماذا إذن تريدني أن أتحدث؟ أين أنتم من هذا التطهير؟"

نظر أورشفير مرةً أخرى إلى ديودم، الذي كان يحاول تجنب عينيه فخفض رأسه، ثم بدأ في التلعثم - هو الذي كانت كلماته، بحكم العادة بالتأكيد، كثيرًا ما تفرقع كضربات سوط، ولا يتأثر بشيء، ويتسم بطبيعة الرجل الثري والقوي - وفقد كل وسائله أمام هذا المخلوق في زيه

العسكري، والذي كان يمثل تقريبًا نصف جسمه، هذا الرجل الضئيل الذي يتلبسه تشنجٌ مضحك، ويداعب سوطه كما تداعب النساء.

"إنه... كابتن... نحن... نحن لم نستطع كثيرًا جدًا... فهم. نعم... لم نفهم... ما سيادتك... ما تعنيه سيادتك".

تكوم أورشفير، تهدل كتفاه، كما تتهدلان بعد مجهود عنيف. سمح بولر لضحكة صغيرة بأن تفلت منه، ثم وقف، بدأ يسير في خيمته، طولاً وعرضًا، كما لو كان يفكر، ثم تسمر أمامهما. "هل راقبت من قبل فراشات، سيدي العمدة، وحضرتك، سيدي المعلم، نعم، فراشات، ألم تهتما بمجموعة من الفراشات ؟ لا؟ أبدًا؟ يا للخسارة.. خسارة عظيمة! فأنا أُكرس حياتي للفراشات. البعض يهتم بالكيمياء، بالطب، بعلم المعادن، بالفلسفة، بالتاريخ، أمَّا أنا، فقد نذرتُ وجودي كله للفراشات. إنها تستحقه بشكل كبير، لكن قليلاً من الناس مَن يستطيعون أن يدركوا هذا الأمر. إنه لمحزنٌ جدًا، لأننا لو شغلنا أنفسنا أكثر بهذه الكائنات العظيمة والهشة، فسوف نستخرج منها دروسًا خارقة للجنس البشري. تصوروا، على سبيل المثال، أنه في وسط هذا التنوع من حرشفيات الأجنحة هذه، والمعروفة باسم ريكس فلاما، استطعنا ملاحظة تصرف كان يبدو - لأول وهلة - بلا أساس، ولكن - بعد عدة بحوث- اكتُشف منطقها الكامل، وأصبح بمقدورنا القول بإن لهذه الكلمة معنى عندما نتحدث عن الفراشات، عن ذكاء خارق. تعيش الريكس فلاما في مجموعات تتألف من عشرين فردًا. نعتقد أنها تعيش فيما بينها بنوع من التضامن، يجعلها تتجمع عندما تجد إحداها غذاء بكمية تكفي لأن يستفيد منه الجميع. وفي الغالب، فهى تسمح - إلي حد ما، داخل مجموعات الفراشات - بأنواع أخرى غير نوعها، لكن ما إن تباغتها حشرة قناصة، حتى تنبه الريكس فلاما الأخري بلغة لا نعرفها، وتبدأ في الاختباء. أما الفراشات التي تكون مندمجة في مجموعتها - منذ لحظة تقريبًا - ولا يبدو أن لديها المعلومة، فهي ما تجعل من نفسها طعامًا

للطيور. وإذ تُسلم فريسةً ما إلى الحشرة القناصة، تضمن الريكس فلاما البقاء حية. عندها، يصبح كل شيء علي ما يرام بالنسبة لهما، فوجود فرد أو عدة أفراد غرباء عن مجموعتهما لا يضايقهما، بل ربما يستفيدون منهما بالتأكيد، بطريقة أو بأخرى، لكن ما إن يحل خطرٌ ما، فإنهما يجازفون بدمجهم في مجموعتهما، وبقائها على قيد الحياة، ولا يترددون بالتضحية بمن ليس من ذويهم".

لم يتوقف بولر عن الكلام، ثم أخذ يتمشى ويواصل نظره إلى أورشفير وديودم، اللذين كانا ينزان قطرات عرق كبيرة.

"ربما كان للبعض من محدودي الذكاء أن يروا أن تصرف هذه الفراشات يفتقر إلى الأخلاق، لكن ما الأخلاق، وفيمَ تستخدم؟ إن الأخلاق الوحيدة المقضي بها، هي الحياة. الأموات فقط، دائمًا، على خطأ".

جلس الكابتن مرةً ثانية إلى مكتبه، ولم يعد منتبهًا للعمدة ولا لـ ديودم، اللذين خرجا من الخيمة بلا صوت.

فيما بعد بعدة ساعات، تم التأشير على مصيري..

الإريكوينز برودشاف - جماعة "أخوية الشيطان" هذه التي تحدثتُ عنها من قبل - تجتمع في غرفتها الصغيرة المحجوزة لها داخل نُزل شلوس. كان هناك ديودم أيضًا. في خطابه، أقسم لي أنه لم يكن جزءًا من هذه الجماعة، وأنها المرة الأولي التي كانوا يدعونه فيها. ماذا يهم؟ أول مرة، آخر مرة، ماذا يغير ذلك؟ لم يعط ديودم أسماء هؤلاء الذين كانوا موجودين. لكنه ببساطة أعطى عددهم. كانوا ستةً، فضلاً عنه. لم يقل ذلك، ولكني أتوقع أن أورشفير كان أحدهم، بالضرورة، وأنه هو مَن أخبر بمونولوج أدولف بولر عن الفراشات. وزَن كلمات الكابتن. فهم ما كان يُفهم منها، أو بالأحرى، فهم ما أراد أن يفهمه بالفعل. اقتنع بأنهم الريكس فلاما، هذه الفراشات المشهورة التي تكلم عنها الكابتن، وأنه كان عليها -

لتبقى علي قيد الحياة - أن تزيح من جماعاتها هؤلاء الذين ليسوا من جنسها. أخذ كلٌّ منهم قصاصة ورق ليكتب عليها أسماء الفراشات السيئة. أظن أن العمدة مَن جمع الأوراق وقرأها.

كل الأوراق الصغيرة كانت تحتوي على اسمين، اسم سيمون فريبمان واسمي. أقسم لي ديودم أنه لم يضع اسمي، لكنني لم أصدقه. وحتى لو كان ذلك حقيقياً، فلابد أن الآخرين قد أقنعوه بسهولة بضرورة وضعه.

ثمة مشترك بين فريبمان وبيني، أننا لم نولد في القرية، أننا لا نشبه أهل القرية، بعيون داكنة جداً، والشعر شديد السواد، والبشرة داكنةٌ جدًا، وقد أتينا من بعيد، لنا ماضٍ مظلم وتاريخ مؤلم، متشرد وعتيق. قلتُ كيف وصلت إلى القرية، على عربة فيدورين، بعد أن سرنا بين الأنقاض، بين مَن ماتوا، يتيم الأبوين، يتيم الذاكرة. بالنسبة لـ فريبمان، كان قد وصل تقريبًا منذ عشر سنوات، يرطن ببعض الكلمات المشتقة من اللغة القديمة التي نقلتها لي فيدورين. لم يكن يفهمه الكثيرون، فكانوا يطلبون مني أن أقوم بالترجمة. كنا نعتقد أن فريبمان تلقى ضربة هائلة على رأسه. لم يكن يتوقف عن تكرار لقبه واسمه، لكنه - بعيدًا عن ذلك - لم يكن يعرف شيئًا ذا قيمة عن نفسه. وبما أنه كان لطيفًا، فلم يلفظه الناس. وجد لنفسه سريرًا في مخزن للحصاد كان يتبع مزرعة فورتتهو. وكان شديد الشجاعة. كان يأتي ليساعد نهارًا فلان أو علان، في أوان حصاد الزرع، والحرث، والحلب، والتحطيب، لكن دون أن يبدو عليه التعب أبدًا. كانوا يدفعون له في شكل طعام. لم يكن يتذمر، كان يصفر بألحان كانت مجهولة بالنسبة لنا. تبنيناه. تدجَّن بلا صعوبة.

سيمون فريبمان وأنا، كنا إذن "فرمدر"- "قذرين" و"أجانب"-، تلك الفراشات التي نسامحها لبعض الوقت، عندما يكون كل شيء على ما يرام، ونقدمها ضحايا تكفيرية، عندما يسوء كل شيء. الغريب، أن هؤلاء الذين قرروا أن يسلمونا لـ بولر - أي أن يرسلونا للموت، لم يكن بمقدورهم

تجاهل ذلك!- وافقوا على أن يحموا فيدورين وإيمليا، اللتين كانتا- مع ذلك أيضاً- فراشات سيئة. لا أعرف هل ينبغي أن أتحدث عن شجاعة هذا النسيان، عن هذه الرغبة التي حمتهما. أعتقد بالأحرى أن هذه الحركة هي نظام تخالُص. فمَن وشَوا بنا كانوا بحاجة إلى أن يحتفظوا في ضميرهم بمنطقة نقية، غير مخدوشة، جزئية، عذراء من كل سوء، كانت تتيح لهم نسيان ما كانوا قد ارتكبوه، أو - على الأقل تمامًا- أن يستطيعوا أن يتعايشوا معه،رغم كل شيء.

حطم الجنود باب منزلنا قبل منتصف الليل بقليل. قبل ذلك بعدة لحظات، كان هؤلاء- الذين كانوا مجتمعين - قد ذهبوا لرؤية الكابتن بولر، وكانوا قد أعطوه الاسمين. كان هناك ديودم أيضًا. كان يبكي، كان يقول ذلك في خطابه. كان يبكي، لكنه كان هناك.

قبل أن يكون لديَّ وقتٌ لفهم ما جرى، كان الجنود قد دخلوا إلي حجرتنا. أمسكوني من ذراعيَّ، جذبوني إلى الخارج فيما كانت إيمليا تصرخ، كانت تتعلق بي، كانت تحاول أن تضربهم بقبضاتها الواهنة. لم يعيروها حتى الاهتمام. وكانت تسيل الدموع على وجنتي فيدروين العجوزين. شعرت بأني عدتُ - مرةً أخرى- الولد الصغير التائه، وكنت أعرف أن فيدورين كانت تفكر في نفس الشيء. الآن كنا في الشارع. رأيت سيمون فريبمان، مقيدَ اليدين خلف ظهره، كان ينتظر بين جنديين. ابتسم لي، تمنى لي مساءً سعيدًا، كما لو أن شيئًا لم يحدث، قال لي إن الجو ليس شديد الحرارة. حاولت إيمليا أن تحتضنني، دفعوها، فوقعت على الأرض.

"سوف تعود يا بروديك! سوف تعود!"، صاحت، دفعت هذه الكلمات الجنود إلى الانفجار في الضحك.

ـ ٣٢ ـ

لا أُكن أية ضغينة لديودم. لا أحقد عليه. أثناء قراءتي خطابه، كنت أتخيل معاناته أكثر من تذكري معاناتي. وأيضًا فهمت. فهمت لماذا أبدى قدرًا من الدفء من خلال اهتمامه بـ فيدورين وإيمليا، أثناء غيابي، بزيارتهما كل يوم، ومساعدتهما بلا توقف، بل مساعدته لهما أيضًا أكثر بعد أن دخلت إيمليا مرحلة الصمت الكبير. وفهمتُ أيضًا لماذا، بعد أن مرت لحظة اندهاشه الأولى، عندما رآني عائدًا من المعسكر، انفجر من السعادة، ضمني بين ذراعيه، راقصني رقصة الفالس، جعلني أدور، وهو يضحك، ثم أدور مرةً تلو الأخرى، لدرجة أنني أُغشي عليَّ. لقد عدت، لكنه هو مَن كان يستطيع العودة للحياة مرةً أخرى، أخيرًا.

"برودیك، لقد حاولت طوال حياتي أن أكون إنسانًا، لكني لم أستطع قط. ليس ما أرجوه عفو الله، بل عفوك. سوف تجد هذا الخطاب. أعرف أني عندما أرحل عن هذا العالم، ستحافظ على هذا المكتب، حيث أخبئه. أعرف ذلك لأنك حدثتني كثيرًا عن هذا المكتب، هذا المكتب حيث يجب أن أكتب جيدًا، كما تقول، ما دمتُ لم أتوقف عن ذلك. ستجد الخطاب إن عاجلاً أو آجلاً. وستعرف كل شيء. كل شيء. ستعرف أيضًا ما يتعلق بـ

إيمليا، يا بروديك. استعدتُ كل شيء. أنا مدينٌ لك به. الآن عرفتُ مَن فعل ذلك. لم يكن هناك إلا الجنود، كان يوجد أيضا دار فيرمش - رجال من القرية. أسماؤهم خلف هذه الورقة. ليس هناك احتمالية الخطأ. افعل بهم ما تريد، يا بروديك. ثم سامحني يا بروديك، أتوسل إليك، سامحني..."

قرأت نهاية الخطاب عدة مرات، مركزًا على الكلمات الأخيرة، لم أستطع أن أفعل ما كان يطلبه مني ديودم، قَلْب الورقة واكتشاف الأسماء. أسماء رجال كنت أعرفهم جيدًا، فقريتنا صغيرةٌ جدًا. على بُعد عشرة أمتار مني، كنت أعرف أن إيمليا وبوبشيت تنامان. إيميليتي ومعشوقتي بوبشيت.

فجأةً أتذكر "لاندرير". إليه كنت أحكي القصة.

كان ذلك بعد أسبوعين من مقابلتي له، وهو يجلس على صخرة لينجن متأملًا الطبيعة، ويرسم رسمًا توضيحيًا لها. عدتُ من المسيرة الطويلة التي كنت قد ذهبت خلالها لأتحقق من حالة الطُّرق التي تربط بين المراعي. فوق المراعي الجرداء العارية. رحلتُ في الفجر، سرتُ كثيرًا. كنت سعيدًا بعودتي إلى القرية لأني كنت عطشان وجائعًا. قابلته عندما كان يخرج من حظيرة سولزنر. كان هناك ليزور حماره وحصانه. تبادلنا التحية. كنت قد تخطيته عندما سمعته يقول:

"أتتكرم الآن بقبول دعوتي التي وجهتها إليك منذ فترة وجيزة؟"

أوشكتُ أن أخبره بأني كنت متعبًا جدًا، وبأني كنت أتعجل عودتي لألتقي زوجتي وابنتي، ولكن كان يكفي أن أنظر إليه، وهو ينتظر، بابتسامته العريضة على وجهه المستدير، حتى أنوي قول عكس ذلك. بدا سعيدًا لذلك، ودعاني لأتبعه.

عندما دخلنا النُّزل، كان شلوس يغسل الأرض بماء غزير. لم يكن هناك أي زبون. كان صاحب النُّزل يتهيأ لسؤالي عما كنت أريده، لكنه عدل عن

ذلك عندما أدرك أني كنت أتبع "لاندرير"، حيث كنت أصعد السلم في إثره. استند إلى مكنسته، نظر إليَّ بسيماء غريبة، ثم أمسك بمقبض دلوه كما لو كان غاضبًا، وألقى بما تبقى من الماء على الأرضية الخشبية بغيظ شديد.

كانت تفوح من حجرة "لاندرير" رائحة خانقة من البخور وماء الورد. في إحدى زوايا الحجرة، كان يضع صناديقه المفتوحة، التي تُرى فيها كمية من الكتب ذات الأغلفة السميكة المغطاة بقشرة من الذهب مختلطة بعدة أنسجة، أقمشة، حرير، قطيفة، قماش البروكار، شيفون، والتي كان بعضها مبسوطًا على الجدران، لتخفي بذلك الجص الكدِر والمتصدِّع، ولتصبغ المكان بمظهر شرقي لمخيم بلا اسم. كان بجانبها تمامًا، عُلبتا كرتون كبيرتان عليهما رسومات، ولابد أنهما كانتا تحتويان على كمية كبيرة من الورق، لأنهما كانتا مقببتين تمامًا، إلا أن ربطهما بعناية شديدة وبكثافة كان يمنعني من رؤية هذا الشيء. على المنضدة الصغيرة، التي كان يستعملها كمكتب، خرائط مبسوطة، قديمة، وملونة، خرائط لم تكن لها علاقة بقُطرنا، وتعرض تضاريس ورسومات لأنهار غير معروفة أبدًا. بالقرب منها، كانت هناك بوصلة ضخمة من النحاس، ومنظار، وفرجار، وآلة أخرى للقياس تشبه مزولة، ولكن بحجم صغير، وكذلك مفكرته الصغيرة السوداء المغلقة.

أجلسني "لاندرير" على المقعد الوحيد بالغرفة، بعد أن أزال مِن فوقه ثلاثة مجلدات كانت تشبه موسوعة. مِن صندوق من الأبنوس، أخذ فنجانين، برقة شديدة، مزينين بزخارف لمحاربين مسلحين بأقواس وسهام، وأميرات جاثيات على رُكَبهن، لابد أنهم كانوا صينيين أو هندوسًا، وضعهما على طبقين مثلهما. كانت عند رأس السرير غلاية شاي، روسية من معدن مطلي بالفضة، وكانت تُذكِّر رقبتها بصورة رقبة الإوز العراقي. أمسكها "لاندرير"، سكب الماء المغلي في الفنجانين، ثم وضع فيهما أوراقًا جافة،

ذابلة، ذات لون بني يقترب من السواد، وتنتشر على شكل نجمة، قبل أن تطفو للحظة على سطح الماء، ثم تنساب ببطء داخل الفنجان. أدركت أنني كنت أنظر إلى الظاهرة كما لو أنه يقوم بعرض سحري، وأدركت أيضًا أن مضيفي كان يراقبني بنظرة ساخرة.

"كثير من التأثير لأشياء بسيطة.. من الممكن خديعة بعض الناس بأقل من ذلك"، قال لي ذلك وهو يمد لي أحد الفنجانين، ثم جلس في مواجهتي، على كرسي المكتب الذى كان أصغر من ردفيه الكبيرين البارزين من الجانبين. حمل الفنجان إلى شفتيه، نفخ فيه ليُبرد الشراب، واحتساه علي جرعات صغيرة، بلذة واضحة. ثم وضع فنجانه، وقف، قلَّب في أضخم الصناديق - وكان يحتوى على الكتب الضخمة- ثم عاد بكتاب متوسط القَطع بغلاف مهترئ، مما يؤكد أن صفحاته قد قُلبت كثيرًا. من بين كل كتب الصندوق التي كانت تنثر ذهبها وألقها، كان بالتأكيد الأكثر بهوتًا. ناولني إياه "لاندرير".

"انظر إليه، أنا متأكدٌ أنه سيستهويك".

وأنا أفتحه لم أصدق عينيّ. هذا الكتاب، كان كتاب "libarfloraee momntanarum" للراهب أبيجال ستورين، المطبوع في ١٧٠٢ في مونس، تزينه بعض النقوش البارزة الملونة، التي كانت قد جمعت في نهاية المجلد. كنت قد بحثت عنه في كل مكتبات العاصمة، دون أن أجده. كان يُقال إنه لا توجد منه إلا أربع نسخ. وقيمته التجارية كانت مرتفعة جداً: فالكثيرون من أغنياء المثقفين كان يمكن أن يدفعوا ثروة للحصول عليه. أما بالنسبة لقيمته العلمية، فهي نفيسة للغاية، لأنه يشتمل على جداول بكل الزهور الجبلية، حتى الأكثر ندرة، وأكثر الأنواع غرآبة التي اختفت اليوم.

لا شك أن "لاندرير" قد لاحظ اضطرابي الذي لم أحاول إخفاءه، بكل تأكيد.

"أرجوك، يمكنك مطالعته، فلتفعل، فلتفعل..."

عندئذ، كطفلٍ وضعنا أمامه لعبة عجيبة، أمسكت بالكتاب، فتحته، وبدأت أتصفحه.

شعرتُ بأني غرقتُ في كَنز. كان الإحصاء الذى قام به الراهب ستورين فائق الدقة، والملاحظات التي تصاحب كل زهرة، كل نبات - فضلاً على اشتمالها على كل المعرفة المتاحة- كانت تضيف تفاصيل رائعة، لم أكن قد قرأتها قط حتى ذلك الحين في أي مكان.

لكن الشيء الأروع في هذا العمل - الذى جعله ذائع الصيت - دقة وجمال اللوحات المصاحبة للشروح.

إن كتب الأم بيتس - الخاصة بالأعشاب - كانت بالنسبة لي مصدراً فائق القيمة، ساعدني كثيرًا في إكمال تقاريري، وفي إعادة النظر في بعض الأخطاء التي كان يمكن أن أرتكبها، أو أحيانًا في تعديل بياناتي. ومع ذلك، فما وجدته فيها كان فاقدًا كل حياة، كل لون، وكل رقة. كان لابد من الخيال والذاكرة حتى يعود هذا العالم النائم والجاف لما كان عليه مرةً أخرى، مفعمًا بالحيوية والمرونة والألوان. بينما هنا، في كتاب "ليبيرفلوراي"، كنا نشعر بأن ثمة ذكاءً مرتبطًا بموهبة شيطانية كانا قد نجحا في الإمساك بحقيقة الأزهار. دقته المثيرة في الوصف وفي الألوان جعلتها تبدو كأنها قد وضعت بالضبط على الصفحة، منذ بضع ثوانٍ، بيدٍ جمعتها حية. زهرة نبات العبهر، نعل ڤينوس، زهرة الجنيتيانا، زهرة الباريديانتا، عشب الأقونتين القططي، حشيشة السعال، زهرة الزنبق العنبرية، زهرة نبات الجُريس، نبات فريبيون الرعاة، نبات الإخيليا، زهرية كمالية الثلج، زهرة البوقية، عشبة القوي، نبات حورية الغابات،، نبات الودنة، زهرة الخربق السوداء، زهرة التُرس، نبات السكَرجا الفضي، الدائرة لا نهائية وجعلت رأسي تدور.

كنتُ قد نسيت "لاندرير". نسيتُ المكان الذي كنت موجودًا به. لكن فجأةً توقف ترنحي بشكل قاطع. قلبتِ صفحةً، فظهرت آنئذٍ أمام عينيَّ، هشةً كأبناء العذراء، بساقٍ شديدة النحول، لدرجة أنها كانت تبدو خيالية، بتويجات زرقاء مزركشة، بشريط ذي لون أصفر باهت ووردي، على هيئة أيادٍ صغيرة يقظة تحوطها لتحميها، وتقدم لها أعضاء التذكير الذهبية التي تتخذ شكل تاج، إنها زهرة "عناقية مجرى السيول".

لا شك أنني أطلقت صرخة. كان ثمة رسم لهذه الزهرة، هنا، أمامي، لتؤكد وجودها، في هذا الكتاب القديم والعظيم الموضوع على ركبتي، وكان هناك أيضًا وجه الطالب كِلمر، الذي كان قد دعا نفسه، من فوق كتفي، والذى كان قد حدثني كثيرًا عنها، ووعدني بأني سأجدها.

"شيق، أليس كذلك؟"

شدني صوت "لاندرير" من تأملي.

"أبحث عن هذه الزهرة منذ وقت طويل..."، سمعتني أرد، بصوت لم أكن أعرف أنه صوتي.

نظر إليَّ "لاندرير" بابتسامته الرقيقة، ابتسامة عرفته بها دائمًا، ولم تكن لتبدو أنها تنتمي إلى هذا العالم. انتهى من احتساء فنجان الشاي. وضعه، ثم قال لي، بنبرة شبه ساخرة:

"ما تراه في الكتب غير موجود دائمًا. فأحيانًا ما تكذب الكتب، ألا تظن ذلك؟

- نادرًا ما قرأت عن ذلك".

ساد صمتٌ بيننا، لم يحاول أيٌّ منا قطعه. أغلقته وأبقيته أمامي. كنت أفكر في كِلمر. كنت أرانا مرةً أخرى ونحن نخرج من عربة القطار. كنت أسمع الصرخات، صرخات صُحبة الشقاء، الحراس وكلابهم. ثم أتى وجه إيمليا، وجهها الجميل، بلا كلام، وشفتاها تدندنان بلازمتها الأبدية. كنت

أشعر بنظرة "لاندرير" المرحبة تستقر عليّ. حينئذٍ، أتى الأمر من تلقاء نفسه. بدأت أحدثه عن إيمليا. لماذا إذن حدثته عنها؟ لماذا أتحدث إليه، وهو الذى لم أكن أعرفه مطلقًا، عن أشياء لم أكن أعترف بها لأحد؟ لا شك أنني كنت بحاجة، علاوةً على عدم قدرتي على الاعتراف بها لنفسي، إلى أن أُخرج من قلبي كل ما كان يثقله. ولو أن القس بيبر كان قد ظل كما هو، لو أنه لم يصبح - منذ نهاية الحرب - هذا المرعب المفرط في شُرب العرقي، ربما كنت سأعترف له؟ أيضًا لم أكن متأكدًا من ذلك.

قلت إن "لاندرير" كانت له ابتسامة لم تكن تبدو أنها تنتمي إلى هذا العالم. لكنه- وبكل بساطة- هو نفسه لم يكن ينتمي إلى عالمنا. لم يكن ينتمي لـ "التاريخ". لقد أتى من مكانٍ ما لم يعد له أثر اليوم، كما لو أنه لم يكن موجودًا قط. فلِمَن إذن، أفضل منه، كنت أستطيع الحكي؟ فلم يكن هناك مَن هو على شاكلته.

حدثته عن رحيلي، بين الجنديين، ومِن خلفي إيمليا على الأرض تبكي وتصرخ. حدثته أيضًا عن ابتهاج فريبمان، وعدم وعيه بتقدير ما حدث لنا، وبما سيصبح مصيرنا الحتمي.

رحَّلونا عن القرية في نفس المساء، على الأقدام، موثوقة أيدينا معًا بحبل طويل، تحت حراسة اثنين من الجنود يمتطيان حصانيهما. استمرت هذه الرحلة أربعة أيام، خلالها لم يمنحنا الحراس إلا الماء، وما تبقى من وجباتهم. لم يكن فريبمان حزينًا قط. دائمًا ما كان يحدثني عن نفس الأشياء، طوال سيرنا، عن نصائح تتعلق بمواسم الزرع، شكل القمر، والقطط، التي كان يؤكد أنها تطارده كثيرًا في الشوارع. كان يقول ذلك برطانته، خليط إلى حدٍ ما بين اللهجة واللغة القديمة. فقط، خلال تلك الأيام الماضية معه، أدركت أنه كان متخلفًا عقليًا، بينما كنت أظنه- من قبل - غريب الأطوار فحسب. كل شيء كان يدهشه، حركات خيول حراسنا، أحذيتهم الملمعة، أزرار ملابسهم التي كانت تلمع في الشمس،

الطبيعة، شدو العصافير. لم يعاملنا الجنود بقسوة. كانوا يسحبوننا كصُرَر. لم يوجهوا إلينا أي كلام قط، لكنهم أيضًا لم يضربونا قط.

عندما وصلنا إلى س، التي كانت مقلوبةً رأسًا على عقب، ببطن نصف مبقور، يسد شوارعها الحصى وأنقاض متكلسة، أوقفونا بالمحطة لمدة أسبوع. كان هناك كل شيء، رجال، نساء، عائلات كاملة، بعضها فقير، وأخرى كانت لا تزال تحمل علامات الثراء الماضي، وتنظر للآخرين بتعالٍ. كنا عدة مئات. كنا جميعًا "فرمدر". بالتأكيد، أصبح هذا الاسم اسمنا. لم يكن ينادينا الجنود إلا هكذا، بلا تمييز. شيئًا فشيئًا، لم نعد موجودين كأفراد. جميعنا يحمل نفس الاسم، وكان علينا أن نرضى بهذا الاسم الذى لم يكن اسم أحدنا. لم نكن نعرف ما كان بانتظارنا. لقد ظل فريبمان دائمًا بجانبي. لم يكن يتركني. أحيانًا كان يمسك بذراعي، لعدة دقائق طويلة، مشدودةً بين يديه كما يفعل طفل خائف. استسلمت له. إنه لجميل دائمًا أن نكون اثنين في مواجهة المجهول. ذات صباح، كان قد حدث فَرز. وضع فريبمان في الصف الشمال، وأنا في الصف اليمين.

"Schussa Brodeck! Au baldiegei en Dorfe إلى اللقاء، يا بروديك، إلى لقاء قريب في القرية!"، قالها لي فريبمان، بوجهٍ نضر، فيما كان صفه يتقدم. لم أستطع الرد عليه. لوحت له بيدي، إشارةً صغيرة بألا يبالي بأي شيء، من هذا اللا شيء الكبير الذى كنت أحدس به، والذي كانوا يسوقوننا إليه - هو أولًا، وأنا بعده - بضربات الهراوات. استدار وتقدم بخطًى واسعة وهو يصفر.

لم أر فريبمان مرةً أخرى قط. لم يعد إلى القرية. لقد سجل بارنسبور اسمه على النُّصب. وعلي العكس مني، فلم يستطع محو اسمه.

بقيت إيمليا وفيدورين وحيدتين بالمنزل. كانت القرية تتجنبهما كما لو أنهما أصيبتا فجأةً بطاعونٍ ما. كان ديودم الوحيد الذى يهتم بهما، من أجل الصداقة أو الخجل، كما قلت. دائمًا كان مهتمًّا بهما.

لم يعد يُطلب من إيمليا تقريبًا تجهيزات لعروس، أو مفارش، أو ستائر، أو شيلان. لم يعد لديها أية تطريزات تقوم بها. لم يتبق لها شيء من ذلك، لدرجة أنها لم يعد لديها ما تفعله. وكانت بحاجة بالفعل إلى الغذاء والدفء.

كنتُ قد أوضحتُ لها - من قبل - ما يمكن أن تحمله الغابة والمراعي المحصودة للرجال، أغصان، قرمات من جذع شجرة، ثمرة العنيبية، فطر عش الغراب، الأعشاب، السلاطة البرية. علمتها فيدورين طرائق عمل فخاخ للطيور، سواء بالصمغ أو بالحبل، وكيف تمسك بتلابيب الأرانب، وكيف تجذب السناجب أسفل شجر الصنوبر الضخمة، وأن تصرعها بضربة حجر. لم تموتا من الجوع.

كل يوم، كانت إيمليا تدون، في كراسة صغيرة وجدتُها، بضعَ جملٍ كانت موجهة إليّ. كانت دائمًا جملًا بسيطة وعذبة تتحدث عني، وتتحدث عنها، كانت تتحدث عنا، كما لو أني كنت سأعود في اللحظة التالية. كانت تحكى يومياتها، وهي تبدأ دائمًا بنفس الكلمات "صغيري بروديك.." لم تكن هناك أية حدة في كلامها. لم تكن تتحدث عن "الفراترجيكم". أنا متأكد أنها كانت تفعل ذلك عن عمد. كانت تلك طريقة رائعة لنفي وجودهم. هذه الكراسة، أحتفظ بها دائمًا بالتأكيد. وكثيرًا ما أقرأ منها عدة فقرات. هي سرد طويل ومؤثر لما حدث أثناء أيام الغياب. إنه تاريخنا، إيمليا وأنا. كلماتٌ مضيئة، تلك التي تصنع طباقًا مع كل زوايا ظلماتي. أريد أن أحتفظ بها لنفسي، لنفسي فقط، كأنها الأثر الأخير لصوت إيمليا قبل دخولها الليل.

لم يقم أورشفير بزيارتهما. ذات يوم قدم لهما نصف خنزير، وجداه ذات صباح أمام الباب. أتى بيبر لزيارتهما مرتين أو ثلاثًا، لكن فيدورين لم تكن تتحمله لأنه كان يظل لساعات قُرب المدفأة، حتى يُفرغ زجاجة شراب الخوخ التي أخرجتها له، ملقيًا بأحاديث مضطربة أكثر وأكثر. وقد وصل بها الأمر أيضًا إلى أن طردته ذات مساء بضربات من المكنسة.

كان أدولف بولر وفرقته لا يزالان يحتلان القرية. بعد أسبوع من اعتقالنا، فريبمان وأنا، كان قد سُمح أخيرًا بدفن كاتور. لم تكن له أية عائلة غير بيكنفور، الذى كان متزوجًا من أخته، وهو الذي تحمل المهمة.

"عمل قذر يا بروديك... ليس جميلاً، ليس جميلا حقًا... كان رأسه أضخم مرتين من حجمه العادي، بالونة غريبة، بجلد أسود ومشظّى، والباقي، يا إلهي، لا نستطيع أن نتحدث عنه..."

عدا هذا الإعدام واعتقالنا، كان "الفراترجيكم" يتعاملون بأروع أشكال التحضر في العالم مع أهل البلدة، لدرجة أن الحدثين كانا قد نُسيا بسرعة، أو بالأحرى، فعل الناس كل شيء لنسيانهما. في تلك الأثناء عاد جوبلر إلى القرية، مع زوجته البدينة. شغل من جديد منزله، الذي كان قد تركه منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا، واستقبلته القرية بأذرع مفتوحة. وبالأخص أورشفير، كأن الاثنين كانا منذورين لبعضهما البعض.

بناءً علي نصائح من جوبلر، وسوف أكون مستعدًا لتأكيد ذلك، انقلبت القرية تدريجيًا. أظهر للجميع كم يكون احتلال الفرقة لنا ميزة، وهي التي لا تُكن شيئًا من الكراهية، بل على العكس تمامًا، كانت تكفل السلام والأمن، وجعلت من القرية ومحيطها منطقةً مصونةً من المذابح. من جهة أخرى، كان من السهل عليه إقناع الجميع بأن وجود بولر ورجاله – لأطول فترة ممكنة في القرية- مفيد. فحوالي مئة رجل، هذا يأكل، هذا يشرب، هذا يدخن، هذا تُغسل ملابسه، هذا يرتقها، وهو ما يأتي – في الحقيقة – بكمية هائلة من النقود.

أصبح جوبلر نوعًا ما عمدةً ثانيًا، بموافقة كل مَن في القرية ومباركة أورشفير. كنا كثيرًا ما نراه في خيمة بولر، الذي كان يتأمله عند رحيله بنظرة ريبة، ثم أدرك تمامًا الفائدة التي سيجنيها من وراء هذا الرجل الضعيف، ومن التقرب الذي سيجعله مفضلًا، فبدأ يعامله تقريبًا كصديق.

أما بالنسبة لبولا، فكان فخذاها ينفتحان عن آخرهما لكل الفرقة، وكانت توزع حظوتها على أصحاب الرتب الكبيرة بنفس قدر أصحاب الرتب الصغيرة.

"ماذا تريد، كنا قد اعتدنا ذلك"، قال لي شلوس ذلك يوم جاء فيه إلى منضدتي يحدثني، وهو في حالة بكاء حار. "لقد أصبح وجودهم شيئًا طبيعيًا هنا". بعد كل شيء، كانوا بشرًا مثلاً. قُدوا من نفس اللحم. كنا نتحدث عن نفس الأشياء، نفس اللغة، أو بالقليل الذى يلزمنا منها. كنا نعرفهم جميعًا تقريبًا بأسمائهم الأولي. كان الكثيرون منهم يؤدون خدمات للعجائز، وآخرون يلعبون مع الصبية. كل صباح، كان يقوم عشرة منهم بتنظيف الشوارع. وآخرون يهتمون بالطرق، يقطعون الأشجار، يزيلون أكوام الزبالة. لم تكن القرية قط نظيفةً هكذا! ماذا تريد أن أقول لك! عندما أتوا إلي هنا، كنت أملأ الكؤوس، لن أذهب لأبصق في وجوههم! ثم أتظن أنه كان هناك الكثيرون الذين يرغبون في نهاية كنهاية كاتور، أو في الاختفاء مثلك أنت وفريبمان؟"

لقد مكث "الفراترجيكم" ما يقرب من عشرة شهور في القرية. لم يقع أي حادث يُذكر. لكن المناخ تغير خلال الأسابيع الأخيرة. عرفنا فيما بعد لماذا. فقد تحولت الحرب، في المكان، وفي الفكر. وكما حريق في فصل الربيع يجَن دخانُه الشرس الذي أثارته الرياح ويغير من اتجاهه بقوة، كانت الانتصارات ترحل من معسكر إلى آخر. لم يصل أي خبر للقرية. بالنسبة لهؤلاء الموجودين هنا كان الأمر مفهومًا. فباستمرارهم في جهلهم، لا يمكنهم أن يصبحوا خطرين. أما بالنسبة لـ بولر، فكان يعرف كل شيء. كان يروق لي أن أفكر في وجهه المصاب بتشنج، يزداد كثيرًا أكثر فأكثر، كلما أخبرته الرسائل بالهزيمة، بالكارثة، بانهيار هذه المملكة، التي كان يجب أن تمد علي كل العالم نفوذها وتستمر لآلاف السنوات.

والفرقة، ككلب، تشم اضطراب رئيسها، وتصبح أكثر فأكثر عصبية. سقطت الأقنعة من جديد. وعادت – مرةً أخرى – الانعكاسات القديمة.

كان بروشرت الجزار قد ضُرب أمام ديودم، لأنه سخر من عريف بخصوص تذوقه لكروش الحيوانات. أما ليمات، الذى لم يكبد نفسه عناء تحية جنديين قابلهما، فقد تم توبيخه، ولم يكن يحتاج سوى توسط جوبلر، الذي كان يمر في هذه اللحظة، حتى لا تناله ضربات العصِي. عشرات الحوادث من هذا النوع جعلت الجميع يفهم أن الوحوش لن تبرحهم أبدًا، إلا أنهم- وبكل بساطة- كانوا نائمين للحظة، ومن الآن لن يستمر نعاسهم بعد. إذن، سيعود الخوف. ومعه رغبة التوسل.

في فترة ما بعد الظهر، التي كان يجب أن تكون ظهيرة الليلة السابقة لرحيل الفرقة، اكتشف "دورفيرمش"- رجال من القرية- وهم ذاهبون لدحرجة بعض الأخشاب من غابة بورينسيفال، بالقرب من فرجة غابة ليشمال، تحت كومة من أغصان الصنوبر، معدة لإقامة كوخ، ثلاث فتيات مذعورات انضممن إلى بعضهن البعض عندما رأينهم يأتون. كُن يرتدين ملابس لم تكن مثل ملابس الفلاحات. لم تكن أحذيتهن هي أيضًا لها علاقة بالنعال أو بالمداسات. كانت معهن حقيبة صغيرة. لقد أتين من بعيد، من بعيد جدًا. لا شك أنهن قد هربن منذ أسابيع، وقد وصلن، الله يعرف كيف، إلى هذه الغابة، وسط هذا العالم الغريب، حيث ضعن تمامًا.

أعطاهن "الدورفيرمش" طعامًا وشرابًا. انقضضن على الطعام كما لو كن لم يبتلعن شيئًا منذ عدة أيام. ثم تبعنهم حتى القرية مستأمَنات. يعتقد ديودم أن الرجال - خلال سيرهم - لم يكونوا يعرفون أيضًا ماذا سيفعلون بهن. أود تصديقه. يبقى أنهم أدركوا أنهن كن "فرمدر"، وأن كل خطوة، كل متر يمشينه على الطريق- ويقربهن من القرية - كان يشير إلى مصيرهن. كان جوبلر - كما سبق أن قُلت- قد أصبح رجلاً مهمًا، والوحيد بالفعل الذى تقبَّله الكابتن بولر. قاد الرجالُ الفتيات إلي بيته. هو الذى أقنعهم أن يسلموهن لـ "فراترجيكم"، لاكتساب عطفهم الشديد، لتهدئتهم وتليين

طبعهم، فيما كانت الفتيات ينتظرن أمام المنزل تحت مطر مدرار كان قد أخذ يهطل فجأة.

السماء تتلاعب بنا. كثيرًا ما قلت لنفسي إنه بدون هذا المطر الذي راح يصطدم بقوة بالقرميد، ربما لم تكن إيمليا لتنظر قط عبر النافذة، حينئذٍ لم يكن لها بالتالي أن ترى الفتيات الثلاث المبتلات، المرتجفات، النحيلات، المنهكات. ولم تكن لتخرج لتعرض عليهن الدخول إلى حيث النار. إذن، فلن تكون معهن عندما أتى جنديان للقبض عليهن، بعد أن أخبرهم أحد "رجال القرية". لما كان لها بالتالي الحق في الاحتجاج. ولما كان لها أن تصرخ كما فعلت، أنا متأكدٌ من ذلك، في وجه جوبلر، بأن ما كان يفعله لا إنساني، ولما صفعته. ولما كان للجنود أن يقتادوها. ولما اقتادوها مع الفتيات الثلاث. وبالتالي، لما كان لها أن تخطو أول خطوة في الهاوية.

بسبب المطر. ببساطة، بسبب المطر، بسبب المطر الذى يلطم القرميد والنوافذ الزجاجية.

كان "لاندرير" يسمعني. من حين إلى آخر، كان يسكب الماء الساخن في فنجانه مع بعض أوراق الشاي. خلال الحديث، كنت أضم بين ذراعيَّ كتاب "الزهور الجبلية" القديم، كما لو أنه كان شخصًا ما. الصمت المرحب لـ"لاندرير" وابتسامته شجعاني على المتابعة. هدأني الحديث عن كل ذلك، للمرة الأولى، أن أقوله إلى هذا الغريب، برأسه الغريب ووضعه الغريب، في هذا المكان الذي كان يشبه تقريبًا حجرة.

الباقي قصصتُه عليه في قليل من الكلمات. لم يعد ثمة شيء لأقوله. ترك بولر ورجاله المعسكر. كان يسيطر على ميدان أسواق الخضار اضطرابُ القطيع تحت الإعصار. أوامر، صرخات، زجاجات، كان يحتسيها الواحد منهم جرعةً واحدةً ويلقيها على الأرض، عشرات الرجال السكارى يضحكون، يترنحون، يتشاتمون، كان كل ذلك تحت بصر بولر، المسمر كوتد تحت طنف خيمته، والرأس مهتاجة بالتشنج الذي تتزايد وتيرته بلا توقف.

في هذه اللحظة المتناقضة، كان "الفراترجيكم" لا يزالون السادة، حتى مع معرفتهم المسبقة بالهزيمة. كانوا آلهة وسقطوا، سادةً سيشعرون عما قريب بأنهم متجردون من أسلحتهم ومن دروعهم. وفيما أقدامهم أيضًا لا تزال في حلمهم، كانوا يرون أنفسهم مشنوقين ورأسهم لأسفل.

في هذه اللوحة، وصل الموكب الصغير للفتيات الثلاث وإيمليا، يقوده الـ"دورفيرمش" والجنديان. بسرعة بالغة، مثلما يتم الانقضاض علي الفرائس، تمت الإحاطة بالأربع، مضروبات، مدفوعات، ممسوسات. اختفين في ضحكات عالية وسط دائرة انغلقت عليهن، دائرة من رجال عنيفين دفعوهن- بكلمات من القذارة والسخرية - حتى مستودع حصاد أوتو ميشنبوم، وهو فلاح عجوز جاوز مئة سنة، دون أن يخلف ذرية - " hab nie zei gehab, nieman zei gehab" ليس لديَّ وقتٌ أبدًا، ليس لديَّ وقتٌ أبدًا!"، وظل محبوسًا في مطبخه.

اختفين فيه.

ابتُلعن فيه.

ثم، لا شيء.

في اليوم التالي، أصبح الميدان مهجوراً، لا يتناثر فيه سوى شظايا زجاج لانهائية. لقد رحل "الفراترجيكم". لم يتبق منهم إلا رائحة النبيذ الحادة، رائحة شراب العرقي المثيرة للغثيان، والبيرة المنتشرة في القنينات. كانت كل أبواب المنازل مغلقة، بعد ليلة الغثيان هذه. حيث إن بعض الجنود وبعض "رجال القرية"، بمباركة بولر الصامتة، قتلوا عدة أرواح وعدة أجسام. لم يجرؤ أحدٌ على الخروج مرةً ثانية. وعلى كل هذه البيوت، كانت فيدورين تطرق، تطرق، تطرق. حتى اللحظة التي وصلت فيها إلى مستودع الحصاد.

"دخلت إليه يابروديك"؛ هي العجوز فيدورين التي كان تحكي لي وهي تطعمني بالملعقة. كانت يداي مغطاتين بالجروح. ولم تكن شفتاي بحالة جيدة. وأسناني المكسورة تؤلمني، كما لو أن شظاياها قد شَجت أيضًا لثتي.

أنا بالكاد عُدت، بعد سنتين تقريبًا خارج العالم. خرجتُ من المعسكر. سرت على الطُّرق والدروب. أنا هنا مرةً أخرى. لكني أيضًا نصف ميت. بالغ الوهن. دفعتُ باب منزلي. التقيت فيدورين، التي بمجرد رؤيتها لي تركت الطبق الصيني الكبير يهوي، وهي التي كانت تقوم بتجفيفه، مما جعل نقوش الزهور الحمراء تتبعثر في زوايا الحجرة الأربع. التقيت بإيمليا. جميلة جدًّا أيضًا، نعم أجمل من كل ذكرياتي، ليست هذه كلمات عبثية، وإيمليا تجلس قُرب المدفأة، وبالرغم من ضوضاء الطبق المكسور، على الرغم من صوتي الذي يناديها، على الرغم من يدي على كتفها، لم ترفع عينيها نحوي، وواصلت دندنتها بأغنيتها التي هزت قلبي، "Schöner Brinz so lieb, Zu weit fortgegangne" هي أغنية حبنا الوليد. وكما كنت أقول اسمها، الذي كنت أكرر قوله بسعادة بالغة بلقائها، وفيما يدي كانت موضوعة على كتفها، تداعب خدها، شعرها، رأيت أن عينيها لم تكونا ترياني، وأدركت أنها لم تكن تسمعني، أدركتُ أن الجسم والوجه العجيب لإيمليا كانا أمامي، لكن روحها كانت هائمةً في مكانٍ ما، لم أكن أعرف أين، في مكانٍ ما غير معروف. لكني أقسمت أن أذهب إليه لأستعيدها منه، وفي هذه اللحظة بالتحديد، في هذه اللحظة التي كنت أقسم فيها، سمعتُ لأول مرة صوتًا صغيرًا لم أكن أعرفه، صوتًا صغيرًا لطفل كان آتيًا من حجرتنا، وكان يدعك المقاطع ببعضها البعض، كما ندعك الزلط الصوان لينبجس عنه نار، وكان ذلك يصدر نغمًا متواصلاً، بهيجًا، حرًّا، جامحًا، ثرثرة مرحة أعرف الآن أنها لابد أن تكون قريبة جدًا من لغة الملائكة.

"دخلت مخزن الحصاد، يا بروديك. دخلت إليه. كان هناك صمت مطبق، وكان معتمًا. رأيت أشكالاً ممددة، أشكالاً صغيرة قبالة بعضها، ثابتة. جثوتُ بالقرب منها. كنت أعرف تمامًا الموت بلا حاجة لإعادة التعرف عليه. كانت هناك الصغيرات الثلاث، صغيرات جدًا، كن أقل من عشرين عامًا، وثلاثتهن كن مفتوحات الأعين تمامًا، أغلقتُ أجفانهن. وهناك كانت إيمليا. كانت الوحيدة التي لا تزال تتنفس، بوهن. كانوا قد

تركوها لتموت، لكنها لم تكن تريد أن تموت يا بروديك، لم تكن تريد، لأنها كانت تعرف أنك ذات يوم سوف تعود، كانت تعرف ذلك يا بروديك... عندما أصبحت قريبةً منها، وبينما أخذت وجهها على بطني، بدأت في الغناء، الأغنية التي لم تعد تتركها منذ ذلك الحين... هدهدتها، هدهدتها، هدهدتها طويلاً..."

لم يعد هناك ماء في الغلاية. وضعت كتاب "ليبيرفلوراي" بجانبي، بهدوء. في الخارج، كان الليل قد حل تقريباً. كان "لاندرير" قد فتح النافذة قليلاً. اندفعت إلى الحجرة رائحة الصمغ الساخن ورائحة التربة العضوية النفاذة. كنت قد تحدثت لفترة طويلة، لعدة ساعات بلا شك، لكنه لم يقاطعني. كنت على أهبة الاستعداد للاعتذار، لأني - بلا خجل أو استئذان- فتحت أمامه أعماق قلبي، فيما دوت صلصلة بالضبط في ظهري. استدرتُ فجأة، كأنما أطلقت رصاصةٌ ما. إنها ساعة غريبة تمامًا، بمقاس ساعة يد ضخمة، كنا نعلقها في الأزمنة الماضية داخل عربات تجرها الجياد. لم أكن لاحظتها من قبل. بعقاربها الذهبية الدقيقة، كانت تشير إلى الساعة الثامنة. كانت العلبة مصنوعةً من الأبنوس والذهب ممتزجين، وأرقام الساعات من ميناء زرقاء على أرضية من العاج. تحت محور العقارب، كان اسم الساعاتي، بينيديك فورستينفلدر، منقوشًا أسفل الإطار، وكان محفورًا بحروف مائلة جميلة - كانت تتشابك مع بعضها البعض- شعار: "كلهن يجرحن، وواحدة تقتل".

أثناء نهوضي، نطقت بالشعار بصوت عال. نهض "لاندرير" أيضًا. كنتُ قد تحدثت كثيرًا. ربما أفرطت. كان وقت عودتي إلى المنزل. كنت مشوشًا، ولم يكن من الواجب أن يظن أن... قاطعني، وهو يرفع بحماسة يده القصيرة، الممتلئة كيد امرأة سمينة:

"لا تعتذر- قال بصوت أيضًا غير محسوس كأنه نفَس- أعرف أن الحكي علاج أكيد".

ـ ٣٣ ـ

لا أعرف ما إذا كان "لاندرير" على حق.

لا أعرف هل يستطيع المرء أن يُشفى من بعض الأشياء. في الحقيقة، ربما الحكي ليس علاجًا ناجعًا لذلك. ربما - على العكس - لا يؤدي الحكي إلا إلى تغذية الجراح، مثلما تُغذَّى جمرات النار لتكون كما نريد، متى نريد، فإذا بها تشب بصورة أقوى.

أحرقتُ خطاب ديودم. بكل تأكيد أحرقته. فالكتابة لم تشفه من شيء. واكتشاف أسماء "الدورفيرمش"- التي سجلها في ظهر الورقة الأخيرة - لم تكن ستعنيني في أن أستخدمها في شيء. أي شيء على الإطلاق. ليست لديَّ روح الانتقام. سأظل دائمًا في مكانٍ ما "الكلب بروديك"، ككائن يفضل التراب على العضة، وربما هذا أفضل هكذا.

في ذلك المساء،لم أعد مباشرةً إلى منزلي. قمت بدورة طويلة. كان الليل لطيفًا. في السماء التي كانت تتلاشى كانت النجوم تحك بشرتها الفضية في سواد الليل. ثمة ساعات على الأرض يكون فيها كل شيء له جمال فوق الاحتمال، جمال يبدو مديدًا ورهيفًا على نحو فريد للتأكيد على قُبح وضعنا. ذهبت سيرًا حتى حافة نهر ستوبي، في أعلى قمة

بابتستربروك،حتى مجموعة من شجر الصفصاف مقطوعة الأغصان، يُنكل بها بارينبور كل يناير، بقطعه كل أغصانها. هناك دُفنت الفتيات الثلاث. أعرف ذلك. ديودم هو مَن أخبرني. أشار لي على الموضع بالضبط. لا مقبرة. لا صليب. لا أي شيء. لكني أعرف أن الفتيات تحت العشب، ماريزا، تيرن، وجودت. الأسماء مهمة. أسماؤهن. الأسماء التي منحتُها لهن. ففضلاً عن قتلهن، أخفى "الدورفيرمش" كل شيء عنهن، بحيث لا يعرف أحدٌ أسماءهن، ولا من أين أتين، ولا مَن كُن حقًا.

رائعٌ نهر ستوبي في هذا الموضع. يدحرج مياهه الصافية على سرير من الحصى الرمادي. يهمس ويهدر. يمكننا تقريبًا أن نقول إنه صوت إنساني. موسيقى رقيقة يهديها لمن يودون إرهاف السمع، ويجلسون للحظة، على العشب.

كثيرًا ما كان "لاندرير" يأتي إلى هذا الموضع، ويجلس أيضًا على العشب، ويدون ملاحظات في مفكرته الصغيرة، ويرسم. أعتقد أن بعضًا ممن رأوه هنا، بالتحديد هنا، اقتنعوا أنه لم يكن ليطول مكوثه في هذا المكان صُدفة، المكان القريب تمامًا من المقابر الصامتة للفتيات. ولا شك - أثناء هذه المحطات - كانت قد بدأت إدانة "لاندرير"، دون معرفته، وقرر "الدورفيرمش" موته شيئًا فشيئًا. لا ينبغي - حتى بلا تعمد، وبلا وعي- النبش في الرعب، وإلا فسينتعش ويتفشى. إنه يُلقِّح الرؤوس، يكبر، يلد مرةً أخرى من نفسه.

وجد ديودم أيضًا الموت ليس بعيدًا عن هنا. إنه تعبير غريب، عندما نفكر فيه، "إيجاد الموت"، لكني أعتقد أنه يتوافق مع ديودم: كي نجد شيئًا ما، فلابد أن نبحث عنه. وأعتقد أن ديودم كان يبحث عن موته.

لم أعد أعتقد - كما اعتقدتُ في البداية، ولاسيما منذ أن قرأت خطاب ديودم - أن الآخرين قتلوه، كما قتلوا "لاندرير". لا. أعتقد الآن أن الحقيقة ليست هنا.

أعرف أن ديودم خرج من مسكنه. أعرف أنه خرج من القرية. أعرف أنه سار على حافة نهر ستوبي، وأنه، بسيره عكس تيار المياه، قد غير مجرى حياته. تذكَّر نزهاتنا الطويلة، تذكَّر كل أحاديثنا، تذكَّر صداقتنا. انتهى من خطابه وسار في محاذاة المياه، وهو يتذكر كل ذلك. مر بالقرب من أشجار الصفصاف مقطوعة الأغصان، تذكر الفتيات، سار، واصل السير، حاول طرد الأشباح، حاول أن يتحدث إلىَّ لآخر مرة، أنا متأكدٌ من ذلك، نعم، متأكدٌ أنه نطق باسمي، وأنه صعد إلى صخور تيزنتال، وهذا الصعود القصير جداً جعله بحالة طيبة، لأنه كلما كان يصعد كان يشعر بخفته. وعندما وصل إلى القمة، شاهد أسطح القرية، شاهد القمر ينعكس على أهداب النهر، شاهد حياته لآخر مرة، شعر بهواء الليل يداعب لحيته وشعره. أغمض عينيه، واستسلم للسقوط. طال سقوطه. ربما- فضلًا عن ذلك، هنا، حيث يوجد الآن - لا يزال يواصل السقوط.

مساء "الإيرينيه"، لم يكن ديودم في النُّزل. لقد ترك القرية في صحبة ساعي البريد الفريد فورتتسفلر وشفته العليا المشقوقة، ليذهب إلى قرية س، حيث كان قد أرسله أورشفير لينقل أوراقًا مهمة. أعتقد أن العمدة قد أبعده عن عمد. عندما عاد بعد ثلاثة أيام، أردت أن أقول له كل شيء، لكنه سرعان ما قاطعني:

"لا أريد أن أسمع شيئًا، يا بروديك، فلتحتفظ بكل ذلك لنفسك. من جهة أخرى، فأنت لست متأكدًا من شيء، ربما رحل دون أن يقول شيئًا لأحد، وربما نزع قبعته وأدى تحيته، ورحل كما أتى، وأنت لم تر شيئًا، قلتَ ذلك بنفسك! أيضًا، ألا يوجد غير "لاندرير"ك؟"

دُهشت منه.

"ولكن، في النهاية، يا ديودم،لا تستطيع مع ذلك...

- اسكت يا بروديك، لا تقل لي ما يجب وما لا يجب أن أفعله. فلتدعني هادئًا! فثمة ما يكفي من الحزن في هذه القرية!"

ثم رحل مسرعًا، تاركًا إياي بمفردي تمامًا في زقاق سيلك. أعتقد أن ديودم كان قد بدأ - ولا شك، في ذلك المساء - في كتابة خطابه لي. كان موت "لاندرير" يحرك أشياء كثيرة، أكثر من قدرته على احتمالها.

أصلحت الدرج والمكتب. قمت بعمل رائع، فيما أظن. ثم قمت بصقله بشمع عسل النحل. له رائحة طيبة. يبرق تحت الشموع. وأنا هنا أكتب من جديد. الجو بارد في المخزن، لكن الأوراق تحتفظ لفترة طويلة بحرارة بطن إيمليا. لأنه على بطنها تمامًا أُخفي كل هذه الكلمات. كل صباح، أنا من يُغسل ويُلبس إيمليا، وكل مساء، أخلع عنها ملابسها. كل صباح، بعد أن أكتب طوال الليل تقريبًا، أُغلف الأوراق في جيب من الكتان المحاك بمهارة وألفه حول بطنها، تحت قميصها. كل مساء، عندما أنيمها، آخذ الجيب الدافئ وأشم رائحتها.

أقول لنفسي إن بوبشيت كبرت في بطن إيمليا، وأن القصة التي أكتبها هي أيضًا - نوعًا ما - أتت من بطنها. هذه المقابلة تعجبني وتمنحني الشجاعة.

انتهيتُ تقريبًا من "التقرير" الذي كان ينتظره أورشفير والآخرون. في الحقيقة، تبقت لي أشياء قليلة لأقولها حتى ينتهي. لكنني لا أريد أن أعطيه لهم قبل أن أنجز قصتي. لا يزال يلزمني أن أذهب إلى بعض الدروب. لا يزال يلزمني أن أجمع بعض الأجزاء. لا يزال يلزمني أن أفتح بعض الأبواب. لكن ليس الآن، ليس في الحال أيضًا.

فقبل ذلك، لابد من أن أستعيد تسلسل الأيام التي أدت إلى "الإيرينيه". فلنتخيل وتر القوس يُشد، كل ساعة أكثر قليلاً. فلنتخيل ذلك لنحصل على فكرة عن الأسابيع التي سبقت "الإيرينيه". ففي تلك اللحظات، كانت القرية كلها تشد بطريقتها القوس، دون أن تدري أي سهم كانت ستطلق، ولا ما هو هدفها الحقيقي.

كان الصيف يشوينا كما في حرارة الفرن. كان الأقدمون يقولون إنهم لا يتذكرون قيظًا يشبه هذا. حتى وسط الغابة، بين الصخور- حيث يشعر المرء كالمعتاد، في وسط شهر أغسطس، بأن النسمات الباردة الهاربة تصاعد من أعماقها - لم نجد غير نسمات حارقة. كانت الحشرات تدور كالمجانين، وهي تحك غمد أجنحتها في طحالب جافة، وهذا الانزعاج من الكمان غير المدوزن كان يملأ رؤوس الرجال المشغولين بالتحطيب، لدرجة أنهم أصبحوا في حالة غضب دائم منها. الينابيع كانت تنضب. الآبار كانت منخفضة تمامًا. حتى نهر ستوبي كان يشبه جدولًا نحيلًا مخنوقة بداخله أسماك الترويتة، وأسماك سلمون العين، وكانت أسماك الأسل تموت بالعشرات. كانت الحيوانات تلهث. ضروعها الذابلة لم تكن تُدر إلا لبنًا لاذعًا وخفيفًا، وأقل غزارة. أعدناهم إلى الاسطبلات، لا نخرجهم إلا عند حلول الليل. نائمة على جنبها،حيث كانت تسدل أجفانها الكبيرة على عيونها اللامعة، وتخرج ألسنتها البيضاء كالجبس. كان لابد من الصعود أعلى المراعي للعثور على القليل من الطراوة، وكانت الأكثر سعادة بالتأكيد قطعان الماعز والخراف، فرعيناهم. وكان رعاة الماعز على القمم يجرعون الهواء المنعش بملء صدورهم. في الأسفل، في الشوارع، في المنازل، كانت كل المحادثات تدور حول الشمس الشديدة التي كنا نراها تشرق بقوة كل صباح، وتصعد بسرعة إلى القمة، في سماء فارغة- على الإطلاق - وزرقاء، وتبقى بها طيلة اليوم. كنا نتحرك قليلاً. كنا نقلب الأشياء. كان أقل كأس للنبيذ يصعد إلى رؤوس الرجال، الذين لم يكونوا بحاجة لتبرير غيظهم بلا داع. ما من مذنب في الجفاف. لم نستطع أن ننقلب ضد أحد. حينئذٍ، كان لابد بالفعل من تفريغ الغضب ضد شيءٍ ما، أو ضد شخصٍ ما.

لا ينبغي أن يُفهم الكلام بشكل خاطئ. لا أقول إن "الإرينيه" قد وقعت لأننا كنا نعيش في مناخ بركاني في الأسابيع التي سبقتها، وأن النفوس كانت تغلي كالماء في المراجل على نار كبيرة. أعتقد أنها كانت ستحدث حتى مع نهاية صيف طويل مطير. وكان لذلك بالتأكيد أن يستغرق وقتًا

أطول. لا شك أن هذا الهطول لم يكن ليحدث، ولا ما كان لهذا القوس أن يتوتر، كما كتبت. كان لذلك أن يحدث بشكل مختلف، لكنه كانَ سيحدث.

نحن نخاف ممن يصمت. هذا الذي لا يقول شيئًا. هذا الذي ينظر ولا يقول شيئًا. كيف نعرف فيمَ يفكر مَن يظل صامتًا؟ إن واقعة عدم رد "لاندرير" إلا بكلمة، وحيدة، على خطاب العمدة، لم تكن مرضيةً قط. في اليوم التالي، مرورًا ببهجة الحفل، والنبيذ المجاني والرقص، تم الحديث - مرةً أخرى - عن موقفه، وابتسامته، أسماله، الدهان الوردي لوجنتيه، عن حماره، وحصانه، عن الأسماء التي يمنحها لهما، ولماذا كان قد أتى إلى قريتنا، ولماذا بقي بها.

خلال الأيام التالية، لا نستطيع أن نقول إن "لاندرير" قد استدرك تقصيره. أعتقد أنني - بلا أدنى شك- كنتُ أكثر مَن تحدث إليه - عدا القس بيبر، ولكني - من هذا الجانب- لم أنجح في معرفة مَن كان الأكثر حديثًا إلى الآخر، ولا الموضوع- وأن نفصل في ذلك، فكل ما قاله لي رصدتُه في هذه الصفحات. وهو ما يشغل عشرة أسطر أو أكثر قليلاً. كان يقابل شخصًا ما، لم يكن يعرفه. كان يرفع قبعته، وكان يحني رأسه الضخم التي لم يعد به إلا بضع شعرات نادرة، طويلة جدًا ومجعدة، كان يبتسم، لكنه لم يكن يفتح شفتيه.

ثم، بكل تأكيد، كانت هناك مفكرته السوداء، كل الملاحظات التي كنا نراه يدونها، والتخطيطات، والرسومات. والمحادثة التي كنت قد سمعتها، ذات يوم في السوق - بين دورشا وبفملنج وفوجل وهوسرون - في النهاية - لم أبتدعها! لم تكن هناك إلا هذه السطور الأربعة التي كانت مزعجة! فبأية غاية خربش كل هذا؟ لماذا؟ إلى أين كان سيقوده هذا؟

أخيرًا عرفنا ذلك.

كان ٢٤ أغسطس.

وهنا، كانت حقًا بداية نهايته.

ـ ٣٤ ـ

في ذلك اليوم، في الصباح، وجد كل واحد على عتبة بيته علبة كارتون صغيرة كانت تفوح بعطر وردي. كان مكتوبًا عليها، بحبر بنفسجي وبشكل متناسق، الجملة التالية:

هذا المساء، الساعة السابعة،

في نُـزل شلُوس،

وجوه ولوحـات طبيعـية

تفحصها أكثر من واحد من كل الاتجاهات، هذه العلبة الكارتون، قلبها ثم قلبها مرةً أخرى، اشتمَّها، قرأ ثم أعاد قراءة بضع كلمات. في الساعة السابعة صباحًا، كان النُّزل يعج بالناس. رجال. رجالٌ حقًا، لكن بعضهم كان قد أرسلته زوجته لمعرفة الأخبار. كان شلوس يجد صعوبة في الخدمة، حيث كانت الأيدي ممدودة والكؤوس فارغة.

"قل لي إذن، يا شلوس، ما هذا الثلاثاء الدسم؟"

جنبًا إلي جنب، كان كل واحد يتجرع كأس نبيذه، ومشروب الشوريك، والبيرة. كانت الشمس بالخارج تسفع سفعًا. انضممنا إلى بعضنا البعض، ونحن نرهف السمع.

"هل أثرت الشمس على رأس نزيلك؟

ماذا يدبر؟

إنه "شيتكلش" أم ماذا؟

حسنًا، فلتحكِ يا شلوس! قل لنا!

هل سيقيم وقتًا أطول هنا، مدعي الشجاعة هذا؟

أين يظن نفسه بعلبته الغندورة؟

هل يظننا مراهقين؟

ماذا تعني مراهقون هذه؟

حسنًا، أنا لا أدري، لستُ مَن قال ذلك!

لكن تبًا لك، ياشلوس، أجب: أخبرنا شيئًا ما!"

كان أسوأ ما في الأمر رشاش الأسئلة هذا. وشلوس، كان يستقبلها ككرات مسالمة. فقط كانت تدفعه إلى ابتسامة صغيرة مليئة بمكر يغطي وجهه السميك. لم يكن يقول شيئًا. كان يترك التوتر يعلو. كان ذلك في مصلحة تجارته. فالحديث يجعل الناس عطشى.

"لكنك لن تتركنا - بعد كل ذلك - في صمت حتى المساء، يا للفوضى!

أهو هناك في الأعلى؟

فلتتقدموا!

إذن، شلوس!

انتهى الأمر، انتهى الأمر، أغلقوا أفواهكم، سوف يتحدث شلوس!".

حبس كلٌّ منا أنفاسه. الاثنان أو الثلاثة الذين كانوا لا يأبهون لشيء، وكانوا مستمرين في حديثهم المنفرد - سرعان ما وضعوا أنفسهم في هذا

النظام. كل النظرات، حيث كان البعض قد بدأ في الاضطراب، تلاقت نحو صاحب النُّزل الذى كان يأخذ وقته ويلعب دوره المسرحي إلى حدٍ ما.

"بما أنكم مُصرون، سأحدثكم...!"

جلبة كبيرة سعيدة ومسكِّنة أطرت تلك الكلمات الأولى.

"سوف أخبركم بكل ما أعرف"، أكمل شلوس.

امتدت الرقاب ومالت نحوه بأكبر قدر. ضرب بكف يده على ماكينة الصرف، ووضع راحتيه فوقها، ثم نظر طويلاً عبر هذا الصمت المطبق نحو السقف. قلده الجميع، حتى لو أن شخصًا ما دخل في هذه اللحظة إلى النزل، لكان سيسأل نفسه - بلا شك - عما يفعله أربعون رجلاً، صامتين، ورؤوسهم متجهة نحو سقف ذي دعائم سوداء، قذرة يسودها الدخان، والنظرة تثبتهم بانفعال محموم كما لو لتطرح عليهم سؤالاً عظيمًا.

"إن ما أعرفه - استعاد شلوس الكلام بنبرة واثقة، وبصوت خفيض جدًا، حيث كان كل منهم يشرب كلامه كأنه أغلى أنواع العرقي - هو، وأقسم، ليس شيئًا عظيمًا!".

جلبة كبيرة من جديد، لكنها- هذه المرة - كانت مفعمةً بالإحباط وأيضًا بعض الغضب، وأيضًا بعض القبضات التي تضرب فوق ماكينة الصرف، وبعض الإهانات، وكل شيء آخر. رفع شلوس ذراعيه محاولًا تهدئة الجميع، لكن كان لابد أن يرفع صوته حتى يسمعوه:

"ما طلبه مني بالتحديد هو السماح له بأن تكون كل القاعة له ابتداءً من الساعة الثالثة للإعداد.

إعداد ماذا؟

لا أعرف.

على كل حال، ما أستطيع أن أخبركم به، هو أنه دفع ثمن شراب الجميع!".

عادت الضحكات. إن إمكانية مضمضة الحلق بأقل التكاليف كانت كافيةً لكنس كل الأسئلة. شيئًا فشيئًا، خلا النُّزل، وأنا أيضًا هممتُ بالذهاب عندما شعرت بيدٍ علي كتفي. كان شلوس.

"لم تقل شيئًا، يا بروديك؟

تركتُ الآخرين يتحدثون...

ألم تكن لديك أسئلة لتطرحها؟ إذا لم تكن لديك أسئلة، فربما لأن لديك الأجوبة، ربما لأن مشارك في السر...

ولماذا سأكون كذلك؟

لقد رأيتك - في اليوم الآخر - تصعد إلى حجرته، وبقيت عدة ساعات، ولابد أنكما حكيتما أشياءَ عن ذلك، لتشغلوا كل هذا الوقت؟

كان شلوس قد اقترب جدًّا بوجهه من وجهي. كان الجو شديد الحرارة في هذا الوقت، حيث كان جلده يرشح من كل الجهات كقطعة شحم خنزير وضعت على مقلاة ساخنة.

"فلتتركني هادئًا يا شلوس، فلديَّ ما أفعله.

لا ينبغي أن تحدثني هكذا، يابروديك، لا ينبغي!"

في ذلك الحين، كنت قد أخذت الجملة كنوع من التهديد. ولكنه - في اليوم الآخر، حين كان حزينًا تمامًا - أتى إليَّ ليحدثني عن موت طفله، فلم أعد أدري. أحيانًا ما يكون البشر أكثر رعونة مما يلزم، مما يدفعنا إلى أن نُكوِّن فكرةً لا تتوافق مع ما يكونون عليه بالفعل.

وأنا في طريقي إلى النُّزل، لم أكن قد علمت بشيء ذي بال، إلا أن "لاندرير" قد نجح - بفضل علبته الكرتونية المعطرة - في زيادة توجيه الانتباه إليه، إلي حدٍ ما. لم تكن الساعة قد بلغت السابعة بعد، والآن، لم تعد هناك نسمة هواء. في السماء، كانت تبدو طيور السنونو منهكة، وتطير

على مهل. وسحابة، صغيرة جدًا، وشفافة تقريبًا، كانت تتخذ شكل ورقة شجر البهشية، وتتسكع بمفردها في أعالي السماء. لم نكن نسمع أيضًا الحيوانات. لم تكن الديوك قد صاحت. وكانت الدجاجات تقف في ثنائيات بلا حراك، باحثةً عن بعض الطراوة، وملتفة على نفسها في جحور ترابية محفورة في الأرض كأفنية. وكانت القطط تنام في ظل أبواب العربات، تنام على جنبها، بأقدام ممدودة ولسان يخرج من بين أفواهها المفتوحة.

عندما مررتُ بالقرب من ورشة حدادة جوت، سمعتُ بلبلة عظيمة غير واضحة في الداخل. كان هذا الصوت كأنه ضوضاء كل الشياطين. كان جوت الذي يقوم ببعض التنظيم. لمحني، أشار إليَّ بالتوقف، وأتى نحوي. كان كور الحدادة في راحة. لم تكن ثمة نار تشتعل به، وكان جوت مغتسلاً، حليق الذقن وممشطًا. لم يكن في صدريته الجلدية الدائمة وكتفاه عاريتين لكنه كان يرتدي قميصًا نظيفًا وبنطلونًا مرتفعًا بحمالات.

"ماذا تقول عن كل ذلك، يابروديك؟"

دون أن أجازف كثيرًا، رفعت كتفَي لأنني لم أكن أدري بالفعل عم كان يريد التحدث، عن الحرارة، عن "لاندرير"، عن العلبة الكرتونية الصغيرة المعطرة بماء الورد، أم عن أي شيء آخر أيضًا.

"أقول إن ذلك سينفجر، فجأةً، وسوف يكون عنيفًا، تستطيع أن تصدقني!"

كان جوت يتحدث وهو يضم قبضتيه وفكيه. كانت شفته المشرومة تتحرك كعضلة، ولحيته الشقراء كانت تذكرنا بنبات شوك النار. كان يتجاوزني كثيرًا في الطول، فكان لابد أن يميل عليَّ ليحدثني في أذني.

"لم يعد من الممكن أن يستمر هذا، وأنا لست الوحيد الذي يفكر في ذلك! وأنت الذي ذهبت للدراسة تعلم عنه أكثر منا، كيف سينتهي هذا؟

لا أدري، يا جوت، علينا أن ننتظر هذا المساء، سوف نرى جيدًا.

لماذا هذا المساء؟

لقد حصلت على العلبة الكرتون مثلنا جميعًا، في الساعة السابعة سنكون في الموعد المحدد".

تراجع جوت وتفحصني بدقة، كما لو أنني كنت قد جُننت.

"لماذا تحدثني عن العلبة الكرتون فيما أحدثك عن هذه الشمس المهلكة؟ إنها- منذ ثلاثة أسابيع - تشوي جماجمنا! لم أعد حتى أستطيع العمل لدرجة أني أختنق، وأنت تحكي لي قصة العلبة الكرتون!".

أتى أنين من داخل كور الحدادة دار برأسينا. إنه "الأوبنمست"، الأنحف من مسمار، الذي كان يتمطى ويتثاءب.

"إنه أيضًا الأكثر سعادة، أقول ذلك لجوت.

لا أدري ما إذا كان الأكثر سعادة، ولكنه، على أية حال، الأكثر تنبلة!"

ولكي يعطي مبررًا للحداد الذي اتخذ مكانه منزلًا له، وضع الكلب رأسه على قدميه الأماميتين، ونام في سكينة.

كان يومًا إضافيًا في هذا الصيف الذى كان يشوينا على نار قوية. لكنه كان يومًا مميزًا كأنه قد أُفرغ من الداخل، كما لو أن مركزه وساعاته لم تكن لهما أية أهمية، إلا مساءه الذي كان يبتلع الألم الذى كنا نفكر فيه، فننتظره، وننزع نحوه. أتذكر أنني - ذلك اليوم - عدت من النُّزل، ولم أعد للخروج من المنزل. بدأت العمل في وضع نظام لكل الملاحظات التي رصدتها منذ عدة شهور بخصوص الانتفاع من غابتنا، بخصوص قياس كل القطع الصغيرة، الأغصان المقطوعة والتي ستُقطع، النمو، الشتلات، الأشجار الضخمة التي يجب أن تُشذَّب العام القادم، توزيع الاحتطاب، إرجاع الحقوق. مكثتُ في القبو، حتى أجد فيه قليلاً من الطراوة، لكن حتى هنا - في هذا المكان، حيث تنضح الجدران عادةً برشح ثلجي- لم

أجد سوى هواء لزج وثقيل. بالكاد أبرد قليلاً من الحجرات الأخرى. كنت أسمع للحظات، من فوق رأسي، ضحكات بوبشيت العالية، التي كانت فيدورين قد وضعتها عاريةً تمامًا في برميل خشبي كبير مملوء بالماء البارد. هكذا لعبت بسمكة صغيرة لعدة ساعات، بلا ملل، بينما بالقرب منها،كانت إيمليا تضع يديها أفقيًا على ركبتيها، وتجلس بالقرب من النافذة دون أن ترى من خلالها أي شيء، وهي تنشد لازمتها الحزينة.

عندما صعدتُ من القبو، كانت بوبشيت المجففة، والمدعوكة، والوردية تمامًا، تتناول ملء صحن كبير من الشوربة قليلة الدسم، حساء الجزر والبقدونس.

"خارج بابا؟ خارج؟"، قالت لي بوبشيت فيما كنت أستعد للخروج. أوقعت نفسها عن كرسيها، وجرت لتلقي بنفسها بين ذراعَي. "سأعود بسرعة، أقول لها، سوف أقبلك في سريرك، فلتهدئي! - اهدئي! اهدئي! اهدئي!"، كررتها وهي تضحك وتدور حول نفسها، كما لو كانت ترقص فالس.

يا صغيرتي بوبشيت.. سوف يقول لكِ البعض إنك ابنة الحقير، ابنة القذارة، ابنة تزاوج الكراهية والرعب. سوف يقول لكِ البعض إنك الابنة البغيضة المجبولة من البغض، ابنة الدنس، طفلة مدنسة مِن قبل أن تولد بالفعل. لا تسمعي لهم، أتوسل إليك، يا صغيرتي، لا تسمعي لهم. أقول لك إنك ابنتي، وإنني أحبك. أقول لكِ إن الرعب يلد - في بعض الأحيان- الجمالَ، والطهر، والرقة. أقول لك إنني أبوك إلى الأبد. أقول لكِ إن أجمل الورود تأتي أحيانًا من أرض متقرحة. أقول لك إنك الفجر، اليوم القادم، كل الأيام القادمة، وإن ذلك هو الاعتبار الوحيد الذى يجعل منك وعدًا. أقول لك إنك فرصتي وغفراني. أقول لك بوبشيتي، إنك كل حياتي.

أغلقتُ الباب في نفس الوقت الذى كان جوبلر يغلق فيه بابه. دُهش كلانا لدرجة أننا نظرنا - في نفس الوقت- إلى السماء. كانت منازلنا

بطبيعة الحال مظلمة. لقد صُنعت للشتاء، وحتى عندما تسطع الشمس، فكثيرًا ما نُضطر إلى إشعال شمعة أو اثنتين لنرى. كنت أتوقع، وأنا أترك ظلمتنا، وما إن أعبر العتبة، أن أجد الشمس الكبيرة التي كانت تُشكل - منذ عدة أسابيع - حياتنا اليومية الثابتة. لكن الأمر كان كما لو أننا غطينا السماء كلها بغطاء شاسع وكامد ذي لون رمادي أسمر فاتح مخطط بسحب ضاربة في السواد. في الأفق، نحو الشرق، كانت قمم هورني تختفي عبر هذه الرواسب المعدنية الكثيفة، المنقوشة ببعض البثور الزغبية، التي كانت تعطي شعورًا بالاختناق بانخفاضها التدريجي، والتي كانت- إن عاجلاً أو آجلاً - ستنتهي إلى أن تسحق الغابات وأسقف المنازل. ففي عدة أماكن، كان ثمة بقع رخامية قوية تُضلِّع الكتلة اللزجة وتنيرها - على نحو عابر - بضوء اصطناعي مصفَر، ولكن من هذا البرق المجهض أو المكبوت لم تكن تتولد أية فرقعة. كانت الحرارة قد أصبحت كثيفة وتمسك بالتلابيب، كما تفعل يدٌ بمجرم، لتضغط عليه بثقة شديدة.

مرةً أخرى، وفي نفس الوقت، مر هذا الاندهاش الأول، وبدأنا - أنا وجوبلر - في السير. كآليين، بنفس الخطوة، والتقينا، جنبًا إلى جنب، لنسير معًا على الطريق الترابي الذي كان يشبه - خلال هذا الضوء الغريب- رماد شجر الصندل. كانت تتطاير من حولي رائحة زَرق الدجاج وريشه، منفرةً، نتنةً مثل سيقان متعفنة لزهور قديمة نُسيت لعدة أيام في الزهريات.

لم تكن لديَّ أية رغبة في التحدث إلى جوبلر، ولم يزعجني هذا الصمت. كنت أنتظر- كل لحظة- أن يبدأ الحديث، لكن شيئًا لم يحدث، فسرنا هكذا، صامتين، في الشوارع، كأننا نتجه إلى الكنيسة حيث سيقام قُداس دفن، وحيث يعرف الإنسان أنه - أمام الموت - تكون كل الكلمات بلا جدوًى تمامًا.

كلما كنا نقترب من النُّزل، من الشوارع، من الحارات، من الأزقة، من الأروقة، كانت تخرج أشباحٌ تنضم إلينا، تمشي بجانبنا صامتةً هي أيضًا.

فضلاً عن ذلك، فربما لم يكن هذا الصمت المطبق ليرجع إلى إمكانية اكتشاف ما كان سيُعرض علينا في النُّزل، ولكن نتيجة هذا التغير المفاجئ للطقس، نتيجة هذا الغطاء المعدني الكثيف الموضوع- من الآن فصاعدًا - على السماء، الذي وضع بذرة هذه النهاية لفترة ما بعد الظهر بسواد شتوي.

لم تكن هناك أية امرأة في هذا النهر من الأجسام الذي كان ينمو شيئًا فشيئًا. لم نكن إلا رجالًا، رجال فيما بيننا. مع ذلك، كان في القرية عددٌ من النساء، كما في كل مكان، شابات، عجائز، جميلات، وقبيحات جدًا، اللاتي كن يعرفن وكن يفكرن. هؤلاء النساء اللاتي أتين بنا إلى العالم واللاتي ينظرن إلينا ونحن ندمره، واللاتي يمنحننا الحياة، واللاتي كانت لديهن- فيما بعد- الكثير من الفرص للندم على ذلك. لا أعرف لماذا- في هذه اللحظة، فيما كنت أسير دون أن أقول شيئًا، وسط كل هؤلاء الرجال الذين كانوا يمشون أيضًا دون أن يقولوا شيئًا - فكرتُ في ذلك، وبشكل خاص فكرت في أمي. وهي غير الموجودة، في حين أني موجود. مَن ليس لها وجه في حين أن لديَّ واحدًا.

في بعض الأحيان، أنظر إلى نفسي في المرآة الصغيرة الموجودة فوق عين الماء الحجرية، في منزلنا. ألاحظ أنفي، شكل ولون عينيَّ، لون شعري، رسم شفتي، وأذنيَّ، لون جلدي. أحاول - بكل هذا - أن أكوِّن الصورة الشخصية للغائبة، التي رأت ذات يوم الجسم الصغير يخرج من بين فخذيها، والتي أخذته في أحضانها وداعبته، والتي منحته الدفء واللبن، التي حدثته، التي منحته اسمًا، التي ابتسمت بلا شك، ابتسمت من السعادة. أعرف أن ما أفعله شيءٌ عبثي. فلن أستطيع أبدًا أن أرسم ملامحها، أن أجتذبها من الليل الذى دُفنت فيه منذ وقت بعيد.

داخل نُزل شلوس، كان كل شيء قد تغير. لم نكن نتعرف على المكان. كما لو أنه غيَّر جلده. دخلنا على أطراف أصابعنا، بلا اجتراء كبير. حتى

هؤلاء الذين كانت لهم- في المعتاد - أشداق كبيرة كانوا يحافظون على انغلاقها جيدًا. كان الكثيرون يلتفون حول أورشفير، معتقدين بلا شك أن العمدة كان يختلف عنهم، وأنه كان سيوضح لهم ما يجب أن يفعلوه، وكيف يتصرفون، ماذا يقولون أو لا يقولون. لكن أورشفير كان مثل الجميع. ليس أكثر ذكاءً ولا أكثر دراية.

صُفت المناضد بجانب الجدار، وغُطيت بمفارش نظيفة عليها عشرات من الكؤوس والزجاجات التي رُصت كجنود قبل المعركة. كانت هناك أيضًا أطباق كثيرة تمتلئ بالنقانق المقسَّمة، وقطع من الجبنة، من لحم الخنزير، من الشحم الخفيف، من الخبز وفطيرة الحلوى، ما يكفي من أي طعام. كانت كل العيون قد انجذبت - دفعةً واحدة- إلى ذلك العرض للغذاء والشراب الذي لا نقابله في منازلنا أبدًا، إلا في بعض حفلات الزواج، حين يجمع بعض الفلاحين الميسورين أطفالهم لإدهاشهم - نوعًا ما- بمعرض كهذا. أيضًا لم تتم - إلا فيما بعد - ملاحظة عشرين قطعة من الورق الموضوعة في إطارات على الجدران. هؤلاء وأولئك أشاروا لها بحركة من ذقونهم، لكن الوقت لم يسعفهم لقول ما هو أكثر، لأن درجات السلم كانت قد بدأت تقرقع، وظهر "لاندرير".

لم يكن يرتدي هذه الملابس الغريبة التي كنا قد اعتدنا عليها بعد كل ذلك، قميص بصدرية، معطف طويل، بنطلون بطيات. كان يرتدي ببساطة ثوبًا كبيرًا فضفاضًا، أبيض، كان يغطي كل جسمه ويصل حتى الأسفل، متحررًا منه عند رقبته الضخمة كما لو أن جلادًا كان قد قطع بمقص كل الرقبة.

نزل "لاندرير" عدة درجات، وهو ما أعطى إحساسًا غريبا بأن الثوب كان طويلاً إلى حد أننا لم نر قدميه: كان يبدو أنه دخل عدة بوصات في الأرض، كما لو أنه تحول إلى شبح. لم يقل أحد كلمة عند رؤيته. واستبق كل رد فعل بأن بدأ الحديث، بصوت رصين، إلى حدٍ ما، ذي نغمة كنغمة المزمار:

"لقد بحثتُ طويلاً عن كيفية شُكركم على استقبالكم وضيافتكم. وانتهيت إلى أنه لابد أن أفعل ما أعرف أن أفعله: المشاهدة، الاستماع، الإمساك بروح الأشياء والكائنات. لقد تجولتُ كثيرًا عبر العالم. ربما لذلك، فعيني ترى أكثر وأذني تسمع جيدًا. وأعتقد - بلا اعتداد - أنني فهمتُ جانبًا كبيرًا منكم، ومن هذه البقاع التي تقيمون فيها. فلتأخذوا أعمالي الصغيرة إهداءً مني. لا تعتبروها أي شيء آخر. سيدى شلوس، أرجوك!".

لم يكن صاحب النُّزل- الذي كان على أهبة الاستعداد- ينتظر إلا هذه الإشارة ليصل إلى الحدث. على نحو سريع جدًا، طاف بكل محيط دائرة قاعة نُزله، حتى ينزع الأوراق التي تخفي الإطارات، كأن المشهد لم يكن غريبًا بشكل كافٍ، في اللحظة التي كانت تدوي فيها أول ضربة برق، حادة وهادرة، تشبه ضربة سوطٍ ضربت على ردف جواد.

كانت العلبة الكرتونية المعطرة تقول الحقيقة: كانت هناك عدة "صور شخصية"، وعدة "مناظر طبيعية". لم تكن تتحدث بشكل خاص عن رسومات ملونة، لكنها تخطيطات رسمت بالحبر، شكلتها- في بعض الأحيان- ريشة رسام عظيمة، وأحيانًا شكلتها خطوط مرهفة الدقة كانت تتجاور، تتطابق، تتقاطع. وكما في الموكب، الدرب الغريب للصليب، مررنا أمام كل الإطارات، لنرها عن قُرب. تهشمت أنوف البعض، مثل جوبلر والمعلم كنويف، اللذين كانت لهما أعين تشبه جلد حيوان الخلد الأوربي؛ وتراجع آخرون - على العكس - إلى الوراء متخذين احتياطهم الكامل. ارتفعت صرخات الدهشة الأولى والضحكات الأولى العصبية عندما تعرف البعض علي أنفسهم في الصور، أو تعرفوا على آخرين. لقد صنع "لاندرير" اختياره. كيف؟ ذلك سر. كان هناك أورشفير، هوسورن، القس بيبر، جوبلر، دورشا، فورتنهو، روبيل، أولريش يعقوب، قواس الكنيسة، شلوس وأنا. بالنسبة للمناظر الطبيعية: ميدان الكنيسة ومحيطه من المنازل

الخفيضة، اللينجن، مزرعة أورشفير، صخور تيزنتال، البابتيستريروك بخلفية كانت فيها مجموعة من أشجار الصفصاف مبتورة الأغصان، فرجة غابة ليشمال، القاعة الكبيرة بنُزل شلوس.

ما كان غريبًا بالفعل، هو أننا كنا نتعرف علي الوجوه والأماكن، ولكن - مع ذلك - لم نكن نستطيع القول إن الرسومات متطابقة تمامًا. كانت - إلى حد ما - كما لو أنها عبرت بشكل واضح عن الأصداء المألوفة، الانطباعات، الدوي الذى كان يأتي إلى العقل، ليكمل فيه الصورة الشخصية التي كانت مقترحة أمامنا بالضبط.

ما إن قام الجميع بجولتهم الصغيرة، حتى بدأت الأشياء الخطرة. أداروا ظهورهم للرسومات، كما لو أنها لم تكن موجودة قط. حدثت حركة كبيرة باتجاه المناضد المحملة بالأطعمة. يمكن الاعتقاد أن معظمهم لم يكونوا قد أكلوا ولا شربوا منذ خمسة أعوام. همجيون. في لمح البصر، اختفى كل شيء مما كان مُعدًا، لكن شلوس كان لابد أن يتلقى أوامر حتى يُحضر دائمًا زجاجات وأطباقًا ممتلئة، لأن البوفيه لم يكن يبدو قد فرغ. تلونت الوجنات، بدأت الجباه في العرق، والأحاديث أصبحت عالية، والشتائم الأولى لطمت الجدران. لقد نسي الكثيرون الآن بلا شك سبب مجيئهم، ولم يعد أحدٌ ينظر إلى الإطارات. كانوا مهتمين فحسب بما يستطيعون وضعه في بطونهم. "لاندرير" نفسه اختفى. ديودم هو مَن أشار لي بذلك.

"بالضبط بعد خطابه القصير، صعد إلى حجرته. ماذا تقول عنه؟

عم؟

عن كل هذا.... "

أشار ديودم بيده إلى معرض الحائط. أعتقد جيدًا أنني رفعت كتفيَّ.

"إن صورتك غريبة، لا تشبهك كثيرًا، ومع ذلك فهي أنت تمامًا، لا أعرف كيف أعبر عن ذلك بما هو أكثر، هيا نرى..."

لم أكن أريد أن أكون رجلاً بغيضًا مع ديودم، تبعته إذن. اندسسنا وسط أجسام هؤلاء وأولئك، بين أنفاسهم، روائحهم، عرقهم، أنفاسهم المثقلة بالنبيذ والبيرة. هاجت الأصوات، والأرواح أيضًا، كان الكثيرون يتكلمون بصوت عالٍ. نزع أورشفير- عن رأسه - قلنسوته المصنوعة من حيوان الخلد الأوربي. كان المعلم كنويف يصفر. "الزونجفروست"- الذى لم يكن يشرب عادةً إلا الماء - سَكِر بالكؤوس الثلاث التي منحته قوة، وبدأ في الرقص. كان ثلاثة رجال يمسكون - وهم يضحكون - بلولا كارباك، ومتسكع بشعر أصفر وسحنة تشبه اللفت، كان يريد ولابد- منذ أن سَكِر- أن يكسر فم شخصٍ ما.

"انظر جيدًا..."، قال لي ديودم. اقتربنا تمامًا من الرسم. فعلت ما كان يطلبه مني. لفترة طويلة. في البداية، دون أن أركز اهتمامي كثيرًا على الخطوط التي قام بمزجها "لاندرير"، ثم، شيئًا فشيئًا، دون أن أفهم لماذا ولا كيف، دخلتُ أكثر فأكثر في الرسم.

في المرة الأولى، حين رأيتها منذ بضع دقائق تقريبًا، لم ألحظ أي شيء. كان اسمي موجودًا بالأسفل، وربما كنتُ قد شعرت ببعض الضيق لذِكره، مما جعلني أحيد برأسي سريعًا، ومررت بأقصى سرعة إلى الرسم التالي. لكن هنا، وأنا أراه مرةً أخرى، وفي أثناء توقفي أمامه وتأملي له، كان كأنه قد امتصني، كما لو أنه كائن حي، لم أكن أرى ملامح، بل خطوطًا منحنية، نقاطًا، لمسات صغيرة، لكنها مساحات كاملة من حياتي. كانت الصورة التي كوَّنها "لاندرير" حيةً بهذا الشكل. هي حياتي. لقد واجهني بنفسي، بأوجاعي، بترنحاتي، بتأوهاتي، بتخوفاتي، برغباتي. كنتُ أرى فيها طفولتي المطفأة، وشهوري الطويلة في المعسكر. كنت أرى فيها عودتي. كنت أرى فيها إيمليا الصامتة. كنت أرى فيها كل شيء. إنها مرآةٌ معتمة. ألقت في وجهى بكل ما قد كنت، بكل ما كنت. إنه ديودم الذى أعادني - مرةً أخرى - إلى الواقع.

"إذن...؟

إنه غريب، أقول له.

ولو أنك تشاهد جيدًا، لو أنك تشاهد بالفعل، فهو كذلك بالنسبة للجميع: ليس بالفعل مخلصًا، لكنه حقيقي جداً"

ربما كان هوسه بالروايات هو ما جعل ديودم ينظر دائمًا عبر المعنى المزدوج للكلمة، وكان ذهنه أكثر حضورًا مني بعشر مرات. لكن ما قاله لي- في ذلك اليوم - لم يكن حماقة. قمتُ ببطء بدورة أخرى على كل الرسومات التي علقها "لاندرير" على جدران النُّزل. المناظر الطبيعية- التي كانت قد بدت لي أيًا ما كانت- بدأت في الانتعاش، وبدأت الوجوه تحكي الأسرار والآلام والقبح، الأخطاء، والاضطرابات، والسفالات. لم ألمس الخمر ولا البيرة، ومع ذلك كنت أترنح، كان رأسي يدور. كان ثمة مكر في تنفيذ صورة جوبلر - علي سبيل المثال- مما جعلنا نرى - فيما لو نظرنا إليها من اليسار قليلاً - وجه رجل يبتسم، بعيد النظر، بملامح هادئة؛ أما لو أخذناها قليلاً إلى اليمين، فإن نفس الخطوط كانت ستحدد تعبيرات الفم، والنظر، والجبين من خلال تكشيرة حاقدة، نوع من تقطيبة مرعبة، متعجرفة وقاسية. أما صورة أورشفير، فكانت تتحدث عن النذالة، والتعريض، والضعف، والقذارة. وتعرض صورة دورشا للعنف، والأفعال الدموية، وما يتعذر إصلاحه. وكانت صورة فورتنهو تنطق بالخسة، والحماقة، والحقد، والحنق. وتقترح صورة بيبر الزهد، والخجل، والضعف. بالنسبة لكل الوجوه، كان فيها نفس الشيء. كانت الصور التي رسمها "لاندرير" تُعرض كأنها كشّافات عجيبة تقود إلى النور الحقائق العميقة للكائنات. كان يمكننا أن نعتقد أنها معرض للنماذج.

ثم كانت هناك أيضًا المناظر الطبيعية! لم تكن توحي إلا بأنها منظر طبيعي. لم تكن تنطق بأي شيء. ففي أفضل الأحوال، يحيلنا ذلك إلى أنفسنا، لا أكثر. لكن هنا، مع الرسم التخطيطي لـ"لاندرير"، كانت المناظر

الطبيعية تتحدث. كانت تحكي تاريخها. كانت تحمل آثار مَن عرفوها. كانت شاهدةً على الأحداث التي دارت هناك. ففي ميدان الكنيسة، على الأرض، بقعة حبر، موضوعة في نفس مكان الإعدام، كانت تذكر بكل الدم الذى سال من ألواس كاتور. عندما قُطع رأسه، وعلى نفس هذا الرسم، عندما كنا ننظر إلى المنازل التي كانت تحيط بالميدان، كانت كل أبوابها مغلقة. كان هناك بابٌ وحيدٌ مفتوح، بوضوح شديد، باب مستودع حصاد أوتو ميشنبوم.. لا أختلق شيئًا، أقسم! على سبيل المثال، في الرسم الذى كان يصور بابتيستربروك، لو ملِنا برأسنا قليلاً لنراه بطريقة غير مباشرة، كنا سنلاحظ حينئذٍ جذور الصفصاف ترسم شكلًا لثلاثة وجوه، وجوه الفتيات الثلاث. وأيضًا الصورة التي كانت تمثل فتحة غابة ليشمال، كان يمكننا أن نجد فيها شكل هذه الوجوه في أغصان أشجار البلوط، فيما لو تعمقنا قليلًا بنظرنا. وإن كنت لم أستطع - لأول وهلة - اكتشاف ما كان يجب أن أراه في بعض الرسومات الأخرى الخاصة بـ"لاندرير"، فذلك- وبكل بساطة - لأن الأحداث التي كان يقترحها لم تكن قد حدثت بعد. ذلك ما تمثله حالة صخور تيزنتال، التي كانت - في هذه الفترة - حيوانات صخرية، لا جميلة ولا قبيحة، بلا تاريخ ولا أسطورة، لكني وجدت ديودم أمام هذا الرسم بالتحديد. كان مسمرًا أمامه، كنُصب في حقل. متحجرًا. كان لابد أن أنطق باسمه ثلاث مرات ليلتفت قليلًا وينظر إليّ.

"ماذا ترى في هذا الرسم؟، سألته.

أشياء، أشياء..."، رد عليَّ وهو يفكر.

لم يُضف شيئًا أكثر. فيما بعد، بعد موته، كان لديَّ الوقت لأفكر بوضوح. فكرتُ مرةً أخرى في الرسم.

كان يمكن أن يُقال لي إن لديَّ رأسًا نشيطًا وعقلاً منهكًا. إن حكاية الرسومات هذه لا رأس لها ولا ذَيل. وإنه لابد أن يكون العقل والأحاسيس مشوشين لنرى في أشياء صغيرة مرتبكة كل ما رأيته. وإنه من السهل فعلاً

أن نعرض لكل هذا حين نفتقر لأي دليل، وإنه لم يعد ثمة من رسم، لقد دمروا كل شيء! نعم، بالضبط، دمروا كل شيء! وفي نفس المساء على الأكثر! ولو لم يكن هذا دليلاً، فماذا يكون إذن؟ لقد مزقوها إلى ألف قصاصة، بعثروها، حولوها إلى رماد، لأنها - وعلى طريقتهم - كانت تقول ما لم يكن يجب أن تقوله على الإطلاق، كانت تكشف حقائق كانوا قد خنقوها.

كان لدي حسابي.

رحلت عن النُّزل حيث كانوا يشربون أكثر فأكثر، وينهقون كبهائم، لكنهم أيضًا كانوا بهائم مرحة، حيث كانت لديهم خمر منعشة. بالنسبة لديودم، فقد بقي حتى النهاية، ومن خلاله عرفت. أخرج شلوس أباريق وزجاجات لمدة ساعة تقريبًا، ثم فجأةً المزيد من المؤونة، مع نهاية عدوانية. لا شك أن الكمية التي اتفق عليها هو و"لاندرير" كانت قد بلغت نهايتها. هي بداية الحدة. عدة كلمات في البداية، بعض الإشارات بعد ذلك، لكن لا شيء من الشر، قليلٌ من العنف، ولكن هنا أيضًا لا شيء خطير. ثم غيَّر التذمر الطبيعة، كما عندما ننزع العجل عن الضرع، فيتأوه في البداية، ثم يستكشف - بعد ذلك- مكانه ويبحث حوله عن تسلية أخرى، سبب صغير للوجود. حينئذٍ، تذكر الجميع لماذا كانوا هناك. استداروا نحو الرسوم، وتأملوها مرةً أخرى. أو بشكل آخر. أو بعيون مفتوحة. من جديد. ثم رأوا. رأوا أنفسهم. بشكل حي. رأوا ما كانوا عليه وما كانوا قد فعلوه. لقد رأوا في رسومات "لاندرير" كل ما كنا قد رأيناه أنا وديودم. وبكل تأكيد، لم يحتملوه. فمَن يحتمله؟

"اضطرابٌ حقيقي! لم أفهم جيدًا مَن الذى بدأ، وليس لهذا - في الحقيقة - أهميةٌ كبيرة، بما أن كل الموجودين اشتركوا، ولم يحاول أحدٌ منهم منع ما حدث. كان القس بيبر ثملاً كخنزير، وكان يغط في النوم تحت منضدة منذ فترة طويلة وهو يمص طرف ثوبه، كطفل يمص إصبعه.

الأكبر سنًا تبعوك بعد قليل وعادوا إلى منازلهم، أما أورشفير، فكان يشاهد العرض دون أن يشترك فيه، ولكن بنكهة من الرضا، وعندما رمى الابن كيبوفت بصورته في النار، بدت عليه سيماء السعادة، صدِّقني! ثم حدث كل شيء بسرعة شديدة كما تعرف، فلم يكن وقت قول "أوف"، حيث لم يعد أي شيء علي الجدران. فقط شلوس كانت هيئته ضجرةً إلى حدٍّ ما".

عندما حكى لي ديودم ذلك،كان في اليوم بعد التالي، ولم يكن المطر قد توقف عن الهطول منذ المساء المشهور. كما لو أن السماء كانت بحاجة إلى القيام بعملية غسيل كبيرة، أن تغسل ملابس الرجال بما أنهم لم يكونوا بقادرين على فعل ذلك بأنفسهم. كانت جدران منازلنا تبدو باكية، وفي الشوارع عدة جداول داكنة بالطين وزبل الحظائر كانت تُشكل مجرًى على الأرصفة، تحمل حصًى صغيرًا، وقاذورات، قشورًا، وأوساخًا. كان ذلك المطر- من جهة أخرى - غريبًا، هذا التدفق المستمر الذى كان يأتي من سماء لم نعد نرى فيها حتى اللحية الكثيفة، المتسخة والمبتلة بالسحب التي كانت تمسك بها، فقد كانت مختفية بشكل دائم. كنا ننتظره منذ عدة أسابيع. منذ عدة أسابيع والقرية كانت تُشوى بالحرارة، ومعها الأجسام، والأعصاب، العضلات، الرغبات، القُوَى، ثم حدثت العاصفة، رشاش العاصفة الذي رد بطريقة هائلة على رشاش الرجال، على الهيجان الحادث في نُزل شلوس، علي المذبحة الساخرة للرسوم، لأن السماء التي أصبحت أشد وطأةً- لحظة أن كانت تُؤدى هذه التجربة المسرحية الصغيرة لـ"الإرينيه"، وحيث كنا نشعل عدة رسوم قبل أن نقتل الرجل فيما بعد- قد انشقت نصفين، من الشرق إلى الغرب، علي كل اتساعها، وصبت، كمصران وأحشاء، مطرًا مدرارًا ضبابيًا، كثيفًا وثقيلاً كماء قذر.

كان شلوس قد أخرج الجميع إلى الباب، وفهم العمدة، وتلاطم كل هذا التحرر الجميل تحت المطر المدرار والبرق، فتمدد البعض بطوله تمامًا،

يقلد السباحة في الأغادير، عاويًا كتلميذ بلا تحفظ، ملقيًا في وجه الآخرين بقبضات من الطين كما لو كانت كرات من الثلج.

يرضيني الاعتقاد بأن "لاندرير" تأمل المشهد، من خلف نافذته. أتخيل ابتسامته الصغيرة. كانت السماء تجعله سعيدًا، وكل ما كان يراه تحت قدميه، هذه المخلوقات المبتلة المترنحة التي تتبادل الإهانات وضحكاتهم تتصادم، كلماتهم المتلعثمة، وتدفق بولهم، لم تؤد إلا إلى جعل صورهم المدمرة أكثر حقيقيةً أيضًا. هي - على نحوٍ ما - وسيلة للانتصار، بالنسبة له. تكريس لسيد اللعبة.

لكن هنا، من الأفضل ألا يكون ثمة سبب أبدًا. فهو أمر ستدفعون ثمنه- فيما بعد- غاليًا.

ـ ٣٥ ـ

اليوم التالي، كان اليوم التالي للسُّكر. حالة يطبل فيها الرأس بمفرده تمامًا، وحيث لم نعد نعرف كثيرًا عما إذا كان ما نتذكره قد حلمنا به أم كنا قد عشناه. أعتقد أن معظم هؤلاء الذين كانوا غاضبين، كان لابد أن يجدوا أنفسهم حيوانات بالفعل، ربما هادئين، لكن أيضًا بُلهٌ تمامًا. لا لأنهم أحسوا بالعار إزاء "لاندرير"، لا، فمن هذا الجانب، كانت عقيدتهم قد تشكلت ولن يغيرها أي شيء، ولكن بإعادة التفكير في ضراوتهم إزاء قصاصات ورق بسيطة، فلم يكن لذلك أن يجعل كل هذا رجوليًا تمامًا.

تكفل بهم المطر. فلن يتمكنوا من الخروج من منازلهم، ولا أن يلتقوا، ولا أن يتحادثوا، ولا أن يروا في نظر الآخرين ما كانوا قد فعلوه بأنفسهم. وحده العمدة مَن تصدى للعواصف التي كانت تهطل متلاحقةً كما في تمام شهر أبريل. خرج مساءً وذهب مباشرةً إلى النُّزل. وصل إليه مبتلاً حتى عظامه، حتى أن شلوس فوجئ من رؤية الباب ينفتح. فمنذ بداية النهار، كان قد ظل مغلقًا على الدوام. من جهة أخرى، فلم يكن - هو نفسه - قد تمنى قط أن ينفتح. لقد أمضى ساعات في تنظيف الفساد، في غسله تمامًا، والمحافظة على لهب كبير في المدفأة ليجفف البلاط ويبدد الهواء

الزنخ. واستطاع ذلك بالفعل. استعاد كل شيء شكله المعتاد، القاعة، المناضد، الجدران. كما لو أن شيئًا لم يحدث الليلة السابقة. وهنا، دخل أورشفير. نظر إليه شلوس كوحش، وحش واجه الماء، لكنه مع ذلك وحش. نزع العمدة تلفيحة الراعي الكبيرة التي كانت مبهرجة، وعلقها في مسمار بالقرب من المدفأة، وأخذ منديلاً مكرمشًا - أو بالأحرى متسخًا - ليمسح وجهه، تمخط فيه، طواه، وأدخله في جيبه، ثم أخيرًا استدار إلى شلوس الذي كان ينتظر ومرفقه على المكنسة.

"لابد أن أتحدث إليه. اذهب للبحث عنه".

كان ذلك أمرًا بشكل واضح. ليس صعبًا على شلوس أن يحدد مَن أو ماذا. لم يكن في النزل إلا هو و"لاندرير". وككل صباح، كان قد وضع له الصينية أمام باب غرفته - فطيرة حلوى مستديرة، بيضة نيئة، وعاء ماء ساخن. وككل يوم، كان قد سمع - بعد قليل - خطوات على السُّلم، والباب الصغير ينفتح في الخلف. هنا كان ضيفه يخرج ليزور حماره وحصانه في حظيرة الأب سولزنر، حيث كان جدارها يشترك مع النُّزل. ثم، بعد عدة لحظات أيضًا، ينفتح الباب مرةً أخرى، ويقرقع السُّلم من جديد، وهذا كل شيء.

العمدة في قرية كقريتنا، شخصٌ ذو حيثية. ليس صاحب نُزل مَن يناقشه فيما يطلبه منه ليفعله. صعد شلوس، إذن. طرق على باب الغرفة. وجد نفسه وجها لوجه مع ابتسامة "لاندرير"، وعرض عليه الطلب. ابتسم "لاندرير" أكثر، إلى حدٍ ما أيضًا، ولم يجب بشيء، أغلق الباب. نزل شلوس.

"أعتقد أنه سيأتي"

هذا ما قاله للعمدة. وهذا ما رد به أورشفير: "حسنًا شلوس، الآن، أعتقد أنك مشغول بما فيه الكفاية في المطبخ، أليس كذلك؟"

صاحب النُّزل غير الأحمق غمغم بالإيجاب. أخرج العمدة من جيبه الصغير مفتاحًا فضيًا، متقن الصنع ومعقدًا، وبه فتح باب القاعة الصغيرة، قاعة الـ"إيرويكنز برودشاف".

"أليس معك هذا المفتاح؟"، سألتُ شلوس عندما حكى لي كل ذلك.

بكل تأكيد ليس معي! أيضًا لم أدخل قط إلى هذه الحجرة! لم أشغل رأسي بما فيها. لا أدري حتى كم هناك من مفاتيح ولا مع مَن غير العمدة، ثم كنوبف، وبلا شك جوبلر، حتى هو، فلست متأكدًا من شيء".

منذ قليل أتى شلوس إلى منزلنا. كحَت الباب كحيوان. كان يتوقع أن الليل سيكون كثيفًا كالزفت. أفترض أنه حك جدران المنازل دون أن يُصدر ضوضاء. لا سيما أنه لم يكن يريد أن يُرى. هي المرة الأولى التي كان يعبر فيها عتبتنا. سألتُه عما كان يريده بالفعل. فيدورين وهي تلمحه نظرت له كبعرة فأر. لا تحبه. بالنسبة لها، هو لص يبيع دائمًا بأسعار عالية ما يشتريه بأبخس الأسعار. تدعوه "شلوشيكاي"، وهو يعني- في لغتها الغابرة - لعبة من الكلمات غير قابلة للترجمة فيما بين اسم صاحب النُّزل والاسم الذي يعني "المستغل". تعللت بسرعة بأنها كان لابد أن تُنيم بوبشيت لتتركنا بمفردنا. عندما ذكرت اسم بوبشيت، رأيت في عين صاحب النُّزل وميضًا حزينًا يلمع، وتذكرت طفله المتوفَّى، ثم انطفأ الوميض، بسرعة شديدة.

"كنت أود أن أتحدث معك، يا بروديك. كان لابد أن أتحدث إليك، لأثبت لك - مرةً أخرى - أني لست ضدك، وأني لست إنسانًا سيئًا. أشعر تمامًا بأنك لم تصدقني فعليًا المرة السابقة. سأقول لك ما أعرف من أشياء. ستفعل بها ما تريد، لكني أنبهك، لا تقل إنك علمتها مني، وإلا فسأنكر كل شيء. سأقول إنك تكذب. سأقول إنني لم أقل ذلك قط. سأقول أيضًا إنني لم آتِ إليك مطلقًا. مفهوم؟"

لم أجب شلوس بشيء. لم أكن قد طلبت شيئًا منه. هو الذي أتى. وكان عليه أن يستمر، دون أن يحاول الحصول مني على أي شيء.

أخيرًا نزل "لاندرير" من حجرته، وأدخله العمدة إلى القاعة الصغيرة لجماعة الأخوية. ثم أغلق الباب من خلفهما.

"وأنا ظللتُ في مطبخي، كما طلب مني أورشفير. لكن ما يجب أن تعرفه، هو أن الدولاب الذي أضع فيه الجردل والمكانس مجوَّف في الحائط، وعمقه ليس سوى ألواح خشبية، لم تكن مضبوطة بالشكل الكافي، وقد تآكلتها الأيام لدرجة أنها فتحت فيها فتحات كبيرة كعيون. ويطل عمق الدولاب هذا على القاعة الصغيرة. كانت جيرت تعرفه. وأنا أعرف أنها - في بعض الأمسيات - كانت تسمع ما كان يحدث به نفسه وما كان يفعله، حتى إن لم تشأ قط أن تعترف لي، لأنها كانت تظن جيدًا بأن غضبًا أسود سينتابني".

في ذلك اليوم، فعل شلوس إذن ما لم يكن مسموحًا به حتى ذلك الحين. لماذا؟ إنها غريبة جدًا تصرفات البشر، وأحيانًا، سيمكن زعزعة الأذهان، دون أن نجد أبدًا التفسير السليم. ربما كان لدى شلوس شعور بأنه هكذا يصبح إنسانًا، أن يتجرأ على شيء ممنوع، وأن يمر بمحنة، وأن يغير المعسكر نهائيًا، وأنه يفعل ما هو صحيح بالنسبة له، أو - بكل بساطة- أن يُرضي فضوله المكمم لأمد طويل؟ كان لا يزال يلصق أذنه بالألواح، مثبتًا جسمه الضخم وسط مكانس، ومجارف، ودلاء، وخرق قديمة متربة.

"كانت محادثتهما غريبة، تعرف، يا بروديك! غريبة جدًا... في البداية اعتقدت أنهما كانا متفاهمين بشكل جيد جدًا، وأنهما لم يكونا بحاجة لكثير من الكلام، وأنهما يتحدثان نفس اللغة. بدأ العمدة بقوله إنه لم يأت ليعتذر، وأن ما حدث الليلة الماضية كان - بلا شك - مثيرًا للغضب، لكنه كان - في الواقع، إلى حدٍ ما - عاديًا. لم يتحرك "لاندرير".

"إن أهل قريتنا - إلى حدٍ ما - خشنون، كما ترى"، أكمل العمدة. "فلو أن لديهم جرحًا صغيرًا ووضعتَ فيه فلفلاً أسود، فسيكيلون لك الضربات بأرجلهم، ورسوماتك كانت قبضات ممتلئة بالفلفل الأسود، أليس كذلك؟"

- الرسومات لم تكن لها أية أهمية، لا تفكر فيها، سيدي العمدة؛ أجاب "لاندرير". فلو أن أهل قريتكم لم يدمروها، لفعلتها بنفسي.."

في تلك اللحظة من تقريره- الذي كان يتلوه عليَّ كما لو كان يحفظه عن ظهر قلب - قام شلوس بوقفة: "ما يجب أن أخبرك به وبشكل كامل، يا بروديك، أنه كان ثمة صمتٌ مُطبق بين كلام كل منهما. وبالنسبة لكل سؤال، فلم تكن الإجابة لَتأتي مباشرة، والعكس. كان كل من هذين الاثنين يزن الآخر، بلا شك. لعبتهما الصغيرة جعلتني أفكر فيما يفعله لاعبو الشطرنج، خارج نقلاتهم، التي يتأملونها وينفذونها. لا أدري ما إذا كنتُ أفهم جيدًا؟"

أومأتُ بإشارة من رأسي لم تكن تدل على شيء. نظر شلوس إلى يديه، اللتين كانتا تلتفان على بعضهما، وأكمل. كان أورشفير هو الذي يطرح السؤال:

"هل لي أن أسأل حضرتك عن سبب مجيئك لقريتنا، بالضبط؟

- بدت لي قريتكم أنها ذات أهمية.

- لكنها بعيدةٌ عن كل شيء.

- ربما، لهذا السبب بالضبط. كنت أود أن أرى كيف يكون البشر، بعيداً عن كل شيء.

- لقد أصابتنا الحرب هنا كما في أماكن أخرى.

- "الحرب تخرب وتكشف".....

- ماذا تقصد؟

- لا شيء، سيدي العمدة، إنه بيت شعر مترجم من شعر غابر.

- الحرب ليس بها شيء من الشعر

- بكل تأكيد، بكل تأكيد..

- أعتقد أنه من الأفضل أن ترحل من هنا. أنت توقظ، ربما رغمًا عنك، أشياءَ نامت، وهذا لن يؤدي إلى شيء جيد. ارحل لو سمحت.."

فيما بعد، لم يتذكر شلوس كلمة بكلمة، لأن أورشفير ترك الجمل القصيرة لتعرجات لا منتهية، حديث مضطرب كان يتوه فيه. لكني أعرفه، ماكر بما يكفي لألاَّ يتقدم على غير هدًى، وحتى يزن جمله وأفكاره، رويدًارويدًا، تظاهر بعدم اليقين والاضطراب.

"كان مكارًا - اعترف لي شلوس - لأنه في نهاية تقريره، كان ثمة تهديدات دون أن تكون صادرةً منه تمامًا. كان يمكن سماع كل شيء ونقيضه. وإذا ما لامه "لاندرير"، كان يمكنه أن يقول دائمًا إنه لم يفهم جيدًا. تواصلت لعبتهما الصغيرة لوقت أيضًا، لكنني كنت قد شعرت كأني مخدرٌ في دولابي وكنت أفتقد الهواء. كانت أذناي تطنان. وكنت أشعر بأن هناك عدة نحلات تطير من حولي. أشعر بالدم يفور في رأسي، وأحيانًا يسفع بقوة. يبقى أنني - في لحظةٍ ما - سمعتهما يقفان، ويتوجهان نحو الباب. وقبل أن يفتحه، قال العمدةً أيضًا بضع كلمات، ثم وضع السؤال الأخير، الذي كان الأكثر تأثيرًا فيَّ، لأن صوته كان قد تغير، وهو الذي يتأثر شعوريًا بأقل الأشياء، وشعرت بخوفٍ ما في نبرته.

"لم نعرف حتى اسمك...

- أية أهمية الآن... اسم. لا شيء، من المحتمل أن أكون شخصًا ما، أو كل الناس، أجاب "لاندرير".

- كنت أود أيضًا أن أسألك شيئًا، رد أورشفير فيما بعد بثوان طويلة، شيئًا يشغلني منذ فترة طويلة....

- أرجوك، سيدي، العمدة.

- هل أُرسلت إلى هنا بواسطة شخص ما؟"

ضحك "لاندرير"، أنت تعرف ضحكته، ضحكته الصغيرة، تقريبًا ضحكة نسائية. أخيرًا أجاب، بعد وقت طويل جدًا جدًا:

"كل شيء يعتمد على ما تعتقد، سيدي العمدة، يعتمد على ما تعتقد، وأترك لك وحدك الحكم..."

ثم ضحك مرةً أخرى. وهذه الضحكة، أقسم لك يا بروديك، أشعرتني بالبرد في ظهري".

كان شلوس قد أفرغ حقيبته. كان يبدو عليه الإنهاك، وفي نفس الوقت الراحة، بعد أن اعترف لي بأسراره. ذهبت لأبحث عن كأسين وزجاجة عرقي.

"أتصدقني، يا بروديك؟ سألني، بشك قلق، بينما كنت أملأ الكؤوس.

- ولمَ لا أصدقك، يا شلوس؟"

سرعان ما أحنى رأسه وتجرع كأسه بسرعة.

سواء إن كان شلوس قد حكى لي الحقيقة أم لا، وإن كانت المحادثة التي أخبرني بها قد حدثت أم لا، بالمفردات الدقيقة التي دونتُها أم بمفردات أخرى، مشابهة على الأقل، فالحقائق الأكيدة هي أن "لاندرير" لم يرحل عن القرية. المؤكد أيضًا، فيما بعد بخمسة أيام، عندما توقف المطر، وظهرت الشمس من جديد في السماء، وبدأ هؤلاء وأولئك في الخروج من منازلهم، أنهم لم يستعيدوا - من كل المحادثات- سوى الجزء الأخير من الحوار المتبادل بين العمدة و"لاندرير". كان ذلك أسوأ من الصوفان الجاف، الذي لا يتطلب سوى أن نشعل فيه النار! ولو كان لدينا قس يمتلك عقله، لاستطاع - بكلمات منتقاة بعناية، وبقليل من الفَهم السليم - أن يلقي بدلاء من الماء المقدس ليطفئ كل ذلك. لكن الهذيانات المخمورة لـ بيبر ألقت أيضًا، على العكس، كثيرًا من الزيت على النار، إلى حدٍّ ما، عندما رطن على المنبر، الأحد التالي، بشيء غير محدد يخص "المسيح الدجال" و"يوم القيامة". لا أعرف مَن الذي نطق بكلمة "الشيطان"، أكان هو أم آخر، لكنها كانت تتوافق مع الأغلبية والتقطها كل منهم. وإذا كان "لاندرير" لم يود أن

يقدم اسمه، فقد وجدت له القرية اسمًا ما. على المقاس. كان يُستخدم من عدة قرون، لكنه لم يبلَ، ومتميز دائمًا. فعال. قاطع.

الحماقة مرضٌ يتلاءَم والخوف. كل منهما يغتذي بالآخر، مُولِّدين غرغرينا لا تطلب إلا أن تنتشر. عظة بيبر تمتزج بأقوال قالها "لاندرير"، يا له من خليط رائع!

هو أيضًا لم يكن يتشكك في شيء. واصل نزهاته الصغيرة، حتى يوم الثلاثاء 3سبتمبر، لا يبدو عليه الاندهاش حين لا يبادله أحد السلام الآن، وكثيرون سيرسمون علامة الصليب ما إن يتجاوزهم. ما عاد يتبعه أي طفل. يخافون عندما يلتقونه، كانوا يهربون عندما كانوا يلمحونه على بعد مائة متر.

أكثرهم وقاحة رموه أيضًا ذات مرة ببعض الطوب.

كل صباح، كان يذهب إلى الحظيرة، كعادته، يزور حصانه وحماره. لكنه- رغم التعهدات والمبالغ المدفوعة مقدمًا للأب سولزنر- تأكد أن حيواناته قد أهملت. كان المسقى فارغًا. المعلف أيضًا. لم يتذمر، قام باللازم بنفسه، داعبهما، ضمد جراحهما، حادثهما في آذانهما، وطمأنهما. أبدت الآنسة جولي أسنانها الصفراء وحرك السيد سقراط رأسه من أعلى لأسفل، وهو يحرك ذيله القصير. ذلك، كان مساء الاثنين. رأيتُ المشهد بنفسي بينما كنت عائدًا بعد يوم في الغابات. لم يرني "لاندرير". كان يدير لي ظهره. أوشكت أن أدخل الحظيرة، أن أعطس، أن أقول كلمة، لكنني لم أفعل. ظللتُ على العتبة. الحيوانان، رأياني. وضعا أعينهما الضخمة الذابلة عليّ. بقيت لحظة. كنت أتمنى أن يشير أحدهما إلى وجودي، أن يجنح قليلًا، يُصدر زمجرةً ما، لكن لا شيء. لا شيء على الإطلاق. كان "لاندرير" يواصل مداعبتهما، وهو يدير لي ظهره. أكملت طريقي.

ـ ٣٦ ـ

ديودم هو مَن أتى يبحث عني في اليوم التالي. لاهثًا، وقميصه مفكوك الأزرار، وبنطلونه غير منضبط، أشعث الشعر.

"تعال! تعال بسرعة!"

كنت مشغولًا في تجويف نعال لـ بوبشيت من مكعبات من شجر الصنوبر الأسود. كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا.

"تعال إذن، أقول لك، تعال لنرَ ما فعلوه!"

كان في هذه الحالة الهلعة التي لم يكن ثمة وقت لمناقشتها. وضعت فأرتي، نفضتُ بضربة من يدي نشارة الخشب الجديدة التي وقعت عليَّ، مثل زغب الإوز عندما ننتفه، ثم تبعته.

طوال المسافة، لم يقل ديودم لي شيئًا. كان يجري كما لو كان مصير العالم يعتمد عليه، وكنتُ أجد صعوبة في اللحاق بساقيه الطويلتين. كنت أرى جيدًا أننا كنا نتجه نحو منحنى نهر ستوبي، الذي يحيط بزراعات البقول في مستنقع سيبستيان أورانهم، المنتج الأكبر للكُرنب، للفت والكراث في كل وادينا، لكنني لم أكن أفهم السبب. ما إن مررنا بزاوية المنزل

الأخير، حتى رأيت. رأيت تجمهرًا صاخبًا على حافة النهر. كان هناك أطفال، رجال، نساء، حوالي مائة فيما أظن، كانوا يديرون لنا ظهورهم وينظرون نحو الماء. حينئذٍ جُن قلبي، وفكرت- بقليل من البلاهة - في بوبشيت وفي إيمليا. أقول بقليل من البلاهة لأني كنت أعرف أنهما في المنزل. كانتا هناك عندما أتى ديودم للبحث عني منذ بضع لحظات. فلن يمكن أن تكونا معنيتين إذن بالمصيبة التي حلت. تعقَّلتُ وتقدمت.

كل هذا الحشد لم يكن يقول شيئًا، كان يقف صامتًا، وعلى الوجوه - التي اندسستُ فيما بينها تدريجيًا لأقترب من الحافة- لم يكن ثمة أي تعبير. بالتأكيد كان الأمر غريبا تمامًا، هذه الملامح التي لم تكن تعبر عن شيء، هذه العيون التي لم تكن تقوم إلا بالمشاهدة، والتي لم تكن تطرف، وهذه الأفواه التي كانت لا تزال مغلقة، وهذه الأجسام التي كنتِ أدفعها بقوة، والتي كانت تسمح لي بالمرور، وبأن أعبرها أيضًا، كأنها لم تكن تملك أية قوة، والتي - فيما بعد - استعادت شكلها ووضعها الأول، كتماثيل صغيرة متأرجحة.

لم أعُد إلا على بُعد ثلاثة أو أربعة أمتار من الحافة، ربما، عندما سمعت الأنين. كان ذلك كأغنية حزينة ورتيبة، بلا كلام، تدخل أذنيك وتُبرد دماءك، مع أن الله يعرف أن الجو حار ذلك الصباح، لأن الشمس- بعد الاغتسال الكبير وكرنفال الأعاصير والبروق - استعادت حقوقها. لقد عبرت تقريبًا كل التجمهر. أمامي، لم يكن ثمة إلا صبي دورفر، الابن الأكبر، وبجانبه أخوه الأصغر، شومتي، الذي كان مختلًا عقليًا، وعلى كتفيه المائلتين - إلى حدٍ ما - ثمة رأس غير متسق، كبير كقرعة، وأجوف كجذع شجرة ميتة. أزحتهما بلطف وأنا أنظر.

هنا، حيث كان يحتشد هذا الجمع، هو المكان الأعمق من نهر ستوبي. نحو ثلاثة أمتار، لكن الحكم صعب بعض الشيء لأن الماء صافٍ ونقي لدرجة أننا نرى القاع، كما لو كنا نستطيع أن نلمسه بإصبعنا.

لقد رأيتُ كثيرًا من البشر يبكون في حياتي. رأيت كثيرًا من الدموع تنهمر. رأيت كثيرًا من الكائنات المسحوقة كثمرات جوز بسيطة يكسرها المرء بمساعدة حصاة كبيرة، ولن يصبحوا فيما بعد إلا حطامًا. في المعسكر، كان ذلك دأبنا اليومي. لكن على الرغم مما استطعت رؤيته من مصائب وأحزان، لو كان لي أن أختار عبر المعرض اللانهائي للوجوه المعبرة عن المعاناة، للكائنات التي تدرك فجأةً أنها فقدت كل شيء، وسُلب منها كل شيء، وأنها لم تعد تملك شيئًا، ولم تعد شيئًا، فهو وجه "لاندرير"- ذلك الصباح، ذلك الصباح من سبتمبر، على حافة نهر ستوبي- الذى كان يفرض نفسه عليّ.

لم يكن يبكي. لم يكن يأتي بإشارات كبرى. كان يبدو كأنه قُطع إلى اثنين. من جهة كان هناك صوته، عويله الذي لم يكن يتوقف، والذي كان يشبه غناءً جنائزيًا، شيء ما فيما وراء الكلمات، فيما وراء كل لغة، يأتي من ثنايا الجسد والروح، إنه صوت الألم. ثم، من ناحية أخرى، كانت هناك ارتعاشاته، ارتجافاته، رأسه المستدير الذي يذهب ما بين الحشد والنهر، وما بين النهر والحشد، وجسده الدامي في رداء المنزل المصنوع كله من قماش البروكار، الفاخر، البعيد تمامًا عن المشهد، وأهدابه، التي كانت مبتلة بالطين والماء، وتتلاطم بساقيه القصيرتين وهي ترشح.

لم أفهم على الفور لماذا كان "لاندرير" في هذه الحالة، لماذا كان يبدو كشخص آلي محبوس في حركة مستمرة من الجنون العظيم. أمعنت النظر فيه، على أمل أن أفهم شيئًا وأنا أنظر إلى وجهه، إلى فمه المفتوح قليلاً، إلى مئزر الوزير المفوض الذي يرتديه، إلا أني لم ألحظ في الحال ما كان يمسكه في يده اليمنى، ما كان يشبه شعرًا كثًا طويلاً وبلون باهت إلى حدٍ ما.

كان شعر ذيل حصانه، وهذا الشعر الطويل كان يغوص في الماء، على شكل حبال مركب، لم تزل مربوطة بالرصيف، لسفينة كانت غارقة تمامًا.

عبر سطح الماء، كنا نلحظ كتلتين كبيرتين هادئتين، ضخمتين، تحركهما التيارات المائية بهدوء شديد. كانت الصورة غير واقعية، تقريبًا هادئة، للحصان الكبير وللحمار الغريقين، مفتوحي العيون، كانا يعومان بخفة في المياه. كان وبر الحمار تزينه، لا أعرف بناءً على أية ظاهرة، آلاف من فقاعات الهواء الضئيلة، الجلية واللامعة كلؤلؤ، وعرف الحصان، الغزير والمنساب، يختلط بالطحالب التي كانت تندفع في هذه المنطقة على هيئة أشرطة عريضة، لدرجة أنه كان يمكن هنا أن نقرر- بتأمل المخلوقين الأسطوريين - أننا سنصل إلى مشهد رقص خيالي. دفعتهما دوامة إلى القيام بحركة دائرية، من الفالس البطيء، بلا موسيقى سوى الموسيقى المختلة والمخلة بالحياء فجأةً، من غناء شحرور كان ينبش بمنقاره الداكن الأرض الرخوة للمنحدر ليستخرج منها ديدان حمراء كبيرة. للوهلة الأولى، كنت قد اعتقدت أن حركة لا إرادية كبرى كانت قد جعلت الحمار والحصان يتقوسان قليلاً على نفسيهما، مع تجميع أرجلهما الأربع على بعضها البعض، كما التكور، التدحرج على شكل كرة، حتى لا يُقدما إلى الخطر أو البرد إلا ظهرًا مستديرًا. لكنني، في الحقيقة، لاحظت أن أرجلهما كانت معاقة ومربوطة فيما بينها، بقوة، بخيط رفيع.

لم أكن أعرف ماذا أفعل، ولا ماذا أقول. وحتى لو كنت تحدثت، فلم أكن متأكدًا من أن "لاندرير" كان سيسمعني، فقد كان - إلى هذا الحد - محبوسًا في نواحه. كان يحاول جذب الحصان إلى خارج المياه، دون نجاح واضح، فثقل الحيوان كان يتجاوز قدرته. لم يساعده أحد. لم يتحرك أحدٌ من أجله. والحركة الوحيدة للجمع المحتشد كانت حركة تقهقر. كان قد اكتفى من المشاهدة. وبدأ الجميع في الرحيل. وخلال وقت قصير لم يعد هناك أحد، عدا العمدة، الذي وصل بعد الجميع، يصحبه "الزونجفروست" الذي كان يجر نير ثيران، والذي كان قد تأمل المشهد دون أن يبدو عليه الاندهاش، سواء لأنه رآه من قبل، أو لأنهم أخبروه به، أو لأنه كان متواطئًا.

لم أكن قد تحركت. نظر إليَّ أورشفير بريبة.

"ماذا تنوي أن تفعل، يا بروديك؟"

لم أكن أعرف لماذا يطرح عليَّ هذا السؤال، ولا بماذا كنت أستطيع أن أجيب عليه. توجه إليَّ العمدة دون حتى أن يأخذ في الاعتبار وجود "لاندرير".

"حصان وحمار، لن توثق أقدامهما من تلقاء أنفسهما"، أوشكت أن أقول له، لكني فضلت التزام الصمت.

-"سيكون من الأفضل أن تفعل مثل الآخرين، أن تعود إلى منزلك"، قال أورشفير.

في الحقيقة، كان محقًا. فعلت ما قاله لي، لكني كنت على بعد بضعة أمتار عندما ناداني.

"بروديك! أرجعه إلى النُّزل، لو سمحت"

لقد نجح "الزونجفروست"، لا أدري كيف، في الإفلات من "لاندرير". كان يقف جامدًا على الحافة، يداه متدليتان، يشاهد المتلعثم يربط ذيل حصانه بحزام جلدي كبير مربوط بنير الثيران. وضعتُ يدي على كتفه، لكنه لم يُصدر رد فعل. حينئذ وضعت ذراعي تحت ذراعه، وأخذت في السير. استسلم كطفل. كان صامتًا الآن.

لا يستطيع رجل بمفرده أن يقوم هكذا بتدبير ذلك لحيوانين. بل لن يستطيع ذلك رجلان. فهذه الضربة عمل عدة أشخاص. إنها- فضلاً عن ذلك - حملة مقدسة! فدخول الحظيرة، ليلاً بلا شك، ليس عملاً كبيرًا! ولا إخراج الحيوانين، فلم يكونا متوحشين قط، بل بالأحرى من النوع الودود والأليف. ولكن - فيما بعد، بالقرب من النهر، لأن ذلك ما كان لابد أن يحدث هناك- جعلهما ينامان على جنبيهما، أو قلبهما، والإمساك بأقدامهما، وضمها وربطها بقوة، ثم حمل الحيوانين أو سحبهما وإلقائهما

في الماء، لم يكن ذلك عبثًا. فبالتفكير في ذلك جيدًا، أعتقد أنه لم يكن يستطيع ذلك أقل من خمسة أو ستة رجال، أشداء، شبان لا يخافون أيضًا من أن ينالوا ضربة حافر أو أن يتم عضهم.

لم تؤثر وحشية هذه الميتة في أحد. ادعى البعض أن مثل هذه الحيوانات لا يمكن أن تكون إلا مخلوقات شيطانية. وكان البعض يهمس أيضًا أنهم كانوا قد سمعوهما يتحدثان. لكن الكثيرين ادعوا- بشكل خاص- بأن ذلك ربما كان هو الطريقة الوحيدة للتخلص من "لاندرير"، وأن يروه يهرب بعيدًا عن قريتنا، وأن يعود إلى هناك من حيث أتى، أي من المكان الذي لم يكن يريد أحد معرفته. بالتأكيد، كانت هذه الهمجية الحمقاء- فضلًا عن ذلك - متناقضة، بما أننا، بقتلنا مطيتيه - كي نُفهمه أنه كان لابد أن يرحل - سنحرمه من الوسيلة الوحيدة السريعة للرحيل عن القرية. لكن قتلة الدواب أو البشر نادرًا ما يفكرون في حركاتهم.

ـ ٣٧ ـ

أنا، لم أقتل قط حميرًا ولا خيولاً.

فعلتُ الأسوأ.

نعم، الأسوأ.

في الليالي، لم أقم إلا بالتجوال على حافة "الكازيرسكفير".

أستعيد أيضًا عربة القطار.

أستعيد الأيام الستة في عربة القطار.

واستعدت الليالي الست، ومن بينها، ككابوس لم يضعف قط، خامسة هذه الليالي.

أصعدونا إلى محطة س،بعد أن فصلونا إلى صفين، كما قلت من قبل. جميعنا "فرمدر". البعض ثري، البعض فقير. البعض أتى من المدينة، وآخرون من الأرياف. سرعان ما تلاشت التمايزات. دفعوا بنا إلى داخل عربات قطار كبيرة بلا نوافذ. على الأرضية الخشبية كان هناك بعض القش، لكن هذه العربة كانت بالفعل قذرة. كان يمكن - في الوقت العادي - أن يجلس فيها نحو ثلاثين شخصًا، متداخلين في بعضهم

البعض. أدخل الحراس أكثر من الضعف. كان ثمة صرخات، تأوهات، اعتراضات، بكاء. سقط رجل عجوز. بعض مَن كانوا قريبين منه حاولوا أن يرفعوه، لكن الحراس كانوا لا يزالون يدخلون سجناء آخرين، مما نتج عنه حركات متقطعة وغير متوقعة، وعنف شديد، وداس العجوزَ هؤلاء أنفسهم الذين كانوا يريدون إنقاذه.

كانت حالة الوفاة الأولى في عربة القطار.

فيما بعد بعدة دقائق، حُملت الشحنة، أغلق الحراس الباب الحديدي الكبير وأوصدوا القفل. انقض الليل علينا. لم يعد يتسرب ضوء النهار إلا عبر بضعة شقوق رفيعة. ثم بدأ القطار في التحرك. حدثت رجة كبيرة جعلتنا نلتصق أكثر في بعضنا البعض. وبدأت الرحلة.

خلال هذه الظروف، تعرفتُ على الطالب كلمر. وضعتنا الصدفة جنبًا إلى جنب. كان كلمر إلى يميني، بينما إلى يساري، كانت هناك امرأة شابة، امرأة شابة تمامًا، وطفلها ذو بضعة شهور الذي كانت تحتضنه دائمًا. كنا نشعر بكل شيء يخص الآخر، حرارته، روائحه، رائحة جلده، رائحة شعره، رائحة عرقه، رائحة ملابسه. لم نكن نستطيع التحرك دون تحريك الآخر. لم نكن نستطيع الوقوف، ولا التنقل. رجرجات عربة القطار كانت تُلقي بنا أكثر قليلًا على بعضنا البعض. تحدث الناس بصوت خفيض، في البداية، ثم لم يعودوا يتحدثون على الإطلاق. كان ثمة دموع، ولكن قليلة جدًا. كنا نسمع أحيانًا صوت طفل يدندن بأغنية، لكن- معظم الوقت- كان الصمت، لا شيء إلا الصمت، وصوت محاور واحتكاك العجلات الحديدية على القضبان. أحيانًا، كانت العربة تسير لعدة ساعات. وفي بعض الأحيان، كانت ثابتة، لا نعرف أين ولا لماذا. خلال ستة أيام، لم ينفرج الباب الكبير إلا مرة واحدة، صباح اليوم الخامس، لا من أجل إخراجنا، ولكن من أجل أيادٍ بلا وجوه تُلقي علينا العديد من جرادل المياه الدافئة.

على العكس من آخرين كانوا أكثر إدراكًا للعواقب، لم يكن معنا - كلمر وأنا - ما نأكله أو نشربه. ولكن للعجب، فلم نعان كثيرًا في الأيام الأولى على أية حال. كنا نتحدث بصوت خفيض. كنا نستدعي ذكريات مرتبطة بالعاصمة. كنا نناقش كتبًا كنا قد قرأناها، نتحدث عن أصدقاء كانوا لنا في الجامعة، عن مقاهٍ كنت أمر أمامها مع أولي رات وفيها كلمر، الذي كان ينحدر من أسرة ميسورة، ويوجد مع أصدقائه ليشربوا كؤوس عرقي مشتعلة، وكؤوس بيرة، وأكواب شكولاتة كبيرة بالكريمة. كان كلمر يحدثني عن أهله، عن أبيه الذي كان تاجر فراء، عن أمه التي كانت تقضي يومها في العزف على البيانو في منزلهم الكبير على حافة النهر، عن شقيقاته اللائي كان عددهن ستًا، وأعمارهن من العاشرة حتى الثامنة عشرة. أخبرني بأسمائهن التي لم أحفظها. وأنا كنت أحدثه عن إيمليا وفيدورين، عن قريتنا، عن بقاعها الخضراء، عن ينابيعها، عن غاباتها، عن زهورها وحيواناتها.

هكذا أكلنا وشربنا من الكلمات، في الظلام والحرارة العفنة للعربة، خلال ثلاثة أيام. في الليل، في بعض الأحيان، كنا نستطيع النوم قليلًا، ولكن عندما لم نكن نستطيع كنا نستعيد- مرةً أخرى- حوارنا. لم يأت الطفل الذي تحتضنه المرأة الشابة بأي صوت. كان يأخذ ثديها عندما كانت تمنحه له، لكنه لم يكن يطلبه قط. عندما كان ثديها في فمه الصغير، كنت أراه يحفر في وجنتيها النحيلتين ويحاول أن يمتص قليلًا من اللبن، لكن ثديها كان يبدو رخوًا وفارغًا، وسرعان ما كان الرضيع يتوقف عن امتصاص ما لم يكن يأتي. حينئذٍ، كانت أمه تسكب قليلاً من الماء في فمه، الماء الذي كانت تأخذه من قنينةٍ زجاجية يحميها القش. كان هناك آخرون في العربة لديهم كنوز شبيهة، بعض الخبز، بعض الجبن، الحلوى الجافة، نقانق، وماء، كانوا قد احتفظوا بها بعناية بين ملابسهم وجلدهم.

في البداية، شعرتُ بعطش شديد. كان فمي يحترق. انتابني شعور بأن لساني أصبح متضخمًا وجافًا مثل جذع قديم، وأنه كان يملأ فمي لدرجة أنه سيدفعه إلى الانفجار. جف ريقي. وكانت أسناني تبدو كأنها جمرات تغرس نصالها الصغيرة الحمراء في لثتي. كنت أظن أن الدم كان يسيل منها. كنت أمرر أصابعي فوقها، لكنه لم يكن إلا وهمًا. تدريجيًا، وعلى نحو غريب، اختفى العطش. شعرتُ بالضعف أكثر فأكثر، لكني لم أعد عطشان. بالكاد جائع. وتواصل الحديث مع كلمر.

لم تكن المرأة الشابة تعيرنا أي اهتمام. ومع ذلك، كان لابد لها من أن تسمعنا جيدًا، تشعر بنا، كما كنت أشعر بردفها، وكتفها، وأحيانًا برأسها الذي كان يصطدم برأسي، أو الذي كان يسقط خلال نعاسها. لم توجه لنا الحديث قط. كانت تضم طفلها إليها. وبنفس قيمة طفلها كانت تقبض على القنينة التي تحتوي على الماء الذي كانت تستهلكه بمنهجية، بالنسبة لها وللطفل.

كان الجميع مثلنا، حيث فقدنا مفهوم الزمان والمكان. لا أتحدث عن المكان المباشر حيث كانت العربة، بل الفضاء الذي تنغرس فيه العربة. إلى أين كانت تسير ببطئها الثقيل؟ وما هو اتجاهها؟ أية أقطار كنا نعبر؟ أكانت موجودة بالخرائط؟

اليوم، أعرف أنها لم تكن موجودةً بأية خريطة، لكنها كانت تولد كلما مرت عليها عربة القطار. عربة القطار وكل عربات القطار الأخرى التي تشبه عربتنا، التي فيها، كما في عربتنا، عشرات النساء، الأطفال والرجال الذين كان يلتهمهم العطش، والحمَّى، والجوع، وفيها كانوا مختنقين، فيها كانوا مكدسين، وفي بعض الأحيان الموتى في مواجهة الأحياء، العربة والعربات الأخرى كانت تبتكر، من دقيقة لأخرى، بلدًا، بلد اللا إنسانية، السلب لكل إنسانية، حيث سيصبح المعسكر القلب. بالفعل، كانت رحلتنا هذه رحلة لم يقم بها أي إنسان قبلنا، أعني بمثل هذه الطريقة، هذه الجدية، وهذه الفاعلية، التي لم تكن تدع أي هامش لغير المتوقع.

كنا قد توقفنا عن عَد الساعات، الليالي، ظهور الشمس بين الألواح. في البداية، كان قد ساعدنا كشفُ الحساب، ساعدنا في محاولة معرفة اتجاهنا، وفي أن يخبرنا بأننا كنا نسير نحو الشرق، أو بالأحرى نحو الجنوب، أو أيضًا نحو الشمال. وفيما بعد، أهملنا ذلك الذي لم يكن إلا مصدرًا للألم . ولم نعد نعرف شيئًا. لم أعد أخال أننا نأمل حتى في الوصول إلى مكان ما. هذه الرغبة تخلت عنا.

لم أعلم إلا فيما بعد تمامًا - عندما عاودتُ التفكير فيها من جديد، وعندما حاولت التذكر مرةً أخرى، وحاولت إحياء الرحلة المرعبة ثانيةً- أني وصلت في ستة أيام وست ليالٍ. وكثيرًا ما قلت لنفسي - منذ ذلك الحين- إن هذا الوقت المنصرم لم يكن بريئًا. كان جلادونا يؤمنون بالله. كانوا يعرفون جيدًا - تبعًا للكتب المقدسة - أنه كان قد حدد ستة أيام لخلق الدنيا. ولا شك أنهم قالوا إنهم بحاجة إلى ستة أيام ليبدءوا في تدميرها. بتدميرها فينا. ولو أن اليوم السابع كان يوم راحته، فقد كان لنا - حين فتح الجلادون أبواب العربات وطردونا منها بالعصي- يوم نهايتنا.

لكن بالنسبة لي ولـ كلمر، كان ذلك قد حدث في اليوم الخامس. في الصباح، انفتحت الأبواب قليلا وأُلقيت علينا دلاء الماء، الماء الدافئ، الموحل، الذي سقط على أجسامنا القذرة، المتلاحمة، وأحيانًا الميتة، والتي- بدلاً من أن ينعشها، ويهدئها- ترك عليها نيرانًا كبرى. كأنما هذه المياه الفاسدة، بدلاً من أن تهدئنا، قد استدعت إلى الذاكرة كل الماء النظيف، الصافي، النقي، المشروب بكل شراهة في الماضي.

عاد العطش من جديد. لكن هذه المرة، أصبح هذا العطش كمعتوه وجعل منا معتوهين، لا شك لأن أجسامنا كانت قريبة من السقوط، وأرواحنا أصبحت بالغة الوهن، واستسلمت للهذيان. لا تسيئوا الظن: لا أبحث عن عذر لما فعلنا.

كانت المرأة الشابة الملاصقة لي تماماً لا تزال على قيد الحياة، وطفلها أيضًا. على أية حال، كانا يتنفسان، بضعف، ولكنهما كانا يتنفسان. إنها قنينة الماء التي جعلتهما يواصلان الحياة، وفي هذه القنينة- التي كانت تبدو لكلمر ولي لا تنضب- كان لا يزال ثمة بعض الماء. كنا نسمعه يصفع الجوانب الزجاجية لدى كل حركة للعربة. كانت موسيقى جميلة وغير محتملة، كانت تُذكر بالجداول الصغيرة، بتدفق الينابيع، لحن العيون المائية. كانت المرأة الشابة المنهكة تغمض عينيها أكثر فأكثر، تترك نفسها تذهب في نوع كثيف من النعاس الذي كانت تخرج منه فجأة، في انتفاضة، بعد عدة لحظات. في بضعة أيام، كان وجهها قد شاخ عشر سنوات، ووجه رضيعها أيضًا، الذي اتخذ ملامح غريبة لصغير عجوز مختزل في حجم مولود.

توقفنا – كلمر وأنا – عن الحديث منذ فترة طويلة. كان كل واحد يتدبر أمره مع صدمات عقله، وكان يخيط – قدر استطاعته – تاريخه وحاضره. كانت العربة تفوح باللحم الشاحب، بالبراز، بالرطوبة الحمضية، وعندما كانت تبطئ، تقتحمها أعداد بلا حصر من الذباب، تاركةً الريف الهادئ، والعشب الأخضر، والأرض الهادئة، لتندفع بين الألواح، وتأتي إلينا لتفسر احتضارنا باحتكاكات أجنحتها.

ما رأيناه، أعتقد أننا رأيناه في نفس اللحظة. وأدار كل منا رأسه نحو الآخر، بنفس الحركة. وفي هذه النظرة المتبادلة، كان كل شيء. سقطت المرأة الشابة، مرةً أخرى، في النعاس، لكن – على عكس المرات السابقة- كانت ذراعاها الخائرتان قد أرختا حضنها حول طفلها والقنينة الزجاجية. وكان الطفل، شديد الخفة، لا يزال ملتصقًا بجسم أمه، ولكن ليس بالقنينة، التي جعلها ثقلها تتدحرج قُرب ساقي اليسرى. تفاهمنا – كلمر وأنا – بلا كلمة. لا أعرف لو أننا فكرنا. لا أعرف ما إذا كان هناك ما نفكر فيه، أو ما إذا كنا ما نزال قادرين على التفكير. لا أعرف مَن بداخلنا،

مَن في غور أعماقنا، قد اتخذ القرار. وضعنا أيدينا على القنينة في نفس اللحظة. بلا تردد. فقط نظرة أخيرة متبادلة بين كلمر وبيني، ثم شربنا، بالتبادل، شربنا هذا الماء الساخن الموجود في الجوانب الداخلية للقنينة، شربناه حتى آخر قطرة، ونحن مغمضا الأعين، بشراهة، كما لو أننا لم نكن قد شربنا ماءً حتى ذلك الحين، موقنين أن ما كان يسيل في حلوقنا، كانت الحياة، نعم، الحياة، وكان لهذه الحياة مذاق سام، وآسن، براق وباهت، سعيد ومؤلم، مذاق، بشكل مرعب، سأتذكره حتى يومي الأخير.

ماتت المرأة الشابة عند المساء، بعد أن صرخت لفترة طويلة. وطفلها - هذا الجسد الصغير، المتغضن والشاحب، ذو الجبين المهموم والأجفان المتورمة - بقي على قيد الحياة لبضع ساعات. ماتت بعد أن ضربت بقبضاتها كل هؤلاء الذين كانوا بالقرب منها. بعد أن عاملتهم كلصوص وقتلة. كانت قبضاتها ضعيفة ونحيلة لدرجة أنها عندما كانت تصل إليَّ كنت أشعر أنها كانت تداعبني. كنت أتصنع النوم. كلمر أيضًا. كان القليل من الماء- الذي كنا قد شربناه- قد أمدنا بكثير من القوة، وكثير من الصحو أيضًا. بشكل يكفي للندم على فعلتنا، لنجدها مقيتة، وحتى نفقد الجرأة على فتح أعيننا، لنشاهدها، لتشاهدنا. بلا شك، كانت المرأة الشابة وطفلها سيموتان، على أية حال، لكن هذه الفكرة، التي كانت منطقية أيضًا، لم تكن تكفي لمحو الخزي الذي اقترفناه. إن فعلتنا هي الانتصار العظيم لجلادينا. كنا نعرف ذلك. ربما كان كلمر- في هذه اللحظات- أكثر معرفة مني أيضًا، بما أنه اختار أن يموت سريعًا. اختار أن يعاقب نفسه.

أنا، اخترت الحياة، وعقابي، هو الحياة. وبهذا الشكل أرى الأشياء. عقابي، هو كل المعاناة التي قاسيتها فيما بعد. إنه الكلب بروديك. إنه صمت إيمليا، الذي أُفسره- في بعض الأحيان- كأشد أنواع اللوم. إنها كوابيس كل الليالي. وبشكل خاص، هذا الإحساس الأبدي بسُكنى جسد سرقتُه بفضل بضع قطرات ماء.

ـ ٣٨ ـ

مساء أمس، غادرت المخزن وأنا أنضح بالعرق رغم البرد، والضباب و"الجروفروزت"- هذا البَرَد الصغير غير الأبيض بل الرمادي، غير الموجود إلا في قريتنا- كان قد استولى على أسطح المنازل كلها. لم يكن أمامي إلا عشرة أمتار أُنجزها لألتقي فيدورين في مطبخها، وبوبشيت في سريرها الصغير، وإيمليا في سريرنا، لكنها بدت لي بلا نهاية. في منزل جوبلر، كان ثمة ضوء. ربما كان يراقبني؟ ربما كان قد أتى ليتنصت بالقرب من المخزن على الضوضاء غير المعتادة للآلة؟ كنتُ أسخر منه فعلاً. مضيتُ في طريقي. كنت قد عدت إلى عربة القطار. وكنت قد قلتُ كل ذلك.

في حجرتنا،صررتُ الأوراق - ككل مساء - في قماش الكتان، قبل أن أنزلق في السرير الدافئ، وهذا الصباح، شأن كل صباح، عقدتُ القماش المحتوي على اعترافاتي حول بطن إيمليا. منذ عدة أسابيع وأسابيع وأنا أتصرف هكذا. تستسلم إيمليا، لا تُعير حركاتي أي اهتمام، لكنها هذا الصباح، وفيما كنت سأنزع يدي من بطنها، شعرتُ بيدها تأتي على يدي، تضمها قليلاً. لم يستمر ذلك طويلاً. لم أر جيداً لأن الوقت كان

لا يزال مظلمًا في الحجرة. لكني لم أحلم. أنا متأكدٌ من ذلك. كانت ربما حركة لا إرادية، لكن أربما كانت كمداعبة، كبداية أو كتجديد للمداعبة؟

كان الوقت أبعد قليلاً من الظهيرة، وهو يوم بلا ألوان. لم يكن الليل قد ارتفع حقًا. بتراخٍ، ترك النهار ضوءه يهرب والبَرَد يغطي كل قُمريات الأسقف والأشجار. تشد بوبشيت - حرفيًا - بشرة وجه فيدورين، التي تستسلم وهي تبتسم. إيمليا في مكانها، بالقرب من النافذة، تجول عيناها في الخارج. تغني.

انتهيتُ من "التقرير". خلال بضع ساعات، سأحمله إلى أورشفير وسينتهي كل شيء، على الأقل أتمنى ذلك. كتبت شيئًا بسيطًا. حاولتُ أن أقول بلا خيانة. لكني لم أُجمِّل شيئًا. لم أُنظِّم شيئًا. اتبعتُ أقرب طريق. ليس هناك إلا اليوم الأخير لـ"لاندرير"، الذي سبق "الإرينيه"، الذي أحتاج إلى سد فجواته. لم يشأ أحد أن يكلمني عنه. لم يشأ أحد أن يقول شيئًا لي.

في الصباح الشهير لاكتشاف الجثث المربوطة للحمار والحصان، رافقت "لاندرير" إلى النُّزل إذن. فتح لنا شلوس الباب. نظرنا لبعضنا البعض دون أن نتبادل كلمة. صعد "لاندرير" إلى حجرته. لم يعد يخرج منها نهارًا. لم يلمس الصينية التي أصعدها له شلوس. استعاد الجميع أنشطتهم المعتادة. الحرارة الأقل حدة جعلت الرجال يعودون إلى الحقول والغابات. كانت الحيوانات ترفع هي أيضًا رأسها إلى حدٍ ما. أقيمت محرقة بالقرب من النهر. أحرقنا فيها السيد سقراط والآنسة جولي. شاهد الصبية المشهد طيلة النهار، وهم يلقون - من حين إلى آخر - عدة أغصان على الجمر الهادئ، وعادوا إلى منازلهم مساءً بروائح اللحم المشوي والخشب المستهلك في شعورهم وملابسهم. ثم كان الليل.

بعد غروب الشمس بساعة، سمعنا أولى الصرخات. صوت حاد إلى حدٍّ ما، واضح ومفعم بالحزن كان ينطلق أمام كل الأبواب، "قتلة! قتلة!"، كان

صوت "لاندرير" الذي أتى- بطريقة غريبة لُمؤرِّق- ليذكر الجميع بما فعلوا، أو بما لم يمنعوه. لم يره أحد، ولكن كلاً منا سمعه. لم نفتح الأبواب. لم نفتح مصاريع النوافذ. سددنا آذاننا. وغُصنا في الأسِرَّة.

في اليوم التالي، في المعاملات التجارية، في المقاهي، في النُّزل، في تقاطع الشوارع وفي الحقول، تحدثنا عنه قليلاً. تكلمتُ قليلاً. وبسرعة يتم المرور إلى أمر آخر. كان "لاندرير" غير مرئي دائمًا. مسجونًا في حجرته. كما لو كان قد توارى، أو فَر. لكننا - في المساء الثاني، مرةً أخرى، بعد غروب الشمس بساعتين- سمعنا نفس الترديدة الحزينة، في كل الشوارع، أمام كل الأبواب، "قتلة! قتلة!".

كنت أُصلي من أجل أن يتوقف. كنت أعرف كيف سينتهي كل ذلك. فالحصان والحمار لن يكونا إلا مقدمات. كان ذلك سيكفي لتهدئة الدماء الفائرة لبعض الوقت، لكننا لو أثرنا أعصابهم من جديد، فكانوا سيصرون على ما في رؤوسهم، من أفكار قاطعة. حاولت أن أخبره. ذهبت إلى النُّزل. طرقت باب حجرته. لم أتلق أي رد. ألصقت أذني بالخشب. لم أسمع شيئًا. حاولت إزالة زلاجة الباب. كان مغلقًا بالمفتاح. وهنا رآني شلوس.

"ماذا تصنع، يا بروديك؟ لم أرك تدخل!

- أين هو؟

- لكن، مَن؟

- "لاندرير"!

- توقف، أرجوك، يا بروديك، توقف..."

في ذلك اليوم، كانت هذه هي كلمات شلوس الوحيدة.

أدار لي ظهره وذهب.

في المساء، في نفس توقيت الأيام الأخرى، عادت الدائرة. ومعها الصيحات. وفي هذه المرة صفعت مصاريع النوافذ، تطاير الحصي،

والسباب. لم يمنع ذلك "لاندرير" من متابعة طريقه، ومن القول في الظلمات "قتلة! قتلة!". وجدت صعوبة في النوم. ذلك لعدة ليال مشابهة، فأدركتُ أن الأموات لا يتركون أبدًا الأحياء. يوجدون دون أن يعلنوا عن أنفسهم. يتجمعون. يأتون ليجلسوا على حافة أسِرتنا، على حافة ليلنا. ينظرون إلينا ويعاشروننا. في بعض الأحيان، يداعبون جباهنا، وفي أحيان أخرى يمسحون بأيديهم شديدة النحول على خدودنا. يحاولون أن يفتحوا أجفاننا لكننا، عندما يستطيعون ذلك، لا نراهم أبدًا.

في اليوم التالي، اجتررت كل اليوم، بلا حراك. فكرتُ في "التاريخ"، الكبير، وفي تاريخي، تاريخنا. أهؤلاء الذين يكتبون الأول يعرفون الثاني؟ كيف تحفظ ذاكرة البعض ما نسيه آخرون، أو ما لم يروه قط؟ مَن المحق، مَن عزم على عدم ترك اللحظات الماضية في الظلام، أم مَن يقذف في الظلام بكل ما لا يلائمه؟ أن تعيش، أن تواصل العيش، أهو ربما أن تقرر أن الواقعي لا يكون نفسه تمامًا، ربما هو أن تختار حقيقة أخرى عندما تصبح تلك التي عرفناها ذات وطأة لا تُحتمل؟ ألم أفعل ذلك - من جهة أخرى - في المعسكر؟ ألم أختر الحياة في ذكرى وحاضر إيمليا، حين أُلقيت حياتي اليومية في لا واقعية الكابوس؟ هل سيكون "التاريخ" حقيقة عظمى صُنعت من ملايين الأكاذيب الفردية التي خيطت الواحدة بالأخرى، كتلك الأغطية القديمة التي كانت تصنعها فيدورين، من أجل لقمة العيش، عندما كنتُ طفلًا، والتي كانت تبدو جديدة ورائعة، بألوانها قوس القزحية، فيما كانت تتشكل من بقايا الأقمشة، ومن أشكال متنافرة، من أصواف مشكوك في جودتها، ومن مصادر مجهولة؟

عندما غربت الشمس، كنت ما أزال جالسًا على الكرسي. في الظلام. لم تكن فيدورين قد أشعلت شمعة. كنا نحن الأربعة في الغبشة وفي الصمت. كنت أنتظر. كنت أنتظر أن تدوي - من جديد - في الليل صرخات "لاندرير"، ومهاتراته الحزينة، لكن شيئًا لم يحدث. في الخارج،

كان الليل. كان الصمت. حينئذٍ خفت. شعرت بالخوف يأتيني، في بطني، تحت جلدي، في كل كياني، لم يحدث بهذا الشكل منذ فترة طويلة. كانت بوبشيت تدندن. أصابها شيء من الحمَّى. لم تستطع مشروبات ومناقع فيدورين خفضها. كانت العجوز تحكي لها حكايات لتهدئها. بدأت في حكاية "بيلسي الخياط المسكين"، عندما طلبت مني أن أذهب لأبحث عن قليل من الزبد في نزل شلوس، حتي تصنع عدة فطائر صغيرة من فطائر الرملية لـ بوبشيت، لتجدها في الصباح وتغمسها في اللبن. ظللت عدة ثوان بلا حراك. لم أكن أود الخروج من المنزل، لكن فيدورين أصرت. انتهيت إلى أن أقوم من مقعدي. أخذت سترتي، ورحلت وأنا أسمع صوت العجوز يبدأ الكلمات الأولى من الحكاية، بينما بوبشيتي، المتوردة والملتمعة بفعل الحمَّى مدت يديها الصغيرتين نحوي وهي تقول "بابا، عُد بابا، عُدا".

هي حكاية من أغرب الحكايات، "حكاية بيلسي". وبلا شك، فهي التي أثارت انتباهي بشدة عندما كنت صغيرًا، وكانت فيدورين تحكيها لي، لأن شعورًا كان ينتابني - وأنا أسمعها - بأن الأرض تهرب من تحت قدمي، وأني لم أعد أستطيع التعلق بشيء، وأن ما أراه أمام عيني ربما لم يكن موجودًا تمامًا.

"بيلسي خياطٌ صغيرٌ ومسكينٌ جدًا، يعيش مع أمه، وزوجته وابنته الصغيرة في كوخ متصدع في مدينة بيتوبوا الخيالية. ذات يوم، أتى ثلاثة فرسان لزيارته. تقدم الفارس الأول نحوه، وطلب منه رداء من القطيفة الحمراء لسيده الملك. أتمه بيلسي، وسلم الرداء الأجمل الذي لم يخط مثله قط. أخذ الفارس الرداء وقال لـ بيلسي: "سيكون الملك سعيدًا. خلال يومين ستحصل على مكافأتك". بعد يومين، رأى بيلسي أمه تموت أمام عينيه. "هل تلك هي مكافأتي؟" فكر بيلسي والحزن يملأه.

في الأسبوع التالي، تقدم الفارس الثاني وطرق باب بيلسي. طلب منه لسيده الملك رداءً من الحرير الأزرق. أتمه بيلسي، وسلم الرداء الأجمل

الذي لم يخط مثله قط، الأجمل أيضًا من رداء القطيفة الأحمر. عاد الفارس ليأخذ الرداء، وقال لـ بيلسي: "سيكون الملك سعيدًا. في خلال يومين، ستحصل على مكافأتك". بعد يومين، رأى بيلسي زوجته تموت أمام عينيه. "هل تلك هي مكافأتي؟" فكر بيلسي والحزن يملأه.

في الأسبوع التالي، تقدم الفارس الثالث وطرق باب بيلسي. طلب منه لسيده الملك رداءً من قماش البروكار الأخضر.تردد بيلسي، حاول أن يرفض، قال إن لديه الكثير من العمل، لكن الفارس أخرج سيفه من غمده. انتهى بيلسي إلى قبول الطلب. أتمه وسلم الرداء الأجمل الذي لم يخط مثله قط، الأجمل من رداء القطيفة الأحمر، والأجمل أيضًا من رداء الحرير الأزرق. عاد الفارس ليأخذ الرداء، وقال لـ بيلسي: "سيكون الملك سعيدًا. في خلال يومين ستحصل على مكافأتك". لكن بيلسي أجاب: "فليحتفظ الملك بالرداء وبمكافأته، لا أريد شيئًا. فأنا سعيد كما أنا". نظر الفارس مندهشًا إلى بيلسي. "أنت مخطئ، يا بيلسي، فالملك يملك سلطات الحياة والموت، كان يريد أن يجعل منك أبًا بأن يمنحك البنت الصغيرة التي رغبتها دائمًا.

- لكني لديَّ ابنة صغيرة من قبل، أجاب بيلسي،وهي كل سعادتي".

نظر الفارس إلى الخياط، وقال له:

"مسكيني بيلسي، لقد حرمك الملك مما لديك، أم، زوجة، ولم تحزن كثيرًا من ذلك، لكنه كان يريد أن يهبك ما ليس لديك: ابنة، لأن البنت التي تعتقد أنك أبوها ليست إلا وهمًا، وأنت غير واعٍ تمامًا. أتعتقد حقًا أن الأحلام أكثر قيمة من الحياة؟"

لم ينتظر الفارس رد بيلسي، وهو - من جهة أخرى - لم يرد بأي شيء. قال لنفسه إن الفارس كان يسخر منه. عاد إلى منزله، أخذ طفلته بين ذراعيه، غنى لها أغنية، وأطعمها وأخيرًا قبلها، دون أن يدرك أن شفتيه لم تكن تلمسان إلا الهواء، وأنه أبدًا، أبدًا، لم تكن لديه طفلة".

أعـود إلى مـا حكيت في بداية حكايتي الطويلة هذه، وصولي إلى نُـزل شلوس، التجمع الصامت لكل رجال القرية، وجوههم، رعبي، هلعي عندما فهمت ما فعلوه، وفيما بعد، حلقة أجسامهم التي ضاقت من حولي، صدقاتهم، ووعدي بكتابة التقرير على آلتي القديمة.

انتهى التقرير،قلت ذلك. فعلت إذن ما كانوا قد طلبوه مني. لم يتبق لي إلا أن أحمله إلى العمدة. فليفعل به ما يريد، لم تعد مشكلتي.

ـ ٣٩ ـ

أمس، ولكن، أحقًا أمس؟ أودعت أورشفير "التقرير". أخذت الأوراق تحت ذراعي، وذهبت إلي منزله، دون أن أخبره. عبرت القرية. كان الوقت مبكرًا جدًا. لم أقابل أحدًا، سوى "الزونجفروست".

"لا... لا... ليس حارًا، يا بروديك!"

ألقيت عليه تحية سريعة، وواصلت طريقي.

دخلت إلى مزرعة أورشفير. قابلت الخدم وقابلت الخنازير. لم ينتبه إليَّ أحد. لم ينظر إليَّ البشر، ولا الحيوانات.

وجدتُ أورشفير يجلس إلى منضدته الكبيرة، كاليوم التالي للإرينيه، عندما كنت قد ذهبت لأراه. لكنه أمس، لم يكن مشغولاً بالطعام. ببساطة، كان جالسًا، يداه مضمومتان على المنضدة، وكان يبدو أنه يفكر. عندما سمعني، رفِع رأسه تجاهي، وابتسم ابتسامة صغيرة.

"ها أنت، يا بروديك، كيف حالك؟ تصور أنني كنت أنتظرك... كنت أعرف أنك سوف تأتي هذا الصباح".

ربما مرةً أخرى، كنت سأسأله كيف استطاع معرفة ذلك، ولكني- على نحو غريب، في ذلك الصباح - اكتشفت أني لا مبال، أو بالأحرى مُترفع،

مُترفع عن جدوى الأسئلة والأجوبة. كان أورشفير والآخرون يلعبون معي بما فيه الكفاية. لقد تعلم الفأر ألاَّ يعير القطط اهتمامًا، وفي هذه الحالة، لو كان هؤلاء يفتقدون التسلية، فليس عليهم إلا المهارشة فيما بينهم. لن يعودوا بحاجة إليّ. كانوا قد حمَّلوني مهمة. وقد أبرأتُ ذمتي. وأخبرت بالأشياء.

وضعت أمام العمدة كل الأوراق التي كنت قد كتبت بها الأحداث.

"ها هو "التقرير"، كما طلبتم كلكم مني"

أمسك أورشفير بالأوراق بيد لا مبالية. لم أكن قد رأيته قط بعيدًا هكذا، وأيضًا شاردًا. حتي إن وجهه لم يكن يحمل السيماء الخشنة التي يمثلها عادةً. شيءٌ ما من الحزن محا سماجته.

"التقرير...، قال ذلك، وهو ينشر الأوراق تفصيليًا.

– أود أن تقرأه في الحال، أمامي، وأن تحدثني. لديَّ وقت. سوف أنتظر".

ابتسم لي أورشفير، وقال ببساطة:

"كما تحب، يا بروديك، كما تحب... أنا أيضًا، لديَّ وقت..."

حينئذٍ بدأ العمدة في القراءة، من البداية، من أول كلمة. كان الكرسي مريحًا. كنت أغوص فيه تمامًا. كنت أحاول أن أرى – في تعبيرات أورشفير– ما كان يمكن أن يشعر به، لكنه كان يقرأ بلا أدنى رد فعل. فقط كان يمرر يده الضخمة على جبينه، في بعض الأحيان، وكان يفرك عينيه كما لو لم يكن قد نام، أو يزم شفتيه، دون أن يدرك كم وبأية قوة كان يعضها.

كنا نسمع – في الخارج – المزرعة الكبيرة تصحو. وقع خطوات، صيحات، ضُغاب الأرانب، دلاء ماء كانت تُلقى على الأرض، أصوات، صرير

المصاريع، حياة بكاملها كانت تستعيد دورتها في قلب يوم كالأيام الأخرى في مجملها، وخلاله، في كل مكان في الدنيا، ثمة أناس كانوا يولدون وآخرون يموتون، في حركة أبدية.

استمرت القراءة لعدة ساعات. لم أكن أستطيع أن أقول كم بالضبط. بدا عقلي مستريحًا. كنت أتركه حرًا - كما بعد مجهود عظيم - في أن يتنحى جانبًا وأن يدور في الفراغ، وأن يذهب حيثما يبدو له بالفعل.

دقت الساعة. كان أورشفير قد انتهى من قراءته. تنحنح، ثلاث مرات، ثم جمع الأوراق، جعل منها رزمة واحدة منظمة بشكل جيد حتى لا تخرج عنها أيٌّ منها واستقر بعينيه الكبيرتين الثقيلتين عليّ.

"إذن؟" سألته.

انتظر قليلاً قبل أن يجيبني. وقف دون أن يقول شيئًا، وبدأ يتمشى بمهل حول المنضدة الكبيرة، بارمًا الأوراق حول نفسها ليجعل منها صولجانًا صغيرًا.

"أنا العمدة، يا بروديك، أنت تعرف ذلك. على العكس، أعتقد أنك لا تعرف ماذا يعني بالنسبة لي هذا. أنت تكتب جيدًا، يا بروديك، لم نُخطئ في اختيارك، وأنت تحب الصور، ربما كثيرًا إلى حدٍ ما، لكن في النهاية... سأحدثك بالصور. كثيرًا ما لاحظتَ رعاتنا في مراعي بقايا النباتات، أنت تعرفهم. هل يحبون أم لا الحيوانات التي نعهد إليهم بها، لا أدري. من جهة أخرى، أن يحبوهم أم لا، ليست مشكلتي، ولا مشكلتهم، فيما أظن. إننا نسلم الحيوانات إلى الراعي. وعليه أن يجد لهما عشبًا وفيرًا، وماءً نقيًا، وأسيجة تحميهم من الرياح. عليه أن يحميهما من كل خطر، يبعدهما عن المنحدرات شديدة الوعورة، عن الصخور التي يمكن أن تنزلق من عليها وتنكسر عظامهم، عن بعض النباتات التي تجعلهما تنتفخ وتموت، وعن بعض الكواسر التي يمكن أن تهاجم الأضعف منها، ومن الذئاب بكل تأكيد،

عندما تأتي هذه أحيانًا لتحوم بالقرب من القطعان. الراعي الجيد يعرف ويقوم بكل هذا، إن أحب أو لم يحب حيواناته. والحيوانات، هل ستقول لي إن كانت تحب راعيها؟ أطرح عليك السؤال".

لم يكن أورشفير يطرح أي سؤال في الحقيقة. لم يكن ينظر إليَّ حتى. كان مستمرًا في السير حول المنضدة الكبيرة، وهو يتحدث، ورأسه منخفض، وهو يربت يده اليسرى بـ"التقرير" الذي كان يمسكه في يده اليمنى.

"زِد على ذلك، هل كانت الحيوانات تعرف أن لديها راعيًا يفعل كل ذلك من أجلها؟ تعرف ذلك؟ لا أظن. أظن أنها لا تهتم إلا بما تراه تحت أقدامها، وبالضبط أمام رأسها. العشب، الماء، القش للنوم. هذا كل ما في الأمر. إنها قرية صغيرة، وهشة أيضًا. تعرف ذلك. تعرفه جيدًا. قريتنا عجزت تمامًا عن عدم البقاء على قيد الحياة. الحرب مرت فوقها كحجر ضخم لطحَّان، لا ليأخذ منها البذور، ولكن، ليذلها ويخنقها. نجحنا- بعد كل ذلك- في جعل الحجر ينحرف قليلاً. لم يحطم كل شيء. ليس كل شيء. بما تبقى، كان لابد أن تنهض القرية من جديد".

كان أورشفير قد توقف بالقرب من المدفأة الكبيرة المصنوعة من الخزف الأزرق والأخضر، التي كانت في زاوية الحجرة تمامًا. مال وأمسك حطبة من كومة صغيرة مرصوصة بعناية بجوار الحائط، فتح باب المدفأة ودس فيها الحطبة. لهب جميل، قصير ومتحرك، يتراقص من حولها. لم يغلق العمدة الباب. نظر إلى اللهب طويلاً. كان يصدر موسيقى مبهجة، تشبه الموسيقى التي تجتذبها أحيانًا الرياح الحارة من أغصان بعض أشجار البلوط، بأوراقها الجافة تمامًا في الخريف.

"لابد أن يفكر الراعي دائمًا في اليوم التالي. كل ما ينتمي إلى الأمس ينتمي إلى الموت، وما يهم هو أن تحيا، أنت تعرف ذلك يا بروديك، أنت الذي عدت من حيث لا نعود. وأنا، عليَّ - في هذه الحالة- أن أعمل بحيث يستطيع الآخرون أن يعيشوا أيضًا ، وينظروا لليوم تبعًا...."

في هذه اللحظة فهمت.

"لا تستطيع أن تفعل هذا، قلت له.

ولماذا إذن يا بروديك؟ أنا الراعي. القطيع يعتمد عليَّ لأُبعد عنه كل الأخطار، وخطر الذاكرة هو أكثر الأخطار رعبًا، لستَ أنت من أُخبره بذلك، أنت الذي يتذكر كل شيء، أنت الذي يتذكر أكثر مما ينبغي؟"

صفع أورشفير صدري بضربتين صغيرتين من "التقرير"، ليجعلني أتخذ مسافة، أو يغرس فكرة فيَّ، كمسمار في لوح خشبي:

"إنه وقت النسيان، يا بروديك. البشر يحتاجون إلى النسيان".

برقة شديدة، بعد هذه الكلمات الأخيرة، ألقى أورشفير بـ"التقرير" في المدفأة. في ثانية، انفتحت الأوراق- التي كانت قد لُفت على بعضها البعض- كتويجات لزهرة غريبة، ضخمة وممزقة، ثم تلوت، تأججت، أصبحت سوداء، ثم رمادية، وانهارت على بعضها البعض، لتندمج أجزاؤها بالرماد المحترق الذي سيُمتص بعد ذلك عبر ألسنة اللهب.

"انظر، حينئذ همس أورشفير في تجويف أذني، لم يعد شيئًا، لم يعد شيئًا مطلقًا. أأنت حزين جدًا من ذلك؟

أنت أحرقت الورق، لم تحرق ما هو موجود في رأسي!

أنت محق، لم يكن ورقًا، ولكن - على هذا الورق- كان ثمة كل ما تود القرية نسيانه، وستنسى. ليس الجميع مثلك، يا بروديك".

عند عودتي إلى المنزل، حكيت كل شيء لـ فيدورين. كانت تمسك بوبشيت على ركبتيها. والصغيرة تقوم بقيلولتها. كان خداها ناعمين كتويجات زهور البرقوق على أشجار حدائقنا، بشائرها تأتي لتسعدنا، بوردها الفاتحة للغاية، في بدايات الربيع. ندعوها هنا "بلومبارادتس"- زهور الجنة. اسمٌ غريبٌ بالفعل عندما نفكر فيه، كما لو أن الجنة يمكن أن

تكون على الأرض، كما لو أنها - من جهة أخرى- في أي مكان، يمكن أن توجد فيه أيضًا. كانت إيمليا تجلس قُرب النافذة. "ما رأيك في ذلك، يا فيدورين؟"، سألتها في النهاية.

لم تجب بشيء، إلا بعدة كلمات متقطعة لم تكن ذات معني. ثم بعد عدة دقائق، قالت بعد كل ذلك:

- "أنت الذي تقرر يا بروديك، أنت فقط. وسنفعل ما تقرره". نظرتُ إلى ثلاثتهن، البنت الصغيرة، الزوجة الشابة، الجَدة العجوز. كانت الأولى تنام كما لو أنها لم تكن قد وُلدت بعدُ، وكانت الثانية تغني كما لو كانت غائبة، والثالثة كانت تحدثني كما لو أنها لم تعد موجودة. حينئذٍ قلت، بصوت غريب، لا يشبه صوتي كثيرًا: "سوف نرحل غدًا".

ـ ٤٠ ـ

أخرجتُ العربة القديمة. تلك التي كنا قد أتينا بها، فيدورين وأنا، منذ زمن بعيد جداً. لم أكن أظن أنها سوف تُستخدم مرةً أخرى، ذات يوم. لم أكن أظن أنه سيكون ثمة رحيل، مرةً أخرى. لكن ربما لا يكون هناك إلا ارتحالات، على نحو دائم، لمن هم مثلنا، لمن هم على شاكلتنا.

الآن أنا بعيدٌ جداً.

بعيدٌ عن كل شيء.

بعيدٌ عن الآخرين.

رحلتُ عن القرية.

من ناحية أخرى، ربما لم أعد في أي مكان.

ربما غادرت التاريخ؟ ربما لم أعد إلا مسافر الخرافة، إن كان الأمر كذلك، فلم تحن ساعة الخرافات؟

تركتُ الآلة في المنزل. لم أعد بحاجة إليها. الآن أكتب في عقلي. فليس هناك كتاب أكثر حميمية. لن يستطيع أحد قراءة ذلك الكتاب. لن أخبئه. فهو لن يوجد أبداً.

في هذا الصباح، استيقظتُ مبكرًا جدًا، شعرت بإيملبا جانبي تمامًا، وفي المهد، رأيت بوبشيت، التي كانت لا تزال نائمة، وإبهامها في فمها. أخذت الاثنتين معًا في ذراعيَّ. في المطبخ، كانت فيدورين قد استعدت. كانت تنتظرنا. الصُّرر أُعدت. خرجنا بلا صوت. أخذت فيدورين في ذراعيَّ أيضًا، لم تكن تزن شيئًا، عجوزٌ جدًا وخفيفة جدًا. استهلكتها الحياة كثيرًا. كقطعة ملابس كنا قد غسلناها ألف مرة. بدأت في السير، وأنا أحمل هكذا كنوزي الثلاثة وأنا أجر العربة. حدث من قبل، فيما أعتقد، أن ارتحل مسافرٌ هكذا، من مدينته المحترقة، وهو يحمل على كتفه أباه العجوز وابنه. لابد أنني قرأت هذه الحكاية. نعم، لابد أنني قرأتها. ما أكثر ما قرأت من كتب. على الأقل، ألم يكن نوزل مَن حدثنا عنها؟ ربما لم يكن أيضًا كلمر أو ديودم.

كانت الشوارع هادئة والمنازل نائمة. كل شيء مثل المقيمين داخل هذه المنازل. قريتنا تشبه نفسها، قطيع، كما قال أورشفير، نعم، قطيع من المنازل الملتصقة ببعضها، هادئة تحت سماء لا تزال سوداء بل محرومة من النجوم، كامدة، فارغة ككل حجر من أحجار جدرانها. مررتُ أمام نُزل شلوس. كان يبرق ضوء صغير في المطبخ. مررتُ أمام مقهى الأم بيتيس، أمام ورشة حدادة جوت، أمام مخبز فيرفراو، سمعته يعجن عجائنه. مررتُ بالقرب من أسواق الخضار، بالقرب من الكنيسة، أمام محل بقالة روبل، أمام محل جزارة بروشيرت. مررت بالقرب من كل العيون وشربت منها قليلًا من الماء، إشارة وداع. كل هذه الأماكن كانت حية، وسليمة ومصونة. توقفت للحظة أمام نُصب الموتى، وقرأت ما كنت أقرأه دائمًا: اسم ابني أورشفير، اسم جنكنز، رجل شرطتنا المتوفى في الحرب، أسماء كاتور وفريبمان، واسمي، نصف الممسوح. لم أتأخر لأني شعرت بيد إيمليا على رقبتي، التي كانت تحاول - بلا شك - أن تقول لي أن نرحل، وهي التي لم تكن تحب قط المرور بالقرب من النُّصب، حين كنت أتأخر لأقرأ الأسماء، بصوت عال.

كانت ليلةٌ جميلة، باردة، وصافية، وكانت- من ناحية أخرى - تبدو أنها لا تريد أن تنتهي، حيث كانت سعيدة بتوانيها في حبِرها، بتقلبها فيه مرات ومرات، كما نحب - في بعض الأحيان- أن نبقى صباحًا بين الأغطية المطبوعة بالدفء. طفت بمزرعة العمدة. سمعت من داخلها الخنازير تتحرك داخل أسيجتها. رأيت أيضًا ليز، "الكنوج"، تعبر الفناء، تمسك بيدها دلوًا كان يبدو أنه مملوء باللبن، وكان يفيض حسب خطواتها، مخلفةً وراءها قليلًا من بياضه.

سرت. عبرت نهر ستوبي على الكوبري الحجري القديم. توقفت للحظة لأسمع خريره مرةً أخيرة. يحكي صوت هذا النهر أشياء كثيرة، ومهما كان ضعيفًا يستطيع المرء أن يسمعه. لكن الناس لا تسمع أبدًا ما تحكيه الأنهار، ما تحكيه لهم الغابات، الحيوانات، الأشجار، السماء، صخور الجبال، البشر الآخرون. إلا أنه يلزم وقتٌ للكلام، ووقتٌ للإنصات. لم تكن بوبشيت قد استيقظت بعد، وكانت فيدورين نائمة. وحدها إيمليا كانت مستيقظة تمامًا. كنت أحمل ثلاثتهم بلا عناء. لم أكن أشعر بأي تعب. فيما بعد الكوبري بقليل، لاحظتُ - على بعد خمسين مترًا مني- "الأوبنمست". كان يبدو أنه ينتظر، كما لو كان يريد أن يوضح لي الطريق. انطلق، بمشية صغيرة، وسبقني هكذا لأكثر من ساعة. صعدنا الطريق باتجاه هضبة هانك. اجتزنا غابات الصنوبر الكبيرة. كانت هناك روائح زكية من الطحالب وأشجار الشوكة. كان الثلج يشكل- تحت أشجار الصنوبر الضخمة - نوارًا مضيئًا والرياح تؤرجح قمم الأشجار وتضرب جذوعها قليلًا. عندما وصلنا إلي الحد الأمامي من الغابة، وبدأنا السير على مراعي بوركنوبف، جرى "الأوبنمست" ليتسلق إحدى الصخور. أنوار الفجر الأولى أضاءته حينئذٍ، اتضح لي أن الأمر لم يكن يتعلق بكلب، بهذا "الأوبنمست" الذي كان يسير في شوارعنا وفي منازلنا كما لو كان كل مكان مملكته، لكنه يتعلق بثعلب، ثعلب جميل جدًا وعجوز جدًا، بقدر ما

استطعت أن أحكم عليه، اتخذ وضعه، أدار رأسه نحوي،نظر لي طويلًا، ثم، بقفزة مرنة ورشيقة اختفى بين نباتات الوزَّال.

أسير بلا تعب. أنا سعيد. نعم، أنا سعيد.

المرتفعات من حولي كانت تتواطأ معي. سوف تخفينا. التفت إلى الوراء منذ لحظات، بالقرب من تمثال المسيح الجميل الغريب، لألقي نظرةً أخيرةً على قريتنا. في المعتاد، المنظر من هنا بالغ الجمال. نراها صغيرة. تبدو المنازل تماثيل صغيرة. لو مددنا الذراع، لاستطعنا تقريبًا أن نأخذها في راحة اليد. لكنني هذا الصباح، لم أر شيئًا من كل ذلك. نظرتُ جيدًا. لكنني لم أر شيئًا. مع أنه لم يكن ثمة ضباب، ولا سحب، ولا شبورة. ولكن- بالنظر من أعلى لأسفل - لم تكن هناك أية قرية، اختفت بأكملها. ومعها كل شيء، الصور، النهر، الكائنات، الآلام، الينابيع، الدروب التي سلكتُها منذ قليل، الغابات، الصخور. كما لو أن المنظر كله - بما كان يحتويه - قد امَّحى خلف خطواتي. كما لو أنني - كلما تقدمت- يُفك الديكور، تُطوى اللوحات المرسومة، تطفأ الأنوار. لكنني لست مسئولاً عن ذلك. لستُ مذنبًا بهذا الاختفاء. لم أستدعه. وما تمنيته. أقسم.

اسمي بروديك، وليس لي في الأمر شيء.

بروديك، هو اسمي.

سنجد جُملاً متناثرة في هذه الصفحات، استعرتها عن وعي من بعض الكتاب، بالتأكيد دون أن أستأذنهم. فليلتمسوا لي العذر، وليشكروني على ذلك:

"ALLE VERWUNDEN EINE TODTET كلهن يجرحن، وواحدة تقتل) شعارٌ مكتوبٌ على ساعة عربة تجرها أربعة جياد المانية من القرن السابع عشر، صنعها بينيديك فورستنفيلدر، ساعاتي من فردبرج، وقد طُرحت في المزادات بإحدى قاعات البيع الفرنسية منذ بضع سنوات.

"الحكي علاج ناجع"، عبارة مستمدة من بريمو ليفي، من "تحدي الجزيء".

"ألم تحن ساعة الخرافات؟" تعود لـ أندريه دوتل، في "الزمن الخرافي".

"تعلمتُ أن الموتى لا يتركون الأحياء"، استشهاد بتصرف من فادي ستيفان، عثرت عليه في كتابه الرائع "مهد العالم".

"أكتب في عقلي" ملحوظة أخذتها - فيما لو كانت ذاكرتي جيدة - من جان-جاك روسو، من "الاعترافات".

شكر

أشكر بكل حرارة ماري شارلوت ديسبوي، لورانس تارديو وإيف ليون، الذين نجحوا - بتدخلاتهم المتواصلة - في إنقاذ "بروديك" من ظلمة المعلوماتية.

ولمن سمحوا لي أيضًا بأن أشرك في هذا الكتاب بعض الأشخاص ممن كانوا- في لحظات مختلفة من حياتي - في حسباني، واختفوا أثناء سنتي كتابة هذه الرواية، وصاحبوا فكرتي وتطورها:

ماري - كلو د دو برونهوف، لوران بونللي، مارك فيلروج، رينيه لوبيه، جان- كريستوف لافاي، باتريك بيرهوت، جاك فيريه.

أخيرًا أشكر فريق دار نشر "ستوك"، بقيادة جان-مارك روبير، الذي منحني المودة والثقة، والشكر لـ ميشايلا هاينز، القارئة المخلصة لـ"مذكرات ما وراء القبر" ولنصيحتها النفيسة.

سلسلة
الجوائز
143

الرواية

رواية "تقرير بروديك" بلا "بطولة"، بالمعنى الأخلاقي، أو الإنساني العام، أو بالمعنى الإبداعي المعتاد. فلعل المؤلف لم يكن يسعى إلى تمجيد بطولةٍ ما، أو إعلانها، بقدر ما كان يسعى إلى النقيض، تمامًا.

وفي الطريق إلى "التقرير"، يتكشف العالم- بأشخاصه الفرديين، وتوجهاته الجمعية- عمّا لا يخطر ببال.

فهي ليست فحسب رواية جريمة قتل غريبة لشخص يبدو بالغ الغرابة (وهي حدثها الرئيسي)؛ ولا هي فحسب أيضًا رواية فظائع الاحتلال ومعسكرات الاعتقال النازية (وهي أحد أبعادها المهمة)؛ بقدر ما هي إعادة طرح لأسئلة الوجود الأساسية، ومعاني الفعل الإنساني، وغاياته، من خلال جريمة القتل وفظائع الاحتلال النازي.

هي اكتشافات أعماق الجوهر الإنساني، الأقرب إلى الغريزية الأولية، التي لا تتجلّى إلا في مواجهة "الخطر" وتهديد الوجود، دفاعًا عن الوجود الذاتي، وتماسكه الأدنى.

ولا تأملات أو أفكار مباشرة، أو حِكَم أو أقوال مأثورة. لكن الرواية تعج- فيما بين السطور وتحتها، من خلال الأحداث وسلوك الشخصيات المختلفة وردود أفعالها المتوقعة أو الغريبة- بذور الأسئلة التي ستنمو تلقائيًا في ذهن القارئ المتأمل، حول معنى الوجود الإنساني، وأسئلته الكبرى.

الروائي: فيليب كلوديل، روائي فرنسي.
الجائزة: جائزة الجونكور عام 2007.

ISBN# 9789779105314
6 221149 039667

٢٠
جنيهاً

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصميم الغلاف: د. هند سمير